@ketab_n

FIFA WORLD CUP
Qatar2022
13.12.2022

علي جعفر العلّاق

إلى أين أيتها القصيدة؟

سيرة ذاتية



علي جعفر العلّاق

إلى أيــن.. أيتهــا القصيــدة؟

سيــرة ذاتيــة

إلى أين.. أيتها القصيدة؟

سيرة ذاتية

إلى أين أيتها القصيدة.. سيرة ذاتية

المؤلف: علي جعفر العلّاق

الطبعة العربية الأولى 2022



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. بسام الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan. publish@gmail. com

www. alaanpublish. com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

ISBN: 978-9923-13-535-8

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 /8 /3895)

306

العلاق، علي جعفر باقر

إلى أين أيتها القصيدة/ علي جعفر باقر العلاق. عمان. الآن ناشرون وموزعون، 2022

(328) ص

ر. إ: 3895 /8/ 2022

الواصفات: النثر العربي/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

1

واسط، والحَجّاج، وأخيلة الطفولة

(1)

حدّق الحجّاج بن يوسف الثقفيّ بالجند المتخلفين عن الالتحاق بجيش الفتح، وقد جلبتهم شرطته إلى فناء الجامع، فرأى حقلاً من الرؤوس، يانعًا وفي لحظة قطافه تمامًا. وما إن أطلق وعيده المرعب حتى عم الصمتُ أرجاء المكان. ارتخت الأيدي المعروقة، وانثنت الركب، وتساقطت على البلاط حجارة كانت معدة لرجمه. ومنذ تلك اللحظة، تشققت قيعان واسط، واختلطت حجارة أسوارها بالدم.

وظلّ يتعالى صراخ الفارّين من الحجّاجُ خوفًا منه أو الفارّين إليه استجارةً به، وأخذ الطغاة يتكاثرون كالكمأة، غير أن ملامحهم كانت تتغير دائمًا، ويصير لكلٍّ ضحاياه التي لا تعد، ودوافعه التي لا تحصى. وصار الفلاحون، الذين يعرفون الله كما يعرفون رائحة الأرض المحروثة، يألفون نمطين من الموت: موتٌ يقدره الله ويحدّد آجاله، وآخرُ يحكم به الإقطاعيُّ على الناس.

لم يقترن تأسيس مدينة واسط القديمة بتفتح الحياة واتساعها كما يبدو. بل كان العكس هو الصحيح ربما. كان اقترانها بفائض الاستبداد كبيراً، فهي مدينة لم يؤسسها طلّاع الثنايا تلبية لنداء الحياة أو الرغبة في إنعاش مدياتها. بل لتجسد واحدة من أكثر فترات القسوة في التاريخ، حتى

يخيل لي أن حجارة هذه الأرض لا تزال، حتى اليوم، زلقة الملمس بفعل ما علق بها من دم وأنين.

ويخيل إلي، أيضا، أن الحجّاج، ذلك الطاغية البليغ، حين همّ ببناء واسط إبّان حكمه، إنما كان يستجيب إلى لحظةٍ من لحظات تشهّيه للسلطة. كان لا بد له من أن يزيد من سعة الأرض التي يحكمها لكي تتسع للمزيدِ من بطشه. لقد بلغ الجبروت حداً دفع بالحسن البصري إلى إطلاق صرخته الشهيرة: عجبتُ من جرأتك على الله، وعجبتُ من صبر الله عليك.

(2)

حين فتحتُ عينيّ في قريتي الصغيرة تلك، كانت حواس الطفل الذي كنته، مفتوحة على عاقول البراري أو نكهة الحقول الفوّاحة. وكان فيه ميلٌ، لم يفارقه حتى الآن ربما، إلى مقدم الخريف، والبدايات الأولى للرعد والمطر وقطاف الثمار. ولا أزال أتذكرها بحنينٍ شجيّ. بساطة أقربُ إلى الفقر، وتفاصيلُ عصية على النسيان. ابتعدَ بها الزمن، أو ابتعدتْ به، حد الانخراط في نقطةٍ سديميةٍ لا عودة منها. لكنّ خيطاً خِرافيًا، دافئًا ونحيلاً، مازال يمتد بيني وبين تلك القرية وأكواخها الطينية الصابرة. تماماً كما كانت، تمتد سدتها الترابية حتى تربطها بمدينة الكوت، مركز محافظة واسط.

كانت محافظة واسط، التي يعرفها الناس آنذاك، بلواء الكوت، تعيش نظاما إقطاعيا بالغ الشراسة. وكأنّ وعيد الحجاج قد صار لعنة واسط القديمة: لا تزال يتحكم في أقدار الناس ومقدّراتهم. أرض شاسعة ممتدةٌ، كالسماوات، يملكها شخصٌ واحد، هو الإقطاعيّ، وفلاحون، بالآلاف، يزرعون تلك الأرض، ويسهرون على ترابها حتى يخضر، وعلى حقولها حتى تموج بالذهب والثمار. وفي آخر الموسم قد لا يحصلون إلا على حفنةٍ من القش، أوما يكفي لمنع هلاكهم جوعًا.

لم يكن والدي مالكا للأرض، في تلك القرية، ولم يكن فلاحا تماما. كان أكثر من فلاحٍ بقليل، وأقلَّ بكثير من مالكٍ للأرض. عبارة كررتها كثيراً. وكنت أحس، دون أن أعي بطبيعة الحال، أن ثمة تراتبا في مقامات الناس، ومنزلاتهم الاجتماعية والاقتصادية. مالك واحد للأرض وما عليها، وفلاحون لا يملكون إلاّ تعبهم وانتظارهم المرير. حالات من الفقر، تصل حد الإذلال أحيانا. وأتساءل الآن عما كنت أحسه آنذاك دون أن أعيه: أكان بقية من عنت الحجاج وقسوته الكبيرين؟

في تلك القرية التي ربطت لغتي إلى الماء، تعلمّتُ الإصغاء إلى الريح الشتوية وهي تردد نواحها الليليّ البارد في الحقول المجاورة، وأودعتُ ذاكرتي حشداً من المخلوقات الممعنة في ندرتها وصفائها. في تلك القرية الذائبة في فضاء من الحنين ألفْتُ طيورَ الحصاد، والغجرَ القادمين من وراء الظنّ: يصنعون، في النهار، حليّ النساء وخناجرَ القتلة، ويبيعون

الطربَ والملذات في الليل.

ومذ هاجرنا، في منتصف الخمسينات، وحتى هذه اللحظة، وواسط كلها تتماوج في حناياي غائمة، شجية. لا تبتعد تماماً ولا تقترب بما يكفي. لا غيابٌ يعينني على النسيان، ولا قربٌ يساعد شمل روحي على الالتئام:

ربما الوهـُـم يبتكرُ امرأةً
من حنينِ الشجَرْ..
ربما القَشُّ، لا وابلٌ من مطرْ..
ربما واسطٌ تتموّجُ، فيَّ، كما الأمّهاتُ..
يغنّينَ للشيبِ أو للقلوب الحجرْ..

(3)

مجموعة من الأكواخ الطينيّة، والحقول الممتدّة، والقلوب البيضاء. لا تقع بعيداً عن النهر، فالمسافة بينها وبين دجلة لا تتجاوز الكيلومترين أو الثلاثة، ولا يفصل بينهما سوى سدّة ترابية تمتدّ من مدينة الكوت، مركز المحافظة، وحتى مدينة الشيخ سعد. وكم سمعنا في ليالي الفيضان صيحات الفلاحين وأهازيجهم وهم يعملون على تعلية السدّة وتمتين جَوانبها خوفاً من جموح النهر أو جنونه الطينيّ المفاجئ.

كانت القرية تقع على الجانب الأيمن من ذلك الطريق الترابي المرتفع، الذي يربط القرى المتناثرة بمدينة الكوت. ويفصل بين السدة

والنهر شريط من الأرض الغرينية الخصبة التي كان الفلاحون يزرعونها عادة بالباقلاّء، واللوبياء، واليقطين والقثاء، والشمام، والبطيخ، والرقّي. وهكذا كان هذا الشريط الخصب، والذي نسمّيه (الحاوي) يعبق بروائحه الخاصة. ولم يكن ليلنا بمنأى عن ذلك العبق المنعش الذي تحمله إلينا، في الليل، أنسام النهر المبللة. بل كنا نحس، أحيانًا، أن الليل نفسه كان مائيًا إلى حدّ كبير: وكأنه يأتينا من النهر مباشرة. ليل كنا نراه مختلفًا عن ليالي القرى الأخرى، البعيدة تلك القرى التي تقع وراء الليل، والمحرومة من ذلك الجوار المائي البهيج.

تشدّني إلى الماء، منذ طفولتي، رابطة خاصة: شيء ما، أو قوّة خفيّة لا تدخل دائرة الإدراك أبداً، بل تظلّ، هناك: في الجذر، أو في قاع البئر، أو ظلمة اللاوعي. لتشكل جزءاً بينًا من شخصيتي واتجاهات سلوكي ربما:

يا ماءُ، يا أيهذا البهيُّ، العصيُّ، الحنونْ
لغةً كنتَ لي، حينما اخشوشنَ
الآخرونْ..

كان الماء، وما يزال، يحمل لي دلالات خاصة، هي مزيج متدافع من عناصر عذيدة، يلطم بعضها بعضًا: معجزة الخلق، الغموض، الحرية وقهر النهايات، توق الجسد وعجزه، جبروت المخيّلة، الطبيعة وسحرها المترامي.

وللماء عليّ سطوة لا تخفى؛ فهو يضعني دائمًا في مناخات وجدانية بالغة القسوة والعذوبة، تتمثل، ربما، في الحزن المندفع كالغيوم الأولى.

كان الماء، وما يزال، يرتبط لديّ بالموت كما يرتبط بالحياة. وكان من المعتاد أن يهرع القرويّون إلى النهر مفجوعين بغرق واحد من أبنائهم. وكثيراً ما كنت أرى مشاهد كهذه: ينتظر القرويّون ساعات طويلة، وربّما أيامًا، في انتظار أن يطفو جسد الغريق على سطح الماء. يوزّعون سهرهم المرّ على الضفاف، في استقبال الحبيب الذي خذله جسده، أو اختطفته دوّامة النهر منحدرة به إلى الأعماق المظلمة: حيث الموت الكامن هناك.

ولم تكن قريتي تلك، تسلم من بطش النهر حين يفيض ويخرج عن طوره. ومع أنه كان ينساب على مقربة منها حنونـًا في أغلب فصول العام. لكنه، حين يطفح به الكيل، يتحوّل إلى قوة سيّالة مهلكة تدمّر كل شيء: الأكواخ، والأسرّة الطينية، والذكريات. وطالما روت لي أمي، أن الماء الهائج اقتحم عليهم نومهم فجأة، ذات ليلة، بعد انهيار جزء من السدة الترابية الفاصلة بين النهر والقرى المتناثرة قريبـًا منه.

تدفق الماء والظلام على البيوت فعاث فساداً بكل شيء: بالجدران، وقطعان الماشية، ومهود الأطفال. كان المهد يُصنع من القماش، ويُشدّ من طرفيه إلى عارضتين خشبيّتين، ثم يُحرّك، بعد أن يُوضع فيه الطفل، كما تُحرّك الأرجوحة. حمل الفيضان بعض المهود، وغمر بعضها الآخر. وَهكذا امتلأت أحلام الأطفال بالماء الطيني والصراخ، وكنت أوشك أن أكون، في تلك الليلة، واحداً من أولئك الأطفال الغرقى. وبعد ذلك بسنوات طويلة اقتحم هذا المشهد عليَّ أحد نصوصي:

تُرى لو مضى النهرُ حتى يتمَّ حماقتَهُ..
أيّنا كان يبلغُ أقصى النهاياتِ
وأيٌّ سيبقى رهينَ الزبدْ؟

ومع ذلك كان لنهر دجلة مباهجه المائيّة الكبيرة: يوزّعها علينا، نحن الأطفال، طوال العام. وكنا نظنّ الفيضان نفسه واحداً من المشاهد الآسرة. كان مشهداً لا يُنسى. كم استمتعنا به ونحن نراه يطفح بذلك الجمال المتوحّش، تاركين للكبار، أعني آباءنا وأمهاتنا تحديداً، معاناة ما يلحقه بأكواخهم وحقولهم وأحلامهم من هلاك. وكم كان يثيرني منظر الماء المحتدم وهو يُصارع ليحدث شرخاً ما في جسد السدّة الترابيّة. كان منظر النهر مثيراً، وقد تباعدت ضفّتاه بفعل ارتفاع مناسيب الماء في الربيع، حتى بدا وكأنّه أفقٌ مائيٌّ عريضٌ لا نكاد نرى نهاياته البعيدة. ووسط ذلك كلّه، لن أنسى تلك الكائنات الناعمة: السمك اللامع، وأفاعي الماء، والطيور، التي تنقضّ، بين لحظة وأخرى، على فرائسها الطريّة.

(4)

تتيح حياة القرية للإنسان فرصة لا تُضاهى للامتزاج بالطبيعة والتشبّع بما تكتظّ به من براءة، أو قسوة، ومن دعوة للتأمّل، أو إغراء للحواس. في

القرية لم أكن أحسّ أنني أشاهد عالماً يقع بعيداً عني؛ لم أكن متفرّجاً، بل كنت أحد كائنات تلك الطبيعة، وبعضاً من ضجّتها الخضراء التي لا تُملّ.

هكذا كنت أحسّ، وهكذا كنت امتلئ بما يبثّه، فيّ وحواليّ، ذلك العالم الممعن في بساطته وجماله، وكأنه سيمفونية مسكرة تخترق جوارحي كلّها. موسم الكمأة، توافد الغجر، أيام الحصاد، رائحة التراب الرطب بعد المطر، منظر اللقالق البيضاء وهي تقف، في مياه الغدران، على قدم واحدة.

إن الالتصاق بالطبيعة كان يمثّل لنا، نحن الأطفال، جزءاً من سلوكنا اليومي، وعبثنا البريء. كانت الطبيعة تقف عارية أمام عيوننا الشرهة دونما روادع أو مصدات. كنزاً من المشاكسات والمسرّات والمتاعب اللذيذة. هكذا كانت وهكذا كان إحساسنا العفوي بها، وهي تفوح من ثيابنا المهلهلة، وتعلق بقلوبنا الصغيرة الطافحة بالحياة.

أنت في القرية جزء من الأرض، أما في المدينة فثمة ما يحرمك من إحساس كهذا؛ لأن هناك ما يجعل تماسّك، مع جسد الطبيعة، منقوصاً: المساحات العارية من الشجر، الطرق المعبدة، والأرصفة، السيّارات، والألبسة. أشياء ومعادن وكتل صمّاء تجعل منك «شيئاً» منفصلاً عن «شيء» آخر منفصل عنك. القرية تهبك إحساساً مختلفاً تماماً، حين تحسّ أن قدميك نبتتان تنبعثان من التراب العاري مباشرة. وأن جسدك

كله قد جُبل من طين القرية ومن مائها، ثم نشف بعد أن تعرّض لهواء الليل أو لفحة الظهيرة.

ولا يمكنني أن أنسى تلك المتعة العجيبة: الخوض في طين الحقل والقطف من ثماره النيّئة. كان عبث الطفولة يدفعنا إلى الركض بين النباتات الكثيفة، والتراشق بالطين والماء، ومطاردة الطيور، أو الجراد، أو الأرانب العابثة.

وكم يكون المنظر مغرياً حين يصبح الجوّ كلّه مشبعاً بتلك الرائحة الخضراء البهيجة. وما أجمل أن تمدّ يدك إلى هذه النبتة أو تلك فتحسّ، بين أصابعك، ملمس الثمار الناعمة المتراصّة: أصابع الباقلاء أو السمسم، أو جوز القطن. كان منظر نباتات الطماطم، مثلاً، مثيراً إلى أبعد الحدود: مصابيح مدوّرة، ريانةً، شديدة الحمرة. نقوم، أحياناً، بقطفها قبل أن تنضج تماماً، ونلتهمها بتلذّذ عجيب وكأنّنا نتركها تكمل نضجها هناك، حيث تختلط بدمائنا التوّاقة إلى الضوء.

ومن مباهجنا الحسية، التي لا تزال تمثل ميراثنا من قرانا البعيدة، رائحة الرزّ العنبر، ورزّ الماش، وكذلك حلوى المدكوكة والشعث: أولاهما مزيج من التمر والسمسم تدقّه بالهاون الخشبي الكبير، فتياتٌ في أوج شبابهنّ، حتى يسيل الدهن من مسامات الخشب القاسي، والثانية عجينة من التمر والدهن والبثيث، وهو اللبن المجفف على شكل مسحوق خشن. رائحة كانت تدب إلى نومي مخترقة عتمة الكوخ

واستغراق عائلتي في النوم.

وكثيراً ما يحدث، ونحن نتراكض في تلك الحقول المرويّة توّاً، أن يتجاور احساسنا بالجمال، وإحساسنا بالرعب: كم شعرنا، تحت أقدامنا الحافية، بملمس أفعى وهي تسيل، مبتعدة، بكامل جمالها الأملس المخيف. وكم تجرّحت أقدامنا أو أيدينا ونحن نطأ على شظيّة حادة من التنك أو الحديد المختلط بالطين. أو حين نتعرّض لضربة غصن شائك. وفي الغالب لا يعيدنا إلى بيوتنا إلا الإحساس بالتعب، أو الخوف من الليل أومن عقاب الآباء. وغالباً ما نعود وقد ترك بعضنا قطرات من دمه، عالقة هناك، بعظام شجرة أو حجارة حادة.

هناك مناسبات للفرح، مبعثرة، بين أيام السنة. تأتي في انتقالات زمنية معلومة، مع البرد أو تجمع السحب، أو عندما يتهيأ الناس للربيع أو الحصاد أو العيد. الملابس الجديدة، مثلاً، لا تلامس جلود الكثيرين إلا مرةً، أو مرتين في العام تقريباً، في العيد أوفي تحولات الفصول. أما الباص فهو حامل البشائر اليومي، نودع من يذهب معه إلى المدينة ونستقبل من يجيء. وغالباً ما نجد متعة غريبة في التعلق بذلك الباص أو بالسيارات المارة على السدة الترابية خلال النهار، على أمل النزول منها في القرية المَقبلة. ويحدث أن تخذلنا أيدينا، أو أرجلنا، فلا نحتمل الركض مع السيارة مسافة طويلة ولا البقاء معلقين بها. ولا يبقى أحياناً ما يشدنا إلى تلك السيارة إلا أملٌ مشكوكٌ فيه بمرتفع أو حفرة أو حيوان يعبر. عندها

نسقط مبعثرين على الطريق بعد أن يبطئ السائق في سيره، ثم نعود إلى قرانا وجلودنا مغطاةٌ بالتراب والكدمات.

تذهب بنا شقاوتنا، أحياناً، إلى أقصى ما في الطفولة من شيطنات بريئة، لقىً تلمع بين العشب، ضحكات تنبثق من قلوبنا، لها رنة الرعد الصقيلة، أيام الربيع. نلهو بكل في أجسادنا من طاقة على الفرح أو انتظار ما يمكن انتظاره من تحولات الأرض، ونحن نتشمم رائحة أعماقها المحروثة. كنا نرتجل ما يبعث المرح الذي لا يودي بأحد. كنا نعجب من أحد أصدقائنا. كيف اهتدى إلى تلك الطريقة المبتكرة في تصفيف شعره، الأشعث، المتنافر؟ إلى أن اكتشفنا السر. كان يخرج من بيته مباشرة إلى حقل الباميا. يقطف بعضاً من أصابعها الناضجة، ثم يفركها بين كفيها جيداً حتى يغطي غراؤها اللزج راحتيه. ثم يمرر أصابعه بين شعره القاسي. فيظلّ مصفوفاً، فلا تهتز شعرة منه إلى آخر النهار. وكان يدعي أنه يستخدم كريماً خاصّاً يأتي به أبوه من مدينة الكوت أو الشيخ سعد. إلى أن فضحته لزوجة الباميا أو بقايا حبيباتها الصغيرة..

(5)

ما أجمل مخيّلة الطفولة، وما ألذّ تصوّراتها الشرسة والمحببة في آنٍ. إنّ لها قدرة هائلة على أن تجعل للتراب رائحة الحليب، وللأفاعي قلوباً تعشق بحنان بالغ. خرافات وحكايات كثيرة كانت تهبّ على عقولنا

فتدفعنا أمامها، في دروب القرية، لنمارس لهونا العجيب، أو نلتصق، أكثر فأكثر، بسحر الخرافة وأجوائها العذبة. كم اعتقدنا، أنا وبعض أقراني، أننا نشم رائحة الحليب وهو يندفع إلينا من تراب الأرض كلما مر، بمحاذاة القرية، بعض البدو وهم على ظهور جمالهم العالية.

كان كل منا يختار واحداً من خفاف الإبل المرسومة على التراب، وينحني عليه وكأنه يصلّي. يفتح راحة كفّه اليمنى عمودياً على سعتها غارساً خنصره في التراب وطرف إبهامه في فمه. وفجأة تتدفّق رائحة الخرافة صاعدة من تراب الطريق إلى أفواهنا الصغيرة. وما هي إلا لحظات حتى يمتلئ الجوّ برائحة الحليب: حليب النياق العالية كالشجر والرشيقة كالأباريق. كنا نحسّ، فعلاً، أن أنوفنا ملأى برائحته، وكنّا نتلمّظ به بين أفواهنا. بل كنا، أحياناً، نسارع إلى أطراف أردائنا لنمسح بها ما علق منه بالشفاه، أو ما تساقط على أسمالنا الكالحة.

وتذهب بنا الخرافة، أو الواقع الذي يشبه الخرافة إلى أبعد من ذلك. كان نسمع أن لبعض الرجال قدرات عجيبة: كأن يكون ليديه لمسة سحريّة تشفي من لدغة الأفعى ومن لسعة العقارب السوداء كالليل. وكان أكثر ما يثير مخيّلتنا تلك الخرزة السحريّة المسمّاة (عِرْقُ السواحل) كانت، كما يقال، تمنح الرجل الذي يحملها حظوة لدى النساء، وتأثيراً شافياً للدغة الأفاعي السامّة. هذا ما تقوله أحاديث القرية، أو خرافاتها المثيرة للخيال. وكم كنا نحسد ذلك الرجل، وكم تمنيّنا أن نكوّنه ذات

يوم، فنتمتّع مثله بما تمنحه تلك الخرزة العجيبة من تأثير ساحر على النساء خاصة.

تقول أحاديث القرية إن تلك الخرزة لا تجيء إلا هدية من ثعبان وأفعى يكونان في حالة عشق خاصة، فهما لا يهبانها إلا لمن يراهما في ذلك الوضع ثم يتركهما ينعمان بعناقهما أو التفافهما الحميم. وبعد أن ينتهيا من اشتباكهما اللذيذ هذا، ينسلان بين الأدغال الكثيفة تاركين، وراءهما، في فراشهما الطري، تلك الخرزة المذهلة.

كنا نستمتع كثيراً بتلك الخرافة، وربّما ما يزال يصدقها الكثيرون من أبناء القرية ويستمتعون بها. ومع تحديقنا الدائم في الأدغال وضفاف الأنهار، إلا أننا لم نلمح، ولا مرة واحدة، أفعوانـاً يحتضن أنثاه بطريقة عاطفية ملتهبة.

سرديّات الفرح والفجيعة

(1)

لن أنسى تلك اللحظة. زيارة قريتي، في محافظة واسط، حيث ولدت وعشت فيها طفولتي، بعد أن غبت عنها طويلاً. لم يكن معي يومذاك، في السيارة، غير أسرتي الصغيرة، وكان يملؤني إحساس لذيذ بكلّ ما حولي: ها أنذا أعود إليك ثانية أيّتها الطفولة! هكذا كانت أحاسيسي متزاحمة، جيّاشة. لم أكن أقود سيارتي على طرق أرضيّة، من حجر أو تراب. بل كانت تندفع بنا، أوبي على الأصحّ، مأخوذة بنداءات غامضة كانت تهبّ علينا من كلّ صوب.

كنت أتخيلها أجمل القرى وأكثرها عذوبة؛ تسترخي بمحاذاة دجلة، وكأنّها تدلّي أذيالها في مياهه المتدافعة ليصعد ذلك البلل الجميل إلى قلبها فيزيده رقّة ورهافة، ويهبّ نسيمه الأخضر على أيّامها، وحكاياتها، وأغانيها، فيجعل لها، في ذاكرتي، طراوة لا تنفد.

ورغم إنني تركت قريتي مهاجراً مع أسرتي إلى بغداد، وأنا ما أزال دون التاسعة، فإنها لم تفارقني أبداً: ظلّت كائناتها وأشياؤها تفوح من لغتي باستمرار، وظلّت طيورها الصباحيّة تملأ مخيّلتي بالضجيج الحيّ، والأعشاش الدافئة حتّى وأنا في أكثر حالاتي هدوءاً وإحساساً بالعزلة.

رائحة الجنة التي تقطر من ثيابي، تغذّيني بالحلم حيناً وبالوهم أحياناً أخرى، لأظلّ لصيقاً بذاتي وعصيّاً على التفتّت. كانت الفردوس الطينيّ الذي تفوح منه، حتى الآن، رائحة الكمأة والطين الحرّي، نباتات الخُبّاز ورِشّاد البرّ، فاكهة الرقّي والبطيخ ونكهة الشمام. وكم حدّثت زوجتي وابنتيّ وصال وخيال عنها وعن أعيادها وأغاني الأمهات أو الزوجات التعيسات فيها.

كانت لنا أيامنا الحافلة بالمناسبات الاجتماعية التي تموج بكل ما يثري النفس. وما تزال ذاكرتي تضجّ بتلك الانفعالات المنفلتة من عقالها، أيام الأعياد والأعراس، أو مآسي التاريخ، والمناسبات الاجتماعية، وتقلبات الفصول ومواسم الحصاد، والتنادي لدرء الفيضانات، أو استعراضات القوة والتلاحم من خلال التجمعات القبلية. فعاليات كثيرة، كنت أحضرها بصحبة والدي غالباً. ولا يتم أداؤها عنها، بغزارة استثنائية، إلاّ عبر الصوت، والكلمة، والإيقاع.

كان الصوت، الذي هو صميم تلك الفعاليات وممرها المفضي إلى الروح، يأخذني إلى أقصى مديات الانفعال ممثلاً بهلاهل النساء، أغاني الريف أو الأغاني الغجرية، نايات القصب النائحة، إطلاق النار في الأعراس والمآتم والأعياد.

وكان للكلمة أيضاً حضورها الملهب للوجدان أيضاً، أعني القصيدة الشعبية، بإيقاعاتها العديدة، كالموال أو الزهيري، والأبوذية. والحركة

التي ترافق هـذه الفعاليات جميعـاً: رقصات الغجر النضّاحة بتشهيات الجسـد ونداءاتـه، وقـع الأقـدام المنفعلـة في دبكـات الجـوبي، انـدفاع الأجسـاد وتراجعهـا وسـط الغبـار وحركـة الـريح. ولا أنسـى مـا تتركـه الأهزوجة المرتجلة من انفعـال رجـولي فـذّ، في تلك اللحظات العـامرة بالانفعال والتباهي.

كان هـذا المـزيج، مـن الإيقاع والكلمـة والحركـة، يـذوب في أعمـاق ذلك الطفل الذي كنته آنذاك، ثـم ينسـرب إلـى ذاكرتـه ومخيّلته، ويضـفي علـى لغتـه، لاحقـاً، مـا يتلبسـها مـن جسـدية ودفء وانفعـال يقيهـا خطر الانزلاق إلى التجريد واللغة الناشفة..

(2)

وفي الطريق إلـى قريتي تلك، رأيت مدينة الكوت أيضـاً، أول مدينة أراها في طفولتي. تلك التي شيّدتها مخيلتي مـن أضـواء وأقمشـة متوهّجة وحلوى. مـن شـوارع تضـجّ بالمـارة، والمقـاهي، ونـداءات الباعـة. أشـياء كثيرة لـم يكـن لـي عهـد لـي بهـا قبـل أن أرى هـذه المدينة للمـرة الأولـى: الراديـوات الجديدة، السيّارات اللامعة، الدرّاجات الهوائية، والدوندرمة، قناني البيبسي، والسينالكو، والكوكا كولا. وها هي مخيّلتي تسـحب ذلـك الـدثار المـائج بـالألوان عـن مدينـة الطفولـة تلـك لتبـدو علـى حقيقتهـا الموجعة: أزقّة موحلة، وغناء شجياً، وأناسـاً مهمومين حتى عظامهم.

كـان علـيّ أن أعجّـل في مغـادرة تلـك المدينـة، لابـد أن أقـاوم فداحـة الحقيقة الماثلة أمامي. أن ألوذ بالمخيّلة، أو أستنجد بها مـن جديـد، علّهـا تسدل ستارة تحجب عني هـذه المدينـة المغبونـة. وكـان علـيّ أن أواصـل طريقي متجهـاً إلى ما بقى من طفولتي هناك، في قريتي البعيدة:

دافئـاً كالخـرافةِ يقتـادني الفجرُ..
أو كالحـاً مثلمـا غيمـةٌ من شعيـرْ..
سنمرُّ على حلْمنا، ونخيِّمُ بينَ يديهِ
نقيــمُ لنـا منزلاً ممطراً
أو ربيعـاً صغيـرْ..
سأمرُّ على والـديَّ اليتـيمينِ:
يقتـسمان الأسى، والبشـاشةَ وارفـةً، والسريـرْ..
ذاكَ تنّـورنا يتعـافى من النـومِ يبـدأ سيرتَـهُ:
حين تحضنُ أمّيَ نيرانهُ المرهفـةْ..
حافـلاً بالحنينِ وبالأرغفـةْ..

(3)

يبدو أن بيننا وبين الأمكنة شبهـاً أكيداً؛ فهي مثلنا تعصف بهـا الـذكرى وتتلوّى حرقة على من تفارقه. وهي– أيضـاً– تـذوي، وتنحني ظهورهـا،

ويعلوها الشيب والتجاعيد. وهذا ما اكتشفته حين وصلت إلى قريتي تلك.

اكتشفت أنها لا تبعد كثيراً عن مدينة الكوت، ويا لها من مفاجأة محزنة حقًا! كيف إذن كنت أحسّها بعيدة إلى ذلك الحدّ الخرافي؟ ولماذا تقلّصت الطريق؟ ولماذا تغضّن وجه الأرض إلى هذه الدرجة. كنت أتفحّص السدة الترابية المهملة مقارنًا بين حاضرها الذي لا يسرّ، وماضيها وهي تتألّق في الخاطر ممتدة بين قريتي والمدينة. كانت هذه السدة، فيما مضى، مصدراً للكثير من المباهج. كنت أستمتع، في أيام طفولتي، بصخب الرجال الساهرين على متانة السدة وتماسك التراب، يقظتهم الطويلة وهم يتابعون تدفق الأنهار، والجداول، في تجوالها الليلي، يفتحون جرحًا مائيًا هنا، أو يلْحمون جرحًا مائيًا هناك. ولم يكن لدينا، تلك الأيام، غير باص خشبيّ واحد يمر على هذه السدة الترابية، يجمع الفلاحين صباحًا من قراهم، ثم يعود بهم عصراً تفوح من عباءاتهم روائح المدينة وغبار أزقّتها الغريب.

تملّكتني الدهشة مرة أخرى، حين اجتزت مرتفعًا ترابيًا صغيراً هو آخر ما تبقّى من حافة أحد الأنهار القديمة. كان يلوح لي، في ليالي الطفولة البعيدة، وكأنّه أفق من الجبال الموحشة لا يسكنها غير الجن، والنسور، وبنات آوى. هكذا كان إحساسي بذلك النهر المتآكل، حين كان يغذّي خيالي بالمخاوف، والخرافات، والتفاصيل المربكة.

(4)

وللغجر فضل لا ينسى على تجديد أيام القرية. كنا نظنهم معروفين في قريتنا والقرى المجاورة فقط. فمن أين لنا، نحن الأطفال آنذاك، أن ندرك أن هذه المجاميع من البشر كانت تجوب العالم كله تائهة مشتتة منذ زمن طويل. مواطنون عالميون. يمتهنون التشرد أو الغناء والرقص، وبيع اللذة، أو اللصوصية أحياناً. لهم وطن شاسع ومليء بالحرمان، يمتد من الصين وجنوب شرق آسيا والهند وإيران إلى أمريكا مروراً بأوروبا الشرقية والغربية. حاملين معهم أساطيرهم وغربتهم وأغانيهم، ومعتقداتهم الغريبة، في الموت والحياة والولادة وفي تفسير تشردهم من مكان إلى آخر.

لم نكن نعرف عنهم شيئاً. غامضون منبوذون، لكنهم مطلوبون في شهور معينة. لم نكن نرى الغجر إلا عند قدوم الربيع. وكأنهم مظهر من مظاهر الطبيعة. فهم إخوان الكمأة حين تستجيب لنداء الرعد في الخريف، وهم أصدقاء طيور القطا حين يجيئون متلهفين إلى مواسم الحصاد.

في القرى، كنا نحس أن للربيع مذاقاً خاصاً تماماً؛ وكان الغجر جزءاً من هذا المذاق، وعلامة من علامات هذا الفصل الذي لا يدخل قرانا خفية، ولا يكون إحساسنا به، نحن الأطفال، نسبيّاً. كنا نحس به جميعاً، وفي وقت واحد، وبطريقة متشابهة، نراه في كل شيء: في حفيف الشجر

المنتشي بطراوته من جديد، في الحقول العريضة وهي تتموّج تحت الريح وكأنها أفق من السنبل الممتلئ. في الغجر الذين يأخذون في التوافد على الحقول لمعاونة الفلاحين في جمع الحاصل لقاء أجر، وممارسة عدد من الأعمال الأخرى التي تكون أحياناً أكثر ربحاً وإمتاعاً.

وكنّا نحسّ، بعنف ودونما وعي ربما، أن الربيع يتجلى في كلّ ما يعترينا أو يعتري العالم الحسيّ المحيط بنا: صداح الطيور الذي يتناهى إلينا من كل مكان، قطعان الماشية وهي تتحرّك في شتّى الاتجاهات أو تحتّك ببعضها بعضاً بمرح وهياج واضحين، السواقي الطافحة بالماء، والجوّ المعبّأ برائحة الحصاد الوشيك، والعشب الطالع من الشقوق.

حين يقترب موعد الحصاد، أو مع بدايته تماماً، ينصب الغجر في طرف بعيد من القرية، خيامهم المصنوعة من الشَعْر في الهواء الطلق. ويبدأون العمل مع الفلاحين في جمع المحاصيل، وممارسة حياتهم الغريبة، وعاداتهم الأشد غرابة بتلقائيّة تبعث على الدهشة والفضول حقاً.

كان وجودهم، الذي لا يطول كثيراً في العادة، يثير البهجة، والحيويّة في القرى المجاورة كلّها. يعملون في صناعة الخناجر، ويتفنّنون في صناعة مقابضها من العاج، أو الفضة المرصّعة بالأحجار الكريمة. وكانوا، أيضاً، يصوغون الأسنان الذهبيّة للنساء. انتقالة غريبة، غرابة حياتهم، بين أدوات القتل ووسائل الإغراء، بين خشونة الرجل وجاذبيّة المرأة.

ويظلّ هناك ذروة المتع الحسيّة وأشدها خفاءً: جسد المرأة. وهي متعة لها طقوسها، وأوقاتها، وطالبوها. مشهد لا يمكن تصديقه: ينبري الرجال للعزف بينما تندفع النساء في الغناء، والرقص، ومعابثة الرجال بأكثر الحركات إثارة. قد يعزف الغجري حتى تدمى أصابعه لامرأة تتلوّى بجسدها أمام الليل والأحداق الملتهبة. يفعل الغجري ذلك ليهيئ هذا الجسد الأنثوي لأكثر الجالسين شراهة، أو أكثرهم قدرة على الدفع. وقد تكون هذه المرأة، في الغالب، ابنته، أو شقيقته، أو زوجته!

ورغم هذه المشاهد الحسية المثيرة، يظل في حياة الغجر وتقلبات أحوالهم ما يجعل للغجري فضاء رمزياً شديد الجاذبية والإثارة. يغدو الغجري، في أحيان كثيرة، رمزاً للقطيعة مع السائد والمستقر من القيم، أو الدلالة على الهامشي والثانوي، وعلى الحرمان مما يندرج فيه الكل من انسجام وتجانس ورسوخ في المكان.

وحين يجمع الغجر خيامهم الرثّة في نهاية الموسم، ويرحلون بنسائهم وذكرياتهم وآلاتهم الموسيقية البسيطة، نحسّ كأن شيئاً ما في حياتنا قد انطفأ فجأة: كنّا نراهم يبتعدون، متجهين إلى جهة مجهولة يحجبهم عنا الليل ومبالغات المخيلة، لتعود قريتنا شيئاً فشيئاً إلى حياتها السابقة وإيقاعها اليومي المألوف.

أمر واحد شديد الغرابة، كان يحدث دائماً، وما زلت لا أجد له

تفسيراً: لا أذكر أنني، أو أحداً من أقراني، قد صاحب طفلاً غجرياً، أو جالسه في حقل أو طريق. هل كان الغجر كلهم يولدون كباراً؟ هل كان آباؤنا يمنعوننا من مصاحبتهم لأنهم غجريون، أم لأنهم، أي الغجر، هم الذين كانوا يأنفون من صداقة كهذه؟ كم يحزنني أننا لم نكن نرى فيهم إلا أشخاصاً عابرين: يصنعون البهجة والبشاشة لسواهم، ثم يذوبون، بعد ذلك، في الهواء أوفي الظلام، دون أن يترك غيابهم هذا جرحاً في ذاكرة أحد.

(5)

كانت القرى تتناثر على يميننا، ونحن قادمون من مدينة الكوت، بينما يمتد نهر دجلة على الجهة اليسرى في استرخاء غامض. مررنا بقرية كانت تشهد، في العاشر من محرم من كل عام، تمثيل واقعة كربلاء. كان الشيخ وأبناؤه هم المنظمين لتلك الفعالية الشجية. وكنا نتوافد من قرانا البعيدة متجهين، مع خيوط الفجر الأولى، إلى تلك الساحة الترابية الكبرى، حيث تمثل المعركة على الطبيعة، مع بداية الصباح. كنا نتماهى منذ البداية مع الضحايا، فمَن يقومون بتمثيل تلك الشخصيات هم من أبناء الشيوخ وملّاك الأراضي الشاسعة. شباب، متعلمون، وعلى شيء واضح من الترف، وجمال الطلعة، وكأنّ خيال الطفولة يرى في الضحية ملتقى للعدالة والجمال والتعاطف. أما مَن يمثلون أدوار القتلة، فهم، على

النقيض من ذلك تماماً. قباحٌ، قساةٌ، متجهمون، وليسوا من ذوي السمعة طيبة ربما. هكذا كان الخارج، خارج القاتل، في تصورنا، ترجمة لما يعتمل في داخله من شرور وشهوة للقتل.

وتصل بنا حالة الانفعال، بما يقع أمامنا من أحداث، حد الاندماج أو الوقوع على الحافة. كان الضرب بالحجارة أو العصيّ أو الشتيمة حصة مؤكدة لبعض من يؤدون تلك الأدوار البغيضة. نصبح جزءاً من فجيعة تتسع كل لحظة، ويختلط فيها كل شيء بكل شيء. نشم رائحة الدم وعطّاب الخيام المحروقة، والنساء النادابات يتشحن بالسواد القاسي، وتعود الخيول من المعركة دون فرسان. ويرتفع، ملء الكون، نهارٌ من العطش الذي لا يرتوي إلا بالموت.

مشاهد لا تفارق الذاكرة: سروج خالية، وأرسان مخضبة بالدم والتراب. ومرأى الحسين مثخناً بالجراح، وهو يذبح، وحيداً، تحت سماء مكفهرة. لا يمكننا أن ننسى تلك المشاهد. لقد كانت تحفر آثارها في ضمائرنا وعقولنا وقلوبنا الصغيرة. وبعد أن تنتهي تلك المراسيم الكربلائية نعود مخذولين إلى قرانا البعيدة، مع الظهيرة، لا أحدَ منا يجرؤ على الأكل أو الشرب أو البشاشة في ذلك اليوم.

(6)

وعلى مبعدة من سيارتنا، على يسارنا بالضبط، كان النهر. المصدر الثاني لفرح الطفولة. كنا نتعلم فيه السباحة على أيدي آبائنا التي تفيض

حنوّاً وخوفـًا. أو نأتي بصحبتهم لننتظر معهم رسوّ المراكب القادمة من البصرة محملة بالتمر. كنت، وما أزال، لا أجد حلوى أخرى تضاهيه حلاوة لا في الشكل ولا في الطعم، وأكثر ما كان يثير شهيتي منظر خصّافة التمر، والدبس يقطر، مضيئًا، من جوانبها.

ولمشهد الموت أحيانًا حيزٌ واضحٌ في مسيرة هذا النهر. طالما شاهدت وأنا برفقة والدي، في تلك السن، كيف يقف الناس مفجوعين على جرف النهر وهم يرقبون الموج، أو يسيرون مع حركة الماء في انتظار غريق يطفو بعد أن ارتوى، حدّ الموت، من رمل القاع.

أسطـــورتي الأولى

(1)

لا أكفّ عن تذكر تلك القرية بمتعةٍ طفولية: بساطة أقربُ إلى الفقر، وتفاصيلُ عصية على النسيان. ابتعدَ بها الزمن، أو ابتعدتْ به، حد الانخراط في نقطةٍ سديميةٍ لا عودة منها. لكنّ خيطاً خرافياً، دافئاً ونحيلاً، ما زال يمتد بيني وبين أكواخها الطينية الصابرة. تماماً كما كانت تمتد سدتها الترابية حتى تربطها بمدينة الكوت. مركز محافظة واسط.

ومذ فتحت عينيّ على الحياة، في تلك القرية الضائعة في أرياف «واسط»، ورائحة الغرين تملأ الكون من حولي؛ وأبٌ يملأ طفولتي بالأمان، جداول طافحةٌ بالماء الخابط، وحقولٌ على امتداد نهر دجلة. كانت تخصص في الغالب لزراعة اللوبياء، والباقلاء، وفواكه الرقي والبطيخ، والشمّام الذي كان يملأ الجوّ بتلك الرائحة الخاصة.

وقد ارتبطت نشأتي الأولى بمفارقة لا أزال أجد لذةً في تذكرها: كان أوّلَ ما استوعبته ذاكرتي: كوخُنا الطينيّ، ونسخةٌ من القرآن الكريم، وكتابٌ في الأدعية الدينية، لم أعد أتذكر عنوانه على وجه الدقة.

كان أبي فلاحاً ويعرف القراءة والكتابة. حقيقة شديدة البساطة، لكنها نادرة الحدوث في تلك الأيام، وفي ذلك الوسط الريفي البعيد. كان أكثر من فلاح، وأقل من مالك أرض. شديد اللطف والحنوّ لكنه بالغ الصرامة

أيضـاً:

لا فـأسَ..

لا ملعقـةٌ من ذهـبٍ..

لا رمحَ في كـفّيـهْ..

لا خنجرٌ يضيءُ، لا مسدّسٌ

لا شيءَ أنقى من دلالاتِ اســمِهِ..

لا شيءَ أقسى من حصى يـديـهْ..

كان تجسيداً لكل تلك التناقضات في اللحظة ذاتها. قام بدور أساسيّ في تعليمي القراءة والكتابة مع إخوتي الثلاثة. وكنت، كما يبدو، أسرعهم تعلمـاً. وربما كان ذلك هو السبب في إلحاحه عليَّ لأحفظ عدداً من الأبيات الشعرية إضافةً إلى ما أتعلمه من القرآن الكريم.

وكان ما يحفظه من الشعر أو النوادر، أو كلام الأجداد هو خميرة التذوق الأول. إنه أسطورتي الصغيرة الأولى، المشوبة بالكثير من الغرابة والبعد عن المألوف. إذ من النادر تمامـاً، في تلك القرى الريفية البعيدة وفي مجتمع إقطاعي شديد القسوة، أن تجد فلاحـاً بسيطـاً يعرف القراءة والكتابة، وأشياء أخرى تقع على مقربةٍ منها، وله منزلةٌ كبيرةٌ لدى الشيخ الذَي كان يملك تلك الأراضي الشاسعة بكل ما فيها، وما عليها، من بشرٍ وحجرٍ وكائنات.

(2)

حرص الشيخ الكبير على أن يعهد إلى والدي مهمة ليست يسيرة: تعليم ابنه الذي كان في مقتبل العمر، فظل هذا الابن يرافق والدي مرافقة التلميذ لأستاذه. يتعلم منه الكثير من مفردات الحياة، ولطف المعاملة، وحسن الحديث، والصبر على الحماقات. وكان يحظى، على عكس أخوته من زوجة أخرى، بمحبةِ الناس واحترامهم..

غير أن هناك ما يعاكس مهبّ الريح أحيانـًا. ثمة كراهيةٌ كانت تدبُّ في الأرجاء. أخوة الشيخ الشاب، استاءوا من حظوته تلك. كانوا معروفين لأهل القرية، بالغِلْظة وحدة الطبع. ولذلك، ربما، كانوا يعيشون بعيداً عن قصر الشيخ، محرومين من نبله وحياته المرفهة.

وهكذا نال والدي بعضٌ غيرُ قليلٍ من كراهية الأخوة لأخيهم، في تلك الليلة، التي أضاء ظلامها خيطٌ من دمٍ نبيلٍ لا يُنسى. كان أبي والشيخ الشاب، في مجلسٍ يجتمع لتسوية خلافٍ بين الشيخ وأخوته. وكما لو أن ثمة نيةً مبيتةً لما سيحدث، اندفع غضبٌ مفاجئ، كان يتربّص في زاويةٍ ما من المجلس. ارتفعت الأصواتُ، واحتد النقاشُ، وتدافعت الأجساد، وتشابكت الأيدي، ثم ارتفعت في الهواء المعتم عصا، برأسٍ حديديةٍ جارحة، وهبطت على هدفها بقوة.

أحس أبي لحظتها أن نبعـًا حاراً مؤلمـًا، في أعلى رأسه بالضبط، كان ينبض بعمق، ليتطور، في ذلك الظلام، إلى خيطٍ يدبُّ دافئـًا، تحت يشماغه الأزرق الغامق وثيابه، حتى نهاية ظهره، مشوبـًا بألمٍ مكتوم.

لم يعلم أحدٌ غيره، وغير الفاعل طبعـًا، بمـا جـرى في تلـك الليلـة، لـم يسـمع أحـدٌ صـيحة جـزعٍ، أو آهـةً تنـدّ عـن السـيطرة. وظـلّ الـدمُ، بفضـل حكمة صاحبه، مصونـًا وعزيز النفس. لم يشمَّ أحدٌ رائحته، ولـم تهبط إلى الأرض قطرةٌ منه.

أين ذهبت تلك الضربة إذاً؟

هكذا ربما تساءل من خطّط لما حدث.

فزعتْ أمي حين طلب منها والدي أن تُعِدّ له عطّابةً سريعة، بينما سارع هـو إلـى نـزع ملابسـه. لـم يكـن الجـرحُ عميقـًا جـداً لكنـه مـا زال يتـنفّس بحـرارة مؤلمـة. أسـكتتْ أمـي فـم الجـرح بمحبتهـا، وبرمـاد القمـاش المحروق، ثم تتبعت طريق النبع تنشّفه بقطة قماشٍ أخرى.

كان أبي شديد الحضور: طويل القامة، عفيف اللسان، ولا يغضـب إلا نادراً. يقرأ ويكتب، ويتحدث بوقار، وقلما يضحك بصوت مجلجل. كان ينحدر من سلالةٍ تحظى باحترامٍ خاصٍّ بين سكان تلك المناطق في وسـط العراق وجنوبه. تعلمْتُ على يديه القـراءة والكتابـة وتعـودت منـه اقـتراف الكلام الجميل أحيانـًا.

مازلتُ أذكر أن نصـيبنا مـن قـراءة القـرآن والشـعر والقصـص والنـوادر يتضاعف في شهر رمضان والأيام الأولى مـن محـرم؛ ففـي هـذين الـوقتين تحديداً كان يأتي إلى القرية، قادمـًا مـن النجـف، أحـد الرجـال المعممـين لإحياء بعض ليالي رمضان، أو للقراءة في أيام عاشوراء. كان صديقاً لأبي

وكان يقيم معظم أيامه لدينا. ومع ذلك لم نكن نجده، أخوتي وأنا، قريباً من نفوسنا؛ فكم حرمتنا دروسه وملامحه المتجهمة، من الاستجابة لنداءات الطفولة ومطاردة طيورها الفاتنة.

وكثيراً ما كان يصطحبني أبي معه إلى الديوان، وهو مجلس الفلاحين، حيث يجتمعون فيه لشرب القهوة والشاي وتبديد وحشة الليل بالأحاديث، فيطلب مني قراءة ما حفظته من شعرٍ أو آياتٍ قرآنية، وكأنه كان ينمّي فيّ، بوعيٍ منه أو بدون وعي، قوة الذاكرة والقدرة على الحديث دون تردد أمام الآخرين.

(3)

أخذت بعض الأكواخ، في قريتنا الصغيرة، تخلو من ساكنيها تدريجياً، بعد أن هجروها متوجهين إلى بغداد، حاملين معهم فقرهم وعاداتهم، وأغانيهم المجرّحة، وكان من بينهم بعض أقاربنا. وهكذا بدأ الحديث بين أبي وأمي عن ضرورة إرسالي إلى بغداد للدراسة هناك. كانت بغداد، بالنسبة إلينا، كوكباً نائياً، أو عالماً من عوالم ألف ليلة وليلة. وقد لعبت أمي دوراً كبيراً في طرح فكرة الدراسة وإقناع والدي بها. فقرر، ذات يوم وبسبب إلحاحها الدائم، إرسالي إلى بغداد مع صديقٍ له يقيم هناك وكان قد جاء لزيارتنا في الريف.

في الصباح الباكر جاء الباص الخشبي يتمايل، شاحباً وبطيئاً، على السدة الترابية، وهو يمر على القرى المتباعدة واحدة واحدة. أمضينا ليلتنا في مدينة «الكوت»: تلك المدينة التي يحتضنها نهر دجلة بحنوٍّ كبير. كانت تلك الليلة، بالنسبة لي، حافلة بالدموع والحنين والتردد. لم أكن قادراً على تخيل ما أنا مقدم عليه: في مدينة غريبة، دون أبويَّ وبعيداً عن أخوتي. أدرك الرجل أن سفري معه إلى بغداد أمر بالغ الصعوبة وأنا في تلك الحالة. وفي اليوم التالي، أوصلني إلى موقف السيارات التي تتوجه، عصراً، إلى القرى البعيدة. ومن بينها ذلك الباص الوحيد الذي كان يتوجه، كل يوم، من قريتنا وإليها. ودّعني الرجل بحزن، وواصل هو طريقه عائداً إلى أهله في بغداد.

وحين تحركت السيارة بي في طريق العودة إلى القرية، لم يكن معي غير ظهيرة كئيبة وإحساس بالخوف، وكيس صغير من البرتقال أتيت به هدية لأمّي وإخوتي.

وفي ذلك المساء الخريفي، سألني أبي، وكنا مجتمعين إلى موقد النار، عن سبب عودتي المفاجئة. بدا، في تلك اللحظة، وكأنه ينظر إليّ من حزن عالٍ لا نهاية له. لا أذكر تماماً ما قلت، غير أنّ ما أتذكره جيداً هو أنّ قبضتهِ الفولاذية كانت تغمد كفّي، حتى الرسغ، في تلك النار المتأججة. ومازال دخان ذلك الموقد ورائحة يدي المحروقة يتصاعدان من ذاكرتي حتى هذه اللحظة.

(4)

استيقظت أمي مذعورةً، ذات ليلة، وهي ترى أبي والدم ينزف من أنفه بغزارة. كانت وسادته منقوعةً برائحة مرضٍ مهلك. تكرر ذلك المشهد أكثر من مرة، وفي إحدى المرات كان الرعاف شديداً فاضطررنا لنقله، بسيارة صديقه الشيخ مالك الحاج جسّاس، إلى مدينة الكوت. وهناك أخبرنا الطبيب أن أبي مصابٌ بضغط الدم العالي، ومنذ تلك اللحظة صار موضوع هجرتنا إلى بغداد جدياً أكثر من أي وقت مضى.

في بغداد، وفي السنة الأولى تحديداً، تعرفت على متعة التفوق في الدراسة وعلى مرارة الفقد أيضاً. كان موت أبي أحد الانكسارات الكبرى في حياتي. لم أشهد ما يضاهيه قسوةً إلا موت أمي بعد ذلك بسنواتٍ طويلة.

كان قد أُدخِل المستشفى الحكومي في الباب المعظم، المعروف شعبياً باسم المجيدية، حيث بقي هناك فترة أسبوع تقريباً. وحين كنت أزوره مع أمي، كنت أعجب من سرعة ألفته للناس، صداقة سريعة، مثلاً، قامت بينه وبين مريض مجاور له، يعمل معلماً، وتتكدس على منضدته مجموعة من الكتب والمجلات المصرية كالمصور، وآخر ساعة. وكان الصبيّ، الذي كنْتُه، ينظر إلى أفق آخر تارة، ويصغي إلى بعضٍ من أحاديثهما، أو ينشغل بتصفح بعض المجلات تارة أخرى.

وهكذا علقت في ذاكرته أسماء كانت تلمع بين دخان الكلام الكبير

الذي كان يسمعه أحياناً وأغلفة المجلات وبين صفحاتها الملونة: جمال عبد الناصر، طه حسين، عباس محمود العقاد، أمينة السعيد. ويذكر أنه، وربما بتأثيرٍ مما شهد وما سمع، أشترى، عند خروجه مع أمه من المستشفى أول جريدة في حياته، جريدة «البلاد»، وأظنه لم يتجاوز كثيراً قراءة عناوينها الكبيرة ومشاهدة الصور المثيرة للانتباه.

اجتمعنا حول فراش أبي كطيور خائفة، وكانت رائحة الموت تغمر كل شيء: ثيابنا ودفاترنا وجدران بيتنا الطينيّ، حيث كنا نسكن منطقة الشالجية في إحدى ضواحي بغداد المكتظة بالسكان القادمين من الجنوب. أخذ الموت يقترب من جسده النحيل شيئاً فشيئاً، وبدا الذبول واضحاً على صوته الذي طالما عُرف بالعمق والقوة. وقبل موته بساعات، أو بدقائق ربما، قال لأمي بضع كلماتٍ لم أدرك مغزاها إلا بعد أن كبرت: أوصاها ألا أترك المدرسة مهما كانت قسوة الظروف التي سنواجهها. ثم انطفأ الكون كله من حولي. كان الموت أكبر من بيتنا الصغير، وفوق قدرته على التحمل. وكان سكان ذلك الحي العمالي البسيط، بعد انتشار الخبر، في منتهى المروءة والتعاطف.

كم أحتاج من الخيال كي أتصور حياتي، في هذه اللحظة، بدون أبٍ كأبي. أعني كي أتصورها وقد أخذت منحى مختلفاً تماماً. كان تأثيره عليّ عظيماً رغم رحيله المبكر. أهديت اليه مجموعتي الشعرية الأولى، وكان محوراً لواحدة من أقرب قصائد تلك المجموعة إلى نفسي: «أبي

وزمان المياه». لقد ظل صوته العميق وضوء عينيه المعبرتين ينتشران، بعد ذلك، في الكثير من قصائدي وكتاباتي وأحاديثي. ووضعني موته، بشكل مفاجئ ربما، أمام تجربةٍ وعرة: اليتم والغربة من جهة، والتعالي على غوايات الشباب وإغراءاتها التي لا تقاوم من جهةٍ أخرى.

(5)

كان لنشأتي في أسرة تعيش على مقربة من الفقر الكريم، وعلى تماسّ كبير مع المثل الروحية، أثر كبير على سلوكي القادم. شيءٌ طالما أثار انتباهي وأنا في غمرة عبثي البريء مع أقراني: لماذا لا يحمل أبي، كما يفعل بعض الفلاحين، سلاحاً؟ لم أره، مثلاً، يتحزّم بخنجر أو مسدس أو بندقية. لماذا لا يدعنا نشتري فرساً أخرى، بدل فرسنا الدبراء؟ فرساً ضامرة، مزهوّة، لا تشكو من هرمٍ، ولا قرحة في الظهر؟

ومع الزمن تسلل إلى وعيي، أن من يدّعي الانتماء إلى أرومة يجلّها الناسُ، أي من كان من «السادة» كما يسميهم القرويون عادة، لا يجد مهابته في حمل السلاح، أو التباهي بما يملك، بل في ما يتحلى به من سلوك قويم، وكأنَّ السلاح حاجة من يقتحم الحواف الخطرة للقيم، أو يغتصب حقاً لغيره، أو يحتل به مكانة لا يؤهله لها رصيد من محبة الآخرين.

كان للسيد، هالة في قلوب البسطاء. خيطٌ من السحر الغامض، يمتد حتى الينابيع الأولى لقداسة الأصول وفاعلية الأساطير. تجعل صاحب

هـذا السـم في منـأى عـن مكـامن الشـر أو التهلكـة. لا اللـص ولا قـاطع الطريـق، لا الأفعـى ولا عقـارب الليـل، بقـادرة علـى إلحـاق الأذى بـه. وكانت هذه العوائل تميز سطوح بيوتها، غالبـًا، برايات سوداء رمزاً لهـذه الأرومة الضاربة في القدم.

(6)

شكل موت أبي منعطفـًا جذريـًا في حياة كاملة، تغييراً يكاد يكـون تامـًا لتاريخ من عبث الطفولة واندفاعاتها البريئة. أحسست، بعد موته، كأنني قد هرمتُ فجأة. صبيٌّ يصعد إلى تلال أيامه، ليستعجل كهولة بعيدة، أو حكمة لم يحن أوانها بعد، أو يستبعد حماقاتٍ لا حصر لها. بعد موت والدي هبط عليَّ نسيانٌ مفاجئ لكثير من المباهج التي قد لا ترضيه: لا شيطنات طفولية، ولا مراهقة تحفل بالكثير من الطيش، وهذا ما جسدته قصيدة « قشعريرة» بكثافة:

حينما ماتَ..
لم يجـدْني حزينـًا، في جوارِ فراشِهِ..
كنتُ شيخـًا أحـدبَ الظهرِ، ينحني عند قبرٍ..
عضّني البردُ فجأةً، واقْشَعرّتْ
رئةُ الأرضِ. هل غـدا كلّ شيءٍ
من يتامى ومن بكاءْ..؟

نسِيتْ دفئها يدِيْ

أم حصىً كانتِ السماءْ..؟

وكان زملائي في المدرسة، يعرفون جيداً حرصي على حيازة المركز الأول دائماً، فكانوا يشاكسونني، بطريقة ممعنة في التهتك أحياناً.

حدث ذات مساء أن مرّ عليَّ ثلاثة منهم. كانوا في لحظة من عبثهم المرّ، أو تعبيرهم المشين عن شبق الشباب وضغوطاته. حين خرجت اليهم، وكانوا في سيارة مع واحدة من بنات الليل، تيقنوا أنني أدركت تماماً ما هم مقبلون على فعله في ذلك المساء، فهتفوا، نكاية بصديقهم الذي ينكب دائماً على دراسته مفرّطاً بهذه المتع الليلية: «ظل اقرأ.. المهم تطلع الأول على الصف»..!

وغير بعيد عن هذا المشهد في الدلالة، لكنه بعيد عنه في جغرافية المكان والزمان والنفس ومسار النضج، ما صادفني ذات يوم في المرحلة الجامعية. كنا نقترب من نهاية العام الدراسيّ. تفاصيل هذه المرحلة تملأ نفوسنا بحضورها المدوّي. دعاني زميلٌ لي للمذاكرة، كان مستواه في بعض المقررات ضعيفاً. كان من طلاب المحافظات، يقيم في الوزيرية، مع صديقين له يدرسان تخصصات علمية.

في الصباح دخلت امرأة، بدا من طرقها على الباب أنها كانت على موعد مسبق مع هؤلاء الشباب الثلاثة. كانت تكبرهم عمراً وحجماً وحاجة إلى تلك اللحظة العابرة، رغم اختلافهم في الدوافع والغايات.

بعد دقائق جاءني ذلك الزميل وصديقاه يعرضون عليّ أمراً ظنوه من لوازم الكرم أو حقوق الضيف: أن أكون أول الجالسين إلى تلك الوليمة المقززة. لحظتان تفتقران إلى الانسجام حتى في حدوده الدنيا. إحساس بالضآلة والابتذال، وانتظار للوليمة بلهفة ساحقة. وبين هذين الإحساسين ثمة جسد ينتظر، مدفوعاً، بالحاجة أو القهر، إلى الرضوخ لتلك الشراكة المتدنّية.

ثلاثة شبان، كل ينتظر دوره بتعطش كبير. يعرّون جسد تلك المرأة من كرامته، ويتعرّون أمامه من ذواتهم، باحثين عن وهْمٍ ما، ينسيهم واقعاً مزرياً أو حلماً عصياً على التحقق. لم تكن صاحبة الجسد معترضة على ما يتم إعداده لها في تلك اللحظة. وبعد أن رفضتُ الاستجابة لما عرضوه عليّ، أرادتْ هي أن تختتم محاولات الإقناع. امرأة لا تملك إلا جسدها، وإلا الخضوع لتلك اللحظة غير الإنسانية. كانت تذكّرني، وهي تهيّئ جسدها للوافدين عليه بعد لحظات، أن الامتحانات تحتاج إلى صفاءٍ ذهنيٍّ لابد منه!

(7)

وهكذا ظلّ يرافقني، في الكثير من مراحل حياتي، إحساسٌ يشبه الخوف من الخطأ أو التهور، من الابتذال أو حِطّة النفس. قيم كثيرة كان يحملها ذلك الأب البسيط والواضح، كعراء البراري وهوائها الخالي من الخدوش. وقد ظل حضوره قوياً داخل النفس، وكما في قصيدة «يقرأ

شيئًا عن غدٍ لم يحِنْ»، كان البطانة الروحية التي تحتضن الكثير من عذابات النفس وما تقترحه اللغة من ملامسة للحياة واندفاعاتها منذ طفولتي وحتى الآن:

يغادرُ الكوخَ، كأنّ الضّحى
يخرجُ من شقوقِهِ الفارهةْ:
هذا نديمُ الرّسُلِ الأيتامِ
والآلهةْ..

وقد كاد افتتاني بذلك الأب خصوصًا، وبالعائلة عامة أن يكون مبالغًا فيه. أوشك أن يدفعني إلى مثالية تقع خارج الحياة، أو بعيداً عن منطقها الواقعيّ، الذي لا بد من الامتثال له بأقل الخسائر الأخلاقية الممكنة. وطالما أحسست أن حرماناتٍ كثيرةً، كان في الإمكان تجنبها، أي أنها لم تكن حتمية، غير أن ما ضاعف من سطوتها عليّ عائد ربما إلى انبهار طاغٍ أحيانًا بوالدي. كان تذكّري له يمنعني أحيانًا من التعامل مع المواقف الحياتية بأريحية ومرونة. مازلت أتذكر واقعة قد تكون عابرة، لكنها ظلت تؤلمني حتى الآن.

في بداية عملي في وزارة الإعلام، وأنا في دون الخامسة والعشرين من عمري تقريبًا، كنت مع أحد المدراء العامين في الوزارة، في طريقنا إلى المطبعة، وكان يكبرني كثيراً في السن. نزل من السيارة وأخرج من صندوقها الخلفيّ إطاراً بحاجة إلى الإصلاح. أخذ يدفع الإطار المثقوب

من موقع السيارة وحتى مصلّح الإطارات في زاوية الشارع. كنت أسير إلى جانبه دون أن أمدّ يدي لمساعدته أو أهمّ بذلك. وكلما أوشكت أن أفعل تقمعني مخيلةٌ عجيبة تعيد لي صورة والدي وهو يراني متملقاً للمدير العام، أو أفعل شيئاً لم يكن يرضاه للصبيّ الذي تعلم على يديه القراءة والكتابة والترفع عما يضعه موضع الشبهات.

فورةٌ من الندم تعصف بي كلما تذكرت هذه الواقعة أو مثيلاتها. عندها أحس، كم كنت مفتقراً إلى الذوق. لم أراعِ موقع هذا الرجل الوظيفيّ، ولا تقدمه في السن. حتى بدا لي أنني، بهذا السلوك، كنت ألحِقُ كثيراً من الأذى بذكرى والدي حين أتصور، مخطئاً، أنني أفعل ما يرضيه.

ومع ذلك كله، فإنني لم أكن ملاكاً، ولم أكن بلا أخطاء، لكنني لم أرتكب هفوة ما دون ندم حقيقي، أو مطاردة ضمير شديد القسوة. من جانب آخر، يذهب بي الظن أحياناً إلى أن ذكرى ذلك الأب الحنون والقاسي قد وقفت حائلاً بيني وبين قدر ضروري من المكر، أومن الأخطاء التي لا بد منها لإتقان فن الحياة وألاعيبها، فلم أرتكب بعض الهفوات التي قد تعتبر أحياناً من استحقاقات الشباب ولوازمه المغوية. وبذلك لم تكن حصيلتي كبيرة مما تستدعيه الحياة من تحوّطٍ ضروريٍّ أو قدْرٍ من الدهاء الذي لا بد منه:

قيلَ عنهُ: فتىً يتناسى الإساءةَ..

قيلَ: يُحبُّ تصيُّدَها..

قيلَ: مَكتئبٌ، مُنْتَشٍ، شاردٌ،

مثلَ من يتأمّلُ ساقيةً، أو غرابْ..

كانَ يذكرُ اصحابَهُ، ثمّ يغفِرُ أخطاءَهم،

ثمّ يضحَكُ، ثمّ يفُكُّ عصافيرَهُ كلَّها

في الضّبابْ...

حيث الباصات الحمراء ذوات الطابقين

(1)

كنت قد سبقت عائلتي إلى بغداد قبل عام، ثم عدت لمرافقتهم إليها بعد أن قرروا ترك تلك القرية إلى الأبد. صبيّاً كنت، بذاكرة تسكنها حكايات الجدات الوقورات. وما زلت أذكر، حتى هذه اللحظة، ذلك الليل الذي غادرنا فيه قريتنا مروراً بمدينة الكوت وعبر جسرها الضيّق الوحيد، المبني في أواخر الثلاثينات كما أظن، وباتجاه واحد. وكم كنّا نستمتع بمنظر الماء، حين نأتي إلى هذه المدينة، وهو يندفع من الجانب الأيمن للجسر مكللاً بالزبد الأبيض وحشود السمك الرماديّة التي كانت تصارع التيّار عنيفة لامعة.

في تلك الليلة كان الظلام من نمط خاص، كثيفاً مترعاً بحنينٍ وتوجّسٍ لاذعين: الحنين إلى قرية أحاول انتزاع قلبي الصغير من طينها وهوائها الممتزج ببكاء أهل القرية، والتوجّس مما سيجيئ، كيف ستبدو بغداد ملموسة مرئيّة، بعد أن عشتها وتعايشت معها، قبل أن أراها، على فراشٍ من الحلم ومبالغات الخيال؟

في ذلك المساء، كانت قريتي تختلط بالليل وبكاء المودّعين، وكنّا جميعاً، أسرتي وأنا، نحاول التغلّب على هواجسنا الغامضة. هل كان أهل القرية يبكون لنا أم علينا؟ أية أسرة هذه؟ وأي نداء يدعوها إلى عبور هذا

الليل الكبير صوب مدينة لا يعرفون عنها شيئاً: مدينة تُدعى بغداد؟ كانوا يصافحوننا بأصابع باكية وإشفاق لا حدود له، وكانت بغداد تُشرق، عبر مخيّلتي الصغيرة، نائية، وراء الليل والنجوم الباردة. كان لها، في وجداني، صورة من نوع ما، نسجتها مخيّلة خرافية، شُحنت بسرديات الجن ومفاجآت ألف ليلة وليلة التي كانت تتسرب إلى ذاكرتي مما ترويه أمي أحياناً. وكانت بغداد، عبر ذلك المزيج كلّه، تنتسب إلى كل ما هو مترفٌ أو محيّر.

مدينة لا تقع على الأرض حتماً، بل على تماسٍّ حميم، مع نقطة ما من مخيلة كلٍّ واحدٍ منا ربما، وكنّا نظنّها مدينة حلميّة. لم يكن هناك من رآها من القرويين، أو تحدث إلى أحد العائدين منها. كان معظمنا يتخيلها نقطة بين الحياة والموت، محطّة في الطريق إلى مدينة النجف؛ حيث الموتى يزاحم بعضهم بعضاً، وحيث المنائر العالية تعطّر الهواء بالدمع والذهب ورائحة الغياب. وربما كان خوف أهل القرية علينا نابعاً من إحساسهم هذا. كانت بغداد، بالنسبة إليهم، اقتراب من عالم آخر: غامض ولا نهائي، فاكهة محرّمة على القروي القادم من الجنوب. قد يمر منها، في الطريق إلى النجف حيث مرقد الإمام عليّ، ولا يراها؛ وكان على الموتى الجنوبيين أن يمرّوا عادة بمحاذاة بغداد، وهم يتجهون إلى أسرّتهم المعجونة بالدمع والتراب. كانت تلك التهيؤات من صنع طفولتنا وأوهامنا البيضاء.

كان الباص الخشبيّ القديم يئنّ وسط ليل طوله 180كم يمتدّ بين الكوت وبغداد، وكنّا نسمع ارتطام السيّارة بالظلام والحفر والمخاوف. سيّارة وأسرة صغيرة: أسرة من الأحلام، ومن الندم ربّما. لم تكن بغداد، بالنسبة لنا كلّنا، أكثر من ضوء غامض يتحرّك في أعماقنا جميعاً. يبدد خوفنا وندمنا تارّة، ويوقظهما تارّة أخرى، لكنّه كان ينعش أحلامنا وتوقعاتنا أحياناً: أطفال يذهبون إلى المدارس كل يوم، وساحات مضاءة، وأجهزة راديو، وشوارع مبلطة، وبيوت جميلة بحدائق خضراء، وبشر يرتدون البنطلونات والجوارب والأحذية.

وحين دخلنا منطقة المدائن وهي ضاحية فقيرة من ضواحي بغداد، كانت تسمى (سلمان باك) وجدنا الفجر في انتظارنا بقدمين حافيتين وثياب مشققة. وعلى جسر ديالي، ذلك الجسر الهرم ذو الممر الضيّق الواحد والغارق بالنخيل والفاقة، عبرنا إلى بغداد.

بدا لي وكأن الباص، بأنينه الخشبي المترب، قد ضاع وسط تلك الشوارع البغداديّة الضاجّة بالحياة، كان الصباح قد أخذ يضيء بساتين المدينة، وينتشر عبر شوارعها وأزقّتها الرطبة حيث الخضرة والشذى البارد. وقد دهشنا لذلك الصباح البغدادي اللذيذ: باصات حمراء كبيرة من طابقين، تنطلق لامعة تحت الشمس، كما شدهتنا كثرة السيّارات الصغيرة والمقاهي، والمطاعم، والمآذن العالية. كان ثمة أزقة ضيقة، وبيوت قديمة بشناشيل يكاد يحتضن بعضها بعضاً. وأغنية بغدادية

جديدة لرضا علي، عرفت اسمه لاحقاً، تعيد بثها، أجهزة الراديو باستمرار. اتجهت بنا السيّارة إلى منطقة (الشالجيّة) في الكرخ، وهي حيٌّ عمالي، قرب جامع (براثا). كانت تنبعث من مقبرته القديمة رائحة حزن خاصة وغمغمة فراق وشيك سيداهم هذه العائلة الوافدة ذات يوم ليس ببعيد.

(2)

كنت مفتوناً ببغداد ومجروحاً بسببها في آن، حرمتني من أبي في السنة الثانية لوصولنا إليها، ما كان يهمّني جداً أن أعرف الشيء الكثير عن تاريخ هذه المدينة؛ فقد كانت، بالنسبة لي، حاضراً حسيّاً طافحاً بالطفولة المبتهجة والمنكسرة معاً. كانت معرفتي بها معرفة جسديّة محضة، لم أكن قد علمت بعد أن أبا جعفر المنصور هو الذي بناها عام 762. ومع أنني كنت أجهل سبب اختياره بغداد عاصمة له بعد أن كانت الهاشميّة هي العاصمة، فقد كنت أعلم تماماً دواعي هجرتنا نحن إلى هذه المدينة. كانت بغداد– آنذاك– حلماً لآلاف القرويين القادمين من قرى الجنوب خاصة، هرباً من أيامهم المعذّبة حيث الأقطاع والفقر والغناء الشبيه بالعويل، وكانت– بالنسبة لنا ولسوانا– فرصة لحياة مختلفة.

ولم تكن بغداد– في الخمسينات– مدينة متجانسة، بل كانت تشتمل على أزمنة متضادّة، وأمكنة يُشاكس بعضها بعضاً: كان الخصمان

الأزليّان: الفقر والثراء يشتبكان في جوار مقيت. وقد التقط الجواهري، هذا التناقض الموجع حين قال في قصيدته عن أبي العلاء:

لَكِنَّ بِي جَنَفَاً عَنْ وَعْيِ فَلْسَفَةٍ تَقْضِي بِأَنَّ البَرَايَا صُنِّفَتْ رُتَبَا

كانت الأحياء الجديدة تنشأ باستمرار، وبغداد تتسع وتسيل يوماً بعد آخر: تكتنز بالحياة، وتغذّي في الناس توقّعات كنت أجهل طبيعتها في تلك السن. تتفاوت أحياؤها حداثة وثراءً. وتحتوي، داخل كيانها الواحد، بيئات اجتماعيّة وثقافيّة ونفسيّة متباينة.

تتوسط المناطق الحديثة، في بغداد، أحياء منهكة يسكنها المهاجرون من الجنوب: بيوت طينيّة تتمسك ببعضها بعضاً خوف الانهيار، مثل: الشاكريّة، العاصمة، المنكوبين. قرى مهاجرة تمزّق تجانس المدينة، وتفضح ثراءها وعجرفة بعض أحيائها:

تلك الطفولةُ خضراءَ كانتْ

وخضراءَ حتى المشقّةْ..

فكيف جملنا قرانا القديمةَ؟

ننشرها في الضواحي..

نقيمُ لها حُلُماً..

وفوانيسَ شاحبةً، وأزقّةْ..

كنا نعيش في حيّ الشالجية، بمنطقة العطيفية، على ما تبقى لدينا من قيم القرية، حيث القرابات أو الصداقات الأولى، والانتماءات إلى ذات البيئة، يجر بعضها بعضاً، أما إذا خرجنا من هذه المنطقة، إلى فضاءات أوسع، فلا تظل تلك القيم على ما كان لها من جلال لا مسوغ له أحياناً إلا امتدادها في عروق الآباء ومزاج الأمهات أو تعاساتهن أحياناً.

كانت أمي تتصرف وكأنها ما تزال تتشمم هواء قريتنا البعيدة، حيث يؤسطر أهل القرى عاداتهم في التعبير عن الفرح والألم على حد سواء. كان من عادات أمي أن تحتفي بسرديات تغلغلت في روحها حد الرسوخ المبجل: نخبوية السلالة، وميراثها من فجيعة الأجداد، والحقد على القتلة! ولم تدرك تلك الأم الطيبة، بعد، أن زادها من تلك القيم الغابرة يوشك على النفاد، في هذه البيئة الجديدة، إلا في ذلك اليوم الذي لا ينسى. كنت مع أمي، عائدين من زيارة والدي الراقد في مستشفى المجيدية في الباب المعظم.

كنا في الطابق الأول من الباص الأحمر العالي، الذي يُدعى، شعبياً، باص الأمانة، نسبة إلى أمانة بغداد. كان مزدحماً بما لذ وطاب، وتخالف وتآلف من الناس، وأنا برفقة أمي في ذلك الازحام الشديد وفي بداية ظهيرة متوقدة. ولد صغير يكاد يغيب في نسيج عباءتها ولمعتها الحائلة بسبب القدم والغبار اللاهب.

صعدت امرأة بدينة وعلى درجة عالية، كما سيظهر، من سوء الخلق،

علاوة على ما تنوء به من قبح الهيأة. كل شيء فيها ينم عن ذلك: برطمان غليظان يحيطان بفم كبير محشوّ بعظام متراصة دونما نظام. شقت طريقها وسط الزحام بقوة لا تخلو من عدوانية وغِلْظة، وألقت بجسدها الثقيل عليّ دونما شفقة. قالت أمي، ببراءة ريفية واضحة، وهي تراني أتلوّى تحت تلك الجثة الضخمة: «السيد يكاد يختنق»! بدت كلمة «السيد» غريبة، ربما، على كل من كان في الباص، باستثناء أمي بطبيعة الحال، التي ما تزال حاملة عادات القرية في المخاطبة وتوقير السلالات، أو ما تراه هي كذلك. فقد نطقت تلك الكلمة بنبرة شديدة الوضوح، ومشوبة بشيء غير قليل من الشجن أو الانكسار. لكن المرأة البدينة لم تبادر إلى تعديل شيء مما فعلته: لم تلملم جثتها المترهلة، ولم تعتذر عن سلوكها الفج. بل فاجأت ركاب الباص بصفيرٍ زاعقٍ، خرج من بين براطمها الضخمة كعفطة عنز. حركة فيها من التعهّر وسوء الخلق ما يفوق طاقة صبيٍّ مثلي، لم يغادر سنوات براءته، على التحمّل. وهكذا كسر في داخلي منذ تلك اللحظة شيءٌ ما، كان قابلاً للنمو، بيني وبين هذا المكان الجديد. وسيزداد هذا الشرخ اتساعاً بعد أن شهدتُ ما كانت تخبّئه الأيام لوالدي.

(3)

لقد كانت هذه الأحياء تحتفظ بفقرها وأغانيها وعاداتها الريفيّة في الحياة والزواج وصلة القربى، وتُمدُّ حياة المدينة بالحركة، وتلبّي حاجاتها

المتزايدة إلى العمالة الرخيصة. ومع ذلك فقد خرج من هذه الأحياء الشعبيّة عدد لا يُستهان به من الأدباء والشعراء والفنّانين والسياسيين الذين كانوا، فيما بعد، عصب الحياة الثقافيّة والسياسيّة والشعريّة في بغداد. لكن هذه الأحياء من ناحية أخرى احتفظت بالكثير من الموروثات والعادات التي جعلت التحاقها بالحياة الجديدة بطيئاً أو متأخراً أو مرتبكاً ربما. ظلت محميات حصينة لانتماءات قبلية أو مناطقية أو انزياحات وجدانية لا تتزحزح. وكانت هذه الأحياء، في جانبي الكرخ والرصافة على حد سواء، مناطق جاذبة للمهاجرين من جنوب العراق أو غربه أيضاً.

ويعود للزعيم عبد الكريم قاسم، الذي قاد ثورة الرابع عشر من تموز في العراق، الفضل في توزيع الأراضي السكنيّة مجاناً على سكّان هذه الأحياء لبناء دور حديثة لهم في مدينتين جديدتين هما: الثورة في شرق بغداد، والشعلة في غربها. وبذلك اختفت من بغداد نهائيّاً تلك الأحياء التي كان يتعايش فيها البشر مع الغبار وبعوض المستنقعات.

كان تبعّثر الأحياء الجديدة قد ترك فجوات من المساحات الخضراء: مزارع الخس وبساتين النخيل والفاكهة التي تغسل بخضرتها الداكنة نهارات بغداد وسماءها الجافة. غير أن الاتساع الجنوني للمدينة وتشابك أذرعها الأسفلتيّة أدّى إلى اختفاء تلك المساحات، وحلّت محلها – شيئاً فشيئاً – البيوت الجديدة، أما السكن العمودي فلم يكن يلائم – في تلك

الفترة كما يبدو – ذوق العراقيين ومزاجهم الميّال إلى البيوت المستقلّة، التي تعزّز احساسهم، إلى أقصى حدّ ممكن، بحريّتهم الخاصة. وظل التوسع العمراني الحديث ينتشر بسرعة وتهور ليقضم في طريقه تلك الجزر الخضراء، ويعتصر ما فيها من طراوة ريفيّة هانئة.

في مدرسة المسعودي، في جانب الكرخ، أخبرنا معلم الجغرافية ذات يوم أن السنة تتكون من فصول أربعة، وأن الربيع واحد منها. ومع الأيام أدركت أن هذا الكلام بعيد ما عن الحقيقة تماماً؛ كان فصل الربيع هذا من ورقٍ وحبر في الغالب: لا نجده إلا في الكتب. فصل جهنميّ قد يطول إلى ستة أشهر أحياناً، وكان بي حنين طاغٍ إلى ربيع بغدادي حقيقي، لكن هذا الفصل العذب ما إن يحلّ بيننا حتى يرحل، أو هكذا أحسُّ، لتهطل علينا، فجأة، سماء من الغبار واللهب، نسمع في ثناياها، أو نكاد، صوت الشاعر العباسي مطيع بن إياس وهو يردد من وراء القرون:

بلدةٌ تمطرُ الغبارَ على الناسِ كما تمطرُ السماءُ الرَّذاذا

وبحلول الصيف يكون المزاج العراقي، ربما، في أشرس حالاته. وليس مصادفة أن ثورات العراقيين وانقلاباتهم، في معظمها، ثورات أو انقلابات صيفيّة.

أخذت بغداد تأكل أجزاءها الطريّة شيئاً فشيئاً، وتقضم ضواحيها الخضراء. كما أن النهر ذاته ما عاد قادراً على ترويض هواء المدينة أو التخفيف من وحشيّته، لقد أحاطت به المباني المتجهّمة، فلم يعد يمسُّ

قلوب الناس. إن الكثير من أجزاء هذا النهر الخالد، الذي كان طافحاً بالحياة، ما عاد كذلك غالباً. فهو، في بعض أجزائه، بقيةُ نهرٍ ضائع. كانت شواطئه الطويلة أمكنة حرّة، مكشوفة للناس جميعاً، للسباحة أو اللهو في بيوت من القصب أو سعف النخيل، تعجّ بالصخب والأغاني المفعمة باللذة والحريّة. يومها كان هواء النهر حرّاً، شائعاً، وفي متناول الجميع. كان لهم ليلهم الجميل، الذي فقد لاحقاً الكثير من خصائصه وعذوبته، بسبب ما مرّ على المدينة، وعلى البلد كلّه، من ظروف عكّرت أيامهم.

كان شارع أبي نواس يمتدّ على الشاطئ الشرقي لدجلة، يشارك الشاربين كؤوسهم، ويضيء سهرهم الصافي. ليل من اللطف والكلام البهيج. وكانت أحواض السمك تنتشر على طول الشارع: سمك حي، يلعب، أملس نشيطاً، في أحواضه. وقبل أن ينتصف الليل يكون معظم هذا السمك قد شُويَ بتلك الطريقة البغداديّة الشهيّة: تُوضع السمكة، على أعواد، في مواجهة نارٍ حيّة، نقية، حتى تنضج. واكتسبت هذه الأكلة البغداديّة، السمك المسقوف، شهرة خاصة لا بين العراقيين وحدهم، بل بين العرب والأجانب من زوّار بغداد.

يُقبل الصيف فيصبح لنسيم بغداد، في الليل، مذاقٌ خاص. يصعد معظم الناس، في الأحياء الشعبية خاصةً، إلى سطوح بيوتهم للنوم على مقربةٍ من نسيم الله: ليلٌ عذبٌ، وسماءٌ تنحني عليهم، لتلمس بنجومها الباردة، أحلامهم وتأوّهاتهم. وعلى أسيجة السطوح وتحت الليل الواسع

يبرد الماء في قلل من الفخار. وهكذا يمرّ ذلك النسيم االربّاني على نومنا فيجعله طريّاً كنوم الملائكة. وكانت أمي تكره النومَ تحت هواء المبّردات الحديثة لأنه يفسد طعم النوم، كما تقول دائماً. وطالما سمعتها تحدثنا عن الفرق بين هواءين: هواء الله وهواء الحكومة.

(4)

كانت بغداد، في الخمسينات، مفتوحة على الجهات كلها. ولست أدري من أي الأبواب أو الجهات كان دخولنا إليها في ذلك الفجر الخريفي. لقد تعرّفت، بعد ذلك، على بابين أساسيين لها، يقع كلاهما في جانب الرصافة: الباب الشرقي والباب المعظّم. يمثل الباب الشرقي قلب بغداد الضاجّ بالصخب والحياة. وعلى مقربة منه تمثال لعبد المحسن السعدون، أحد رؤساء الوزرات العراقية في العهد الملكي، والذي مات منتحراً.

تميّز هذا المكان، لاحقًا، بنصب الحرية الضخم للفنان الكبير جواد سليم، وهو جداريّة هائلة خلّدت نضال العراقيين من أجل حريتهم، أما الباب المعظّم فقد كان، هو الآخر، مركزاً شديد الأهميّة. تقع على مقربة منه معظم كليّات جامعة بغداد، والجامعة المستنصريّة. وتقع فيه وزارة الدفاع، وقاعة الملك فيصل الثاني التي اشتهرت بعروضها الموسيقيّة الراقية آنذاك، وتقع، في فترة طويلة مكاناً مرخّصاً لممارسة حياة الليل،

حيث تعمل نساءٌ محترفاتٌ، في بيع اللذة لطالبيها من الشباب أو الفاشـلين في حياتهم الاجتماعية والعاطفيّة.

2

لحظ اكتشفت أن القصيدة من صنع البشر

(1)

في أول يوم لي في المدرسة، عصف بي خليطٌ من الانفعالات التي ينسخ بعضها بعضاً.. تم قبولي في الصف الثالث مباشرة أول الأمر، إذ كان أبي قد علمني القراءة والكتابة، في القرية، أنا وأخوتي الثلاثة. داومت في درس اللغة العربية، وكنت في أقصى حالات الفرح. غير أن تلك المشاعر لم تدم طويلاً، بل انقلبت رأساً على عقب، في الحصة اللاحقة. ولأنني لم أكن أعرف من مفردات الحساب شيئاً، فقد أُعِادني معلم الرياضيات، بعد ساعة تقريباً، إلى الصفّ الثاني كحَلٍّ وسط باتفاقٍ مع مدير المدرسة.

بعد أسبوع أو أسبوعين، مرّ بي يوم له غرابته الخاصة. كان صباحاً خريفياً لا ينسى، شيءٌ ما كان يثير في نفسي التهيب والانفعال. لم يكن في السماء الباردة إلا غيوم الخريف الأولى، ولم يكن يملأ القلب غير ارتباك غامض. في ذلك اليوم وقفت، ولأول مرة، أمام سؤال محير يتصل بالشعر. لا أعيه قدْرَ ما أحسّه، كان حيرةً وغموضاً أكثر منه وعياً أو فكرة..

بدا كل شيء جديداً عليّ في ذلك اليوم. وكنت أحاول، قدر استطاعتي، أن أنتزع نفسي من أجواء قريتي البعيدة التي ما تزال حية

تتشبث بالذاكرة. كان عليَّ أن أنسى نهراً من أغاني الأمهات يربطني بذلك التراب الحميم، ويضعف قدرتي على التكيف مع أزقة المدينة، وضجة أطفالها ومقاهيها. وما إن رنّ جرس المدرسة يدعونا إلى الاصطفاف الصباحي حتى تملكني إحساس مربك بأنني أتوغل، لحظة بعد لحظة، في عالم جديد عليّ تماماً.

الفضول والتهيب وثمة قشعريرة من نوع ما تغمرنا جميعاً، التلاميذ والجدران. الخريف يتنامى في ساحة المدرسة، لذعة البرد الأولى على مقربة منا، والسحب تتجمع تدريجياً في الأعالي. وكل شيء كان يضعني، ذلك اليوم، أمام ذاتٍ تحاول أن تتسلق فضاءات بيضاء، لتطل على ما وراءها من تهيؤاتٍ أو أسئلة مبكرة.

(2)

يبدو لي أن الكثير منا مسكون، بوعي أودون وعي، بهذا التصور عن الشعر ونشأته الأولى. وقد كنت، شخصياً، وما أزال أحمل أصداء من ذلك الجرس الغائم الذي رنّ في أرجاء روحي ذات يوم فأيقظني على حقيقة أقرب إلى الوهم، أو هو الوهم ذاته بكل ما فيه من كثافة واستحالة. كنتِ أتصور دائماً أن الشعر لا يقوله بشرٌ من طينٍ وماء. غير أن شيئاً ما حدث في تلك اللحظة الخريفية البعيدة، فاهتز ما كان يربط بين الشعر والحلم والخرافة، أو بينه وبين الجنون أو الآلهة.

لم نكن نحن العرب وحدنا من باعد بين الشعر وعالم البشر العاديين؛ فالشعوب الأخرى فعلت الشيء ذاته: فصلت بين الشعر والناس، ونظرت إليه على أنه كلام خاصٌّ، وأثيريّ. إن كلاماً كهذا لا يكون من إنتاج البسطاء من الناس، ولن يكون مظهراً من مظاهر حياتهم اليومية، فالشعر، كما يقول أرسطو: ناتج عن الموهبة أو ضرب من الجنون.

لا يكون الشاعر إنساناً عادياً، هكذا تصورته ثقافات الشعوب وخيالها منذ القدم، بل هو كائن خاص أهلته خصوصيته تلك إلى أن يكون مصدراً لكلام شديد التميز. يتلقاه أولاً عن طريق ما كنا نسميه «الإلهام الشعري» ثم يقوم، بعد ذلك، بإنشاده على مسمع من البشر وعلى مرأى من قلوبهم الهلعة أو الضاجة بالبهجة. الشعر والشاعر، إذاً، كلاهما خاصان لأنهما يرتبطان بنعمة الخيال وهدايا الآلهة.

(3)

حين تدافعنا، هائجين، كان كل واحد منا يحاول أن يجد لنفسه مكاناً في ذلك الطابور الصباحي، ولم يكن يخطر ببال أحد منا كيف سيكون شكل ذلك اليوم: كنا نصنع من أجسادنا المتراصة جدراناً من القلوب المرتبكة، وكان كل منا يصغي إلى قلب صاحبه ويكاد يشم رائحة مخاوفه الصغيرة.

هدأت الضجةُ فجأة حين نوديَ على أحد التلاميذ من الصفوف المتقدمة ليقرأ قصيدة أمام زملائه: همهمة غامضة سرت بين القلوب

وأشجار الساحة. كانت القصيدة لواحدٍ من معلمي المدرسة آنذاك، وكان مراقباً لذلك الطابور الصباحيّ الصاخب، ولا أدري لحظتها أكان متباهياً بعصاه أم بقصيدته.

قرأ علينا التلميذ قصيدة، كان عنوانها «الربيع»، وما زلت أذكر اسم شاعرها «خطاب سلمان العبيدي». كانت مفاجأة صادمة لي حين علمت، من همس التلاميذ، أنها من شعر أحد معلمي المدرسة، وكان مراقباً للساحة في ذلك التجمع الصباحيّ الذي كنت جزءاً منه. انتابني شعور غريب، كيف تسنّى لهذا الرجل المعلم، وهو من لحم ودم مثلنا، أن يقول كلاماً كهذا؟ أيكون الشعر كلام إنسان عادي يشبه الآخرين؟ هل يشترط في الشاعر أن يكون معلماً؟ هل الشاعر يشبه سواه من الناس؟ كنت أعتقد أن الشاعر كائن أثيري، لا يمكن لمسه، أو محادثته.

قبل ذلك الصباح، كانت المحفوظات الشعرية القليلة، التي أحفظها أو أسمعها، عن والدي، لا تُنسب إلى قائلٍ بعينه، لذلك فإن الشعر، بالنسبة لصبيّ مثلي، كهواء القرية وحقولها الممرعة، متاحاً مثلما المطر، أو القشّ المبلول، أو رائحة النهر التي تهب علينا من وراء السدة الترابية.

كان لوالدي صديق نجفيّ معمم، يأتي إلى قريتنا، مرة كل عام، فيحلّ عِلينا ضيفاً. ليبكي الناس في عاشوراء، ويساعد أبي في تعليمنا القراءة والكتابة، أو يملي علينا أبياتاً من الشعر أحياناً. ومن شعر ذلك الزمان

الذي كنت أحفظه، ما كانت تتداوله المصادر القديمة، مثل كتب الطرف والنوادر وألف ليلة وليلة:

ألا موتٌ يباعُ فأشتريهِ فهذا العيشُ ما لا نفعَ فيهِ

إذا رحمَ المهيمنُ قلبَ حرٍّ تصدّقَ بالوفاءِ على أخيهِ

كنت أحفظ هذين البيتين، دون أن أعرف لهما، أولاً مثالهما، قائلاً. وفي ذلك الاصطفاف، عرفت ما لم أكن أعرفه، وما لم أسأل أبي أو الشيخ النجفي، عنه: أن الشعر من عمل البشر، يقدر الناس على قوله، كما قدر عليه الأستاذ خطاب العبيدي. بقيت أنظر إلى ذلك المعلم مشدوهاً أتجاوز ملامحه المادية المحسوسة. آنذاك فقط أحسست بحلم صغير يراودني: أن أكون شاعراً، وربما حلمت أيضاً أن يقرأ التلاميذ، ذات يوم بارد، إحدى قصائدي في اصطفاف صباحي كهذا.

لم أفهم الكثير من قصيدة الأستاذ خطاب العبيدي، ملك الاصطفاف في تلك اللحظة؛ فقد هيمنت عليّ فجأة دهشةٌ غامرةٌ، اقتلعتني من بين الأجساد الصغيرة المتراصة، وكأنّ هواءً كونياً أذابني في ثناياه، ونثرني بين طيوره وأحجار طرقاته. شيءٌ ما، عصيٌّ على التحديد: غيمة، أو أغنية، أو طائر خرافيّ كان يمسك بي من قلبي المنتفض ويحلّق عالياً لأطل على ذلك العالم، من شرفة نائية كالأساطير لا يطالها البشر ولا تحيط بها عيونهم.

(4)

قبل تلك اللحظة ما كنت أصدق أن في الإمكان أن أرى بعيني هاتين شاعراً، يتمشى خارج مخيلتي، أعني على الأرض وبين الناس؛ لم أكن أعتقد أن الشعر يمكن أن يقوله بشر عاديون. بل هو نعمةٌ من نعم الخيال: آهةُ نبيّ مطارد، أو تمتمةُ إلهٍ قديم، أو كلامٌ مصفّى لم يمسسه بشر. يهطل علينا فجأة وكأنه رذاذٌ يتطاير من تصادم غيمتين طريتين. أجمل وأرقى من أن يدعيه إنسان بذاته، إنسان مثلنا، يأكل ويشرب، ويتثاءب ويغتاب الآخرين؛ فالقصيدة لا تشرق إلا من قلب عامر بالبهجة النقية أو الأسى الكريم، أما الشتيمة فلا تخرج إلا من كمينٍ أو كهف.

وطوال ذلك الطابور الصباحي وأنا شبه غائب عن نفسي. فضاء المدرسة كله كان مفعماً برائحة خاصة: حقول يمشط أدغالها وابلٌ من مطر مفاجئ، وغدران تحف بها الطيور الفرحة من كل صوب. وكنت، وسط ذلك كله، أتمنى أن أرى نفسي ذات يوم محوراً لمشهد صباحي كهذا، حيث رائحة الصباح تملأ روحي وأنا أخطو بين التلاميذ مزهواً بعصاي وقصيدتي.

بعد الاصطفاف مباشرة، فوجئت ثانية. جاءنا الأستاذ خطاب العبيدي في درس اللغة العربية. كنت منصرفاً إلى مراقبة هيأته الشخصية، لباسه الأنيق، تمشيطة شعره المميزة، وتنقلاته داخل الصف. تفاصيل أخرى كنت شديد الانتباه اليها أيضاً، طريقته في الإمساك بقطعة الطباشير، نبرات

صوته وهو يسأل التلاميذ، أو يبتسم مشجعاً في وجه أحدهم حين يجيب على سؤال من أسئلته. وبلغ هذا الاهتمام ذروته حين وقف بجانبي مستنداً إلى الكرسيّ الذي أجلس عليه.

(5)

بعد ذلك الصباح صرت مفتوناً بكل خريف يأتي. وكأنه مجلبة لما يخرجني من ألفة أيامي. لي مع الشتاء واعتدالات أيامه ما يبعث فيّ الأمل في أن أكون شيئاً ما ذات يوم. لا أعني الوظيفة أو المال أو السكن في بيت لا يتسرب منه المطر. بل أن أكون قادراً على الإتيان، كوالدي ربما، بما يلفت الانتباه من الكلام.

أذكر بشكل خاص، وقت الضحى، من أيام الخريف، ونهارات الشتاء المعتدلة. في هذين الوقتين تحديداً تكون فرصة التغذية المدرسية. كان لكل واحد منا حصته من الفاكهة، التي تتراوح بين الموز أو التفاح أو البرتقال، وكوب من الحليب الساخن. إضافة إلى صمونة محشوة بالبيض، أو الجبن، أو الحمص المسلوق. كان هذا الوقت أكثر أجزاء النهار بهجة وسطوعاً. تهبط فيه الشمس من مكانها القريب، لتتنقل بين أقدامنا كالكرة الدافئة، تملأ أكوابنا بالضوء، وأجسادنا بالدفء، فيزداد صخبنا وعبثنا بياضاً. وكان يتخلل ذلك وقفات وانقطاعات، يتيح لنا فيها

المعلـم، أحيانــًا، فرصــة الحـديث عــن فكــرة، أو مشــهد، أو ذكــرى، أو موضوع ما. وربما كنت أكثر التلاميذ مشاركة، في الحديث عما أحفظ أو أتذكر، أو أختلق ربما. وقبل أن تعود الشمس ثانية إلى مكانها العالي، تنتهي فرصة التغذية ونعود جميعًا إلى صفوفنا مرة أخرى..

رائحة الكتب الأولى

(1)

كنا نسعى، في سنواتنا الأولى، إلى احتضان العالم بحواسّ شرهةٍ، تطمح إلى تجربة كل شيءٍ يصادفنا أو نصادفه. نسلّط عليه حواسنا بحنوٍّ بالغٍ حيناً أو قسوةٍ غير آبهةٍ حيناً آخر: فراشةٌ تتوهج على حجرٍ، كتابٌ ممزق الغلاف، صورةٌ لكائنٍ ما، قصاصةٌ من جريدةٍ مهملة. ومن هنا، ربما نشأت صلة الكثيرين منا بهذا العالم العجيب: الكتاب.

كان لجيراننا بيت جميل من طابقين. ولهم في محاذاة السياج الخارجيّ حاوية يرمون فيها القمامة، والأواني الفارغة، وكل ما يزيد عن حاجتهم أو يطلعون عليه من صحف ومجلات. وفي هذا المكان عثرت على أعدادٍ من مجلة الهلال، وعلى ديوان شعر هو الكتاب الأول في حياتي كما أظن. كان عنوانه ذا جاذبية خاصة لمن كان في عمري: نوحٌ وتغريد، لشاعر أسمه عبد الصاحب شكر البدراوي. وقد عرفت، في سنوات لاحقة، أنه والد المذيع التلفزيوني الراحل، ذي النبرة المميزة رشدي عبد الصاحب.

كان ثمة خيطٌ نحيلٌ كالهواء يمتد بيني وبين معرفة بسيطة أحاول امتلاكها. متراخياً أو مشدوداً، صاعداً أو متراجعاً، طاهراً أو مشوباً بالنزوات أحياناً. ربما امسكت بطرف من الخيط ذات عودة من المدرسة، كنت وقتها في آخر المرحلة الابتدائية. برميل بجوار بيت عالٍ

مليء ببعض المجلات الفنية ملقاة بإهمال واضح، أو الكتب التي لم تحظ، كما يبدو، بصحبة طيبة..

في صبانا الأول، غالباً، يحدث ذلك التماس الخطر مع الكتاب، فنندفع إلى عالمه بهوس الشباب وحدّته. وقد يكون اندفاعنا، إذا كنا محظوظين، بإشارة حانية من أبٍ، أو معلمٍ، أو صديقٍ، وبذلك نتجنب ما في تلك التجربة من كمائن، أو مطبّاتٍ لا تؤهلنا خبرتنا البسيطة للتعرف عليها. وحين لا يتوافر ذلك التوجيه فقد نلقي بأنفسنا دفعةً واحدةً في أدغال يختلط، في عتمتها، الزهر والأفاعي.

(2)

ويظل للكتاب الأول، أو الكتب الأولى عادة قدرة عجيبة على استدعاء الأزمنة الغائبة. فأنت لا تتذكر الفترة التي اقتنيت فيها هذا الكتاب أو ذاك فقط، بل تتذكر المكان، في الغالب. فرائحة الزمان ورائحة المكان كلتاهما، تقتحمان عليك أيامك الراهنة، ومكانك الحالي أيضاً. كلنا نتذكر تفاصيل مكانية أو زمانية ترتبط بكتاب من كتبنا الأولى، تلك الظهيرة اللاهبة، أو ذلك المساء الغائم، بائع الكتب والجرائد وهو يفترش أحِد الأرصفة، أو المكتبة العامرة في شارع يضج برائحة الورق والأفكار والأخيلة. وحتى عندما يتقدم بنا العمر، ونعثر على طبعة جديدة لكتاب ما، فإن طبعته القديمة تظلّ هي الأعز، والأحلى، بالنسبة لنا، فقد كانت

أحد الشهود الذين كانوا يرقبون أجسادنا وهي تنمو، وعقولنا وهي تتفتح، وذاكرتنا وهي تستقبل الضوء دفقة بعد أخرى.

الكتاب الأول، إذاً، ليس حزمة من الورق، أو غلافاً لامعاً. ليس صفحات من الحبر أو الفكر أو التأوهات فقط، بل كائن حي، شهد معي صباي الأول، وعثراتي الأولى أيضاً، حمل شيئاً من الأذى الذي ألحقته بصفحاته أصابعي المتعجلة، أو قلمي وهو في اندفاعه المرتبك. وما زلت حتى هذه اللحظة أتذكر، ربما، بعض فقرات منه، وأكاد، ربما أيضا، أن أتذكر أماكن بعض الجمل أحياناً.

كانت الكتب بالنسبة لي مصدر بهجة معرفية لا تنسى. لكنها قد تصبح، أحياناً مصدر عذاب يومي لا يحتمل. إن الأيام حين تزدحم بالمشاغل والارتباطات والهموم فإنها قد تدفعني إلى اليابسة: بعيداً عن ماء الكتب، ونداءات الحبر، بعيداً عن أحلام الماضين، أو توقعات الذاهبين إلى المستقبل:

تلكَ أغنيةُ الورقِ المتربةْ
هل تشمّونَ أزهارَها وهي تقتادُهُ
صوبَ غرفتِهِ؟ صوبَ أحبابِه المهمَلينَ؟
وتُحصي لهُ حُلْمَهُ، أو صحاراهُ، أو كتبَهْ؟
كانَ يَرقبُ أيّامَهُ كلَّها وانشغالاتِهِ كلّها..
يتأمّلُ أحبابَهُ الخُلَّصَ المهملينْ

ويعدُّ: كتابًا، كتابينِ، أربعةً..
ثمّ ينسَلُّ من بينهم:
مستشاراً حزينْ.

(3)

وكلما طال غيابي عن تلك الكتب، عن أحبابي المهملين، أحسست بالاختناق والوحشة، وأخذت أصغي، بألم جارح، إلى أعماقي وهي تبحث عن رائحةٍ أنقى وأكثر جمالاً: رائحة الكتب، ما أفدح إحساسنا بالخسارة حين لا نجد وقتًا لقراءة كتابٍ تعبنا، وأتعبنا الآخرين، في الحصول عليه. وما أعمق إحساسنا بالوحشة ونحن نستمع إلى أنين أحبابنا المنسيين، دون أن نسعى إلى إنقاذهم من غبارهم الموحش، دون أن ندعوهم ثانية إلى قلوبنا وعقولنا كما كنا نفعل في شبابنا أو سنواتنا الأولى..

لا شك أن لكل مرحلة فضائلها، ولها عيوبها أيضًا. وفي مرحلتنا الراهنة يجد كل واحد منا نفسه غريقًا في بحر متلاطم من كل جديد في عالم الكتاب وصناعته. كيف يمكن للغريق أن يستمتع بمرأى البحر إذاً؟ مازِلت أذكر عبارة لكاتب فرنسي وهو يضع قاعدة ذهبية تدلنا على الكتب الجديرة بالقراءة حقًا: لا تقرأ الكتب الجيدة، اقرأ أفضلها فقط. وهكذا نجد أنفسنا ضائعين في عالم يضج بالكتب الجيدة التي لا ينصحنا ذلك

الكاتب بقراءتها هي، بل بقراءة ما هو أفضل منها، فما أكثر أحلامنا، وما أضيقك أيتها الحياة!

وكثيراً ما ترتبط رائحة الكتاب بالنار، والدم، والماء. ألم يقم أبو حيان التوحيدي بحرق كتبه؟ ألم يمت الجاحظ مدفونًا تحت مكتبته بعد أن انهارت رفوفها عليه؟ ألم يمتلئ ماء دجلة بالكتب والقتلى بعد أن دخل الغزاة بغداد، ودمروا أسوارها وأحلامها حجارة حجارة وحلمًا حلمًا؟

ثمة عصافير كثيرةٌ أتذكرها حتى الآن، كانت تضربُ بأجنحتها الخفيفة هواءً عريضًا لا قِبل لها باقتحامه أو التمرّغ فيه. هكذا بدأت علاقتنا بتصفح الكتب الأولى أو قراءتها. وقد لا نفلحُ في تذكّر كتابٍ بعينه، يمثل أول كتابٍ قرأناه حقا، أو تصفحناه واطّلعنا عليه.

كان يحدث أحيانا أن أعثر على كتابٍ أو مجلةٍ ملقاةً بجوار بيتٍ فخمٍ، لم يجد أصحابه في تلك المطبوعات ما يدعوهم إلى الاحتفاظ بها، أو أن صلتهم بالقراءة لا تتعدى التصفحَ العابر، أو رؤية ما فيها من صورٍ، أو ألوانٍ أو عناوين.

ومع ذلك فإن تلك المصادفة ومثيلاتها كانت تقودنا إلى داخل الغابة، أي إلى عتمتها الندية الصافية. وحين تتقدم بنا أعمارنا قليلا، تنمو لدى أكثرنا أجنحةٌ غير مرئيةٍ أو ملكةٌ خاصة. أعني بها القدرة على تذوق ما نقرأ. وتصبح للقراءة في هذه الحالة رائحةٌ فواحةٌ أو طعمٌ يدلّ عليها، ويفصح الحبر عن غوايةٍ لا تقاوم ونداءاتٍ لا تنسى. وهكذا أخذتُ

أصغي بلذةٍ فائقةٍ إلى همهمة كتابٍ يتذمر على رصيفٍ لبيع الكتب المستعملة، أو على رفٍّ في مكتبةٍ عامة.

(4)

كنت أذهب إلى المدرسة مبكراً دائماً، من بيتنا الذي كان محشوراً في أحد الأزقة القريبة من منطقة 52، في جانب الرصافة ببغداد. وكان يسكن تلك المنطقة الحديثة الكثير من ميسوري الحال من الفنانين، وأساتذة الجامعة، والأدباء. شعورٌ خاصٌّ كان ينتابني حين أقرأ أسماء أولئك الأساتذة والأدباء مكتوبةً على مداخل بيوتهم الفخمة، ثم أراها، لاحقاً، على أغلفة كتبنا المدرسية أحيانا. ولا تزال تجربتي مع الكتاب الأول أو الكتب الأولى، حاضرةً في الذاكرة حضوراً غير مُبرّإٍ من العناء الذي كان يتكرر كلّ أسبوع. كنت أذهب إلى المدرسة في ساعات الصباح الأولى، الأولى تماماً..

كانت الأرصفة، في الشتاء خاصةً، مغمورةً بالضوء الشحيح البارد، وثمة شمسٌ صغيرةٌ تقبل من بعيد. وحين أتّجه إلى مدرستي في منطقة «البتاويين» على مقربةٍ من نهر دجلة، كانت تشدني إلى المكان ظاهرتان: ذلك الخليطُ المحبب من الأعراق والإثنيات واللهجات العراقية المتنوعة، وكشكٌ كبيرٌ لبيع الصحف والمجلات. وقد اعتدت أن أشتري، صباح الخميس من كل أسبوع، ملزمةً جديدةً، اثنتين وثلاثين صفحةً، من

كتابٍ تراثيٍّ بالغ الروعة: «تجريد كتاب الأغاني» للحمويّ، وهو طبعةً مشذبةً ورشيقة من «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهانيّ، قامت بمراجعتها مجموعةٌ متخصصةٌ من كبار الكتاب المصريين، بإشراف الدكتور طه حسين.

كان ثمة عيدٌ أسبوعيٌّ يخصني وحدي: ملزمةٌ جديدةٌ من كتاب الأغاني، تنتظرني لدى بائع الصحف والمجلات. اثنتان وثلاثون صفحةً من القطع الكبير. كنت أتأبطها وأنا أدخل المدرسة، صباح الخميس، مزهوّاً أمام زملائي الطلبة. كان تحرير الكتاب أنيقاً وفي منتهى الدقة. وكلما اكتمل لديّ مجلدٌ جديدٌ من هذا الكتاب ذهبتُ به إلى شارع المتنبي لتجليده. وهكذا كانت أباريق السهر والترقب لا تنضب، وأنا أنتظر عيديَ الأسبوعيَ الخاصّ حتى اكتمل لديّ الكتابُ بمجلداته الخمسة.

(5)

ويتدرج بي سلم القراءة على هواه، حراً، عشوائياً، ودون ترتيب يعتد به. ثم تمرّ انتقالة هي أقرب إلى الطفرة، تأخذني بحنان غامر لا يخلو من الكثير من الفوضى، يصدر كتاب الشعر والتجربة للشاعر والناقد الأمريكي أرشيبالد مكليش. لغة شديدة الثراء والجمال، ترتفع بها ترجمة الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي إلى فضاء تسقط الحدود فيه بين

الشعر والنقد والترجمة. كنت أقرأ كلاماً يبعث على الدهشة والارتباك. كيف استطاع هذا النقد أن يتخفف من منطقيته وصرامته لصالح الحلم وتهوره الجميل:

«إذا أراد امرؤ أن يصيد أسداً فأوّلُ ما يبدأ به افتراضه وجود أسد، كسماع زئير في الليل، وافتراس ولدٍ أوثورٍ، وآثار ضخمة في الدرب الذي تسير فيه النساء، ورائحة اللحم القديم تحت الشجيرات الشائكة وقد راح الشيوخ يتفحصونها متأملين».

هكذا ومنذ سطوره الأولى يأخذني ذلك الكتاب الفريد، الذي صدر بالعربية في بداية الستينات في رحلة داخل تقنيات المكر الشعري المدهش، بين الكلمات الرموز، والكلمات الصوت، والاستعارة والتعبير المراوغ، ثم ينتقل إلى شعراء محددين، كل له نبرته وسلوكه الخاصة: أميلي ديكنسون، ييتس، رامبو، كيتس. ربما بدءاً من هذا الكتاب، صار تشممي رائحة الكلمات وإصغائي إلى حفيفها الخاص أكثر وضوحاً. ثم أخذت أحاول أن أتحسس التمايزات بين الأساليب والنبرات على قدر ما يستطيعه شاب في مثل عمري.

وليس بعيداً عن هذه اللغة العجيبة يهجم روجيه غارودي على قلاع الحجر الصلدة، وبين يديه شعلة من الوعي المختلف، فيبعث، من خلال كتابه: واقعية بلا ضفاف 1968، الحيوية والمرونة في الكثير من المسلمات. بعد هذا الكتاب لم يعد مستغرباً بالنسبة لي ولأبناء جيلي أن

نرى شعر سان جون بيرس، ورسوم بيكاسو، وروايات كافكا، تدخل مختبر النقد وعملياته للكشف عن منطوياتها الرمزية وإيماءاتها النفسية بعيدة الغور. ويعيد ربط البنى الإبداعية بوظيفتها الاجتماعية والنفسية بعد أن ظلت، بسبب ضيق الأفق، بعيدة عن هذه الوظائف فترات طويلة.

(6)

بعد انتهاء عملي في جامعة الإمارات، واجهت أكثر الأوقات حرجـًا، كانت الكتب، على الرفوف، تنتظر مصيراً مجهولاً. كم منيت النفس بوريث يستحقها: تجد بين يديه كرامتها، وتستعيد بين شفتيه شبابها وهو يرتفع ببعض مقاطعها إلى مستوى الصلاة أو الابتهال. كانت ابنتاي وصال وخيال، على درجة عالية من الافتتان بالشعر، وكانتا تتوقان، لولا ظروفهما المعقدة، إلى وراثة مكتبتي. فمن يحول بين الكتب وبين شيخوختها المحتومة؟

حين كان الخريفُ يهيِّئني
لصداقتهِ، قلتُ لهْ:
ها هما تُقبِلان مع الغيمِ مثمرتينِ..
فوَفِّرْ هداياكَ،
كلتاهما ستوزِّعُ غيمَ يدَيْها على كتبي
أو على وحشتي المقبلةْ
هكذا قلتُ لهْ..

غير أن الخريف ظلّ يدب في عروق مكتبتي، ويمضغ حبرها وأوراقها باستمرار. لا الكتب تقيم هانئة على الرف، ولا المسافة تضيق بيني وبين بغداد. أما وصال وخيال فقد كانتا تنالان نصيبهما من سنوات الشتات ومحنة الكتاب أيضًا. وكان تخصص كل منهما يأخذ اتجاها مغايراً، فقد دفعت بهما الترجمة وتدريس الإنجليزية بعيداً عن تخصص العربية.

وهكذا، كان بلوغي هذه النقطة بداية للتبرع بمعظم كتبي لجامعات عديدة، كان أولها جامعة الإمارات العربية بطبيعة الحال. وفي بغداد أخذ التبرع جزءاً مهما من مكتبتي هناك، وكانت الحصة الأكبر لمكتبة جامعة الموصل التي تعرضت لتخريبٍ كان جزءاً من خراب شامل عمّ المدينة كلها..

(7)

مرت على مكتبتي حروبٌ كثيرةٌ وحصاراتٌ لا حصر لها، فلم يعدْ شملها مجتمعـًا كما كان في الماضي. ومثلما توزع شعبٌ بأكمله على المنافي ومخيمات اللجوء في وطنه وبعيداً عنه، توزعتْ كتبي بين مدن شتى: بغداد، صنعاء، العين، عمّان، وأخيراً بولو التركية. ومع ذلك كله، لا تزال الطبعات الأولى لكتب مثل «الشعر والتجربة»، و«واقعية بلا ضفاف»، و«تجريد كتاب الأغاني» للحمويّ وسواها، تنتظر عودتي إلى بغداد دون جدوى.

فوضى البدايات

(1)

«أرجو أن تكون من ذوي الأقلام».

عبارةٌ كتبها معلم اللغة العربية، ذات صباحٍ، في دفتر الإنشاء، ثم غيبته الأيام الحافلة بضجيج السياسة ومناكفاتها المريرة، دون أن يعلم ما فعلته بي عبارته تلك. كنت في مدرسة الوشاش الابتدائية. ولم يكن تميّزي في درس اللغة العربية خافياً على أحد، وكانت دفاتري مثقلة بإطراءات معلمي هذه المادة دائماً.

ما زلت أتخيل ذلك المعلم، وكان اسمه مالك على ما أذكر، الذي ترك على دفتر الإنشاء مساحة من الفرح لا تنسى، وكنت حينها في الصف الخامس الابتدائي. وبعد سنوات التقيته مصادفة. كان قد كبر كثيراً بينما كنت في ذروة الشباب. أعمل، في ذلك الوقت، رئيساً لتحرير مجلة الأقلام. حاولت، مازحاً، تذكيره بنبوءته القديمة. لم يتذكّرْها بالطبع كما كنت أتذكّرها أنا، لكنه ابتسم بلطفٍ، فرحاً بما وصل إليه طالبٌ كان واحداً من طلابه البارزين ذات يوم.

كنت تواقاً، منذ تفتحي على القراءة، إلى تعلم ما تسمح به سني عن الشعر والأدب بشكل خاص. لم أكتب القصيدة الحديثة منذ البداية؛ فقد كان طريقي إلى كتابتها قد مر بمحطات شعرية أخرى. في الصف السادس

الابتدائي، بدأت الكتابة باللهجة العامية. أذكر بضع محاولات لي كانت قد بُثّتْ في برنامج إذاعي يقدمه شاعر ذائع الصيت، آنذاك، اسمه زاهد محمد. وبفعل التقلبات السياسية المريعة فصل من عمله في الإذاعة وحل محله في تقديم البرنامج، شاعر آخر يكتب الشعر بالفصحى والعامية اسمه سالم خالص، ويكنّى بـ «أبو ضاري»، وهو شقيق الدكتور صلاح خالص. ومن غريب الصدف أن سالم خالص هذا كان مديراً لمدرسة «ابن كثير الابتدائية»، التي كنت طالباً فيها وكان مؤلفاً لعدد من الأغاني الجميلة التي لحنها وغناها له الفنان الكبير عباس جميل.

في نهاية المرحلة الابتدائية، وكأيٍّ مراهق في تلك السن الملتهبة، كانت تعصف بي فوضى البدايات الخطرة في اهتمامات كثيرة. ثمة إحساسٌ غامضٌ يتملكني على الدوام بأنني قادرٌ على إنجاز كل شيء: الرسم، الشعر، القصة، الرياضة، النصّ الغنائيّ. وكان يغذّي هذا الإحساس، ربما، تفوُّقي الدائم في الدراسة. ومن أطرف ما علِق بذاكرتي، في تلك السن المفعمة بالأوهام أنني كتبت عدداً من النصوص الغنائية دون أن أدرك تماماً مستواها الفني.

كنا نسكن في شارع متواضعٍ يقع قريباً من منطقة «5»، كنا جزءاً منها وطارئين عليها في الوقت ذاته. يجمعنا بها جوارٌ جغرافيٌّ قلق. مجموعة من البيوت البسيطة في أرضٍ خاليةٍ من المُشيّدات. أما طبقياً، فلم نكنْ قادرين على الانتماء إليها. كان يجمعنا بسكانها غبار النهار، وتفرقنا عنهم

أشياء كثيرة: الليل الخاصُّ، والملابس الأنيقة، والسيارات اللامعة، والورد الذي يسترخي على الأسيجة. كانت من مناطق بغداد الراقية، في الخمسينات والستينات.

كان الكثير من سكانها من الأطباء، والمهندسين، والفنانين، وأساتذة الجامعة. ومن بين سكنة ذلك الحيّ الراقي الملحن الكبير وديع خوندة وزوجته الفنانة مائدة نزهت، وتسكن الشارع نفسه مطربة أخرى ذائعة الصيت أيضاً. اعتدت أن أمرَّ كل يوم، في ذلك الشارع المترف وأنا في طريقي إلى المدرسة: وكأنني نبتةٌ شائكةٌ تحاول أن تشق طريقها في كتلةٍ من المرمر أو الياقوت.

وحدث ذات يوم، أن رأيت الفنان وديع خونده، المعروف باسمه الفني: سمير بغدادي. كان في حديقته المنزلية، يرش نباتاتها كعادته ويضفي على الهواء شيئاً من أناقته المعهودة. ضغطت على الجرس دون تردد، وكأنني على موعد مسبق معه. سلمت عليه، ثم أخبرته، بجرأةٍ ربما أثارت حفيظته، بأن لديَّ نصاً غنائياً وأتمنى أن يلحنه للفنانة مائدة نزهت. قبل أن يردّ على أمنيتي المرتبكة، نظر إلى الكتب المدرسية التي أحملها، ثم سألني بصوته الرخيم: في أيّ صفٍّ أنت؟ ولما أخبرته أنني في السادس الابتدائي، قال بنبرةٍ يمتزج فيها النصح والتعنيف المهذب: ابني، التفتْ إلى دراستك أحسن، وراك امتحانات!

وبعد سنواتٍ طويلةٍ من النسيان، استيقظت تلك الحادثة ذات يوم. في

مقابلةٍ أجراها معي القاص عبد الستار البيضاني، ونشرتها مجلة ألف باء في 1989. كان وديع خوندة رئيساً لقسم الموسيقى في الإذاعة والتلفزيون، وكنا على علاقة طيبة. كنت وقتها عضواً، في لجنةٍ لفحص النصوص الغنائية في القسم نفسه، تضمُّ منير بشير وعبد الرزاق عبد الواحد وخليل الخوري. وفي صباح اليوم الذي نشرت فيه المقابلة، رنّ جرس الهاتف في غرفتي في مجلة الأقلام. كان وديع خوندة على الخط، وكان قد قرأ المقابلة كما يبدو. إذ سألني، مداعباً، عن نصوصي القديمة ليقوم بتلحينها! ثم أضاف، ببشاشةٍ صافية: ما أدراني بأن ذلك التلميذ سيكون، في يومٍ ما، أحد المتحكمين في مصير النصوص المقدمة إلى قسم الموسيقى!

(2)

غير أن نصيحة الفنان وديع خونده لم تصدّني عن محاولاتي في كتابة النصوص الغنائية التي لم ير النور أيٌّ منها. وبعد سنوات وجدتْ بعض قصائدي، المكتوبة بالفصحى، طريقها إلى ملحنين موهوبين مثل كوكب حمزة، طالب القرغولي، كمال السيد، حسين السماوي، سالم حسين، عَلي عبد الله. ومع أن تلك القصائد، أو أساليب كتابتها على الأقل، لم تكن تجعلها أصلا مناسبة لغرض كهذا، لكنها تشتمل على لحظة من التوتر الغنائي استطاع هؤلاء الفنانون تفجيرها بشكل جذاب.

في عقد الستينات الفوار بالقلق والتحولات. لم يقتصر مزاج التجديد على جبهة الأدب وتفرعاته. ثمة نهضة في النص الغنائي، في الصوت، في المخيلة اللحنية. وقد ربطتني صداقات طيبة مع عدد من الفنانين. كوكب حمزة، سعدون جابر، رياض أحمد، سعدي الحديثي، عريان السيد خلف، رياض النعماني. كنا نتاج ما يفور من ذلك المرجل الملتهب.

لم يكن كوكب حمزة، مثلاً، ملحناً موهوباً فقط. بل كان، إضافة إلى موهبته الاستثنائية المبكرة مرهفاً، واعياً، وشديد الشغف بالقصيدة. كانت حساسيته الشعرية تشكل المهاد الجمالي والإنساني لعمارته اللحنية التي أربك بها تاريخ الأغنية العراقية وقلبها رأساً على عقب.

لا يغيب عن البال تلك الصداقة التي جمعتنا، إنسانية وشعرية إلى أبعد الحدود. وفي أجواء سياسية بالغة الشراسة، أعقاب حرب أكتوبر، لحن لي كوكب حمزة مقطوعات شعرية لاهبة من قصيدتي «تلويحة للريح العراقية»، أذكر منها المقطع التالي:

من بغدادَ ومن سيناءْ..

من شجر الجولانِ الساخنِ

والصحراءْ..

هذي الليلةَ

يبدأُ إعصارُ الفقراءْ..

وربما لا ينافس كوكب حمزة، في شغفه هذا بالإبداع، فنان آخر مثل

سعدون جابر ورياض أحمد، وكاظم الساهر، لاحقاً بطبيعة الحال. لقد ارتفع هؤلاء الفنانون بفنهم الغنائي إلى مستويات رفيعة من الجدة والحميمية. لم يكونوا مجرد مغنين، أو مهارات أدائية، أو تقنيات غنائية شديدة الإحكام فحسب. بل ملتقى للتفاعل الحي بين مكونات الجمال وعناصر الابتكار في الأغنية، وما يكتنفها من بواعث الإبداع ومحفزاته. كان يحكم مسار هؤلاء الفنانين نسغٌ إنسانيٌّ بالغ الأصالة، يعيد الإبداع إلى حاضنة أخلاقية شديدة الرفعة والتمرد في آن.

ولا يغيب عن ذاكرتي ذلك اللقاء الفريد، في رحاب أبي العلاء، بين الشعر والأغنية، ونبل الصداقة. كنت في مدينة المعرّة، عام 2009 على ما أذكر، مشاركاً في مؤتمر عن أبي العلاء. أبلغنا المشرفون على المؤتمر أن هناك أمسية غنائية، تنتظرنا تلك الليلة، يحييها الفنان سعدون جابر. كان بعض أصدقائي من المشاركين على معرفة بالصداقة التي تجمعني به. ثلاثون عاماً من الغياب تقريباً، تفصل بين لقائنا اليوم وبين آخر لقاء بيننا في بغداد، قبل أن يدب في عروقها اليباس والوحشة.

كان الهواء الطلق مشوباً بالشجن العراقي الجميل. ولم يكن الحضور كله خالصاً للشعر والأدب والبحث الأكاديمي، بل كان هناك جزء مهم، يمثل الدولة والحزب. كان الفنان سعدون جابر، حين وصلته الورقة الصغيرة، في ذروة تألقه، وكان الناس في صميم انبهارهم بتجلياته العراقية. حدّق في الورقة، وفي الجهة التي أجلس فيها، ثم في اتجاه الحاضرين

بعناوينهم الرسمية. توقف عن حزنه، اعتذر بارتباك، وأشرقت روحه بفرح قديم. استعان باثنين من الشباب المحيطين به، ونزل من المسرح العالي. اتجه نحوي متلهفـًا، فاشتعل الهواء بالتصفيق والعناق والمحبة..

حين عاد إلى المسرح ثانية، حدثهم عن سر هذا الفرح كله، ثم عن قصيدتي «سيدة الفوضى» التي طالما تمنى أن يلحنها ويغنيها. كان ذلك المشهد جزءاً جميلاً من تألق سعدون جابر في تلك الليلة ومن سموّ روحه، وكان جزءاً من حديث الكثيرين عن صداقةٍ ظلت عصية على الغياب طوال تلك السنين، وقيمٍ لا تتكرر كثيراً، ربما، في أيامنا الراهنة.

(3)

عرّفني أستاذي، في متوسطة البتاويين، عبد الصاحب عطرة ذات يوم على مظفر النواب، فقد كانا صديقين ويقيمان في منطقة واحدة. ويبدو أن معرفتي بالنواب جاءت متأخرة، فاهتمامي بالقصيدة الشعبية، الذي لم يطل أكثر من سنتين تقريبـًا، أخذ يزاحمه وبعنفٍ تطلعٌ إلى الكتابة بالفصحى، وقراءاتٌ أدبيةٌ في اتجاه مغاير. غير أن لقاءاتي بمظفر النواب، ويا لها من مفارقة، كانت تقربني، دون أن أدري، من جوهر الشعر، بغض النظر عن لغته. أحسست أن لغتي العربية هي وقودي القابل للاشتعال في أية لحظة، وكانت الكتابة أو الحديث بها مبعث حلم لذيذ لا يفارقني.

وهكذا لم تدم علاقتي بالنَّواب إلا فترة قصيرة، كانت مليئة بحضوره

الشعري والإنساني المؤثر. كنت ألتقيه مع مجموعة من طلابه، في نفس عمري تقريباً. وذات شتاء كئيب اختفى النواب عن حياتنا فجأة. حدث ذلك عام 1963 بعد انقلاب دموي عنيف.

وفي المدرسة ذاتها، أخذ بيدي الأستاذ سعد الناصري، في الاتجاه إلى القصيدة العربية بثقة أكبر، في لحظة استثنائية لم أنسها طوال حياتي. فاجأني ذات صباح:

لماذا لا تكتب القصيدة الفصيحة؟

كانت تربطني به علاقة مميزة فقد كنت من أفضل طلابه في درس اللغة العربية بمتوسطة البتاويين. فاجأتني نبرة السؤال أكثر من السؤال ذاته. أحسست أن فيه من الحزن قدر ما فيه من الإشفاق، وكأنني كنت أضيّع وقتي في عمل لا طائل من ورائه.

وبعد أن علم، في ذلك اليوم، أن لي محاولات في كتابة القصيدة العمودية أيضاً، طلب مني اقتناء نسخة من كتاب «ميزان الذهب» ثم أخذ يعلمني بعض البحور الشعرية، وطريقة تقطيعها. وهكذا كان الأستاذ سعد الناصري يختصر عليّ الطريق من أجل قصيدة خالية من العثرات العروضية. كان اسمه، وما يزال، من أجمل ما تختزنه الذاكرة.

أخذت قصائدي العمودية وقصائد التفعيلة لاحقاً تجد طريقها إلى الصَحف العراقية. مثل الأنباء الجديدة، التي كان يشرف على صفحتها الأدبية القاص عبد الرحمن مجيد الربيعي. وجريدة المنار التي كان الشاعر خالد الحلي مشرفاً على الصفحة الأدبية فيها. ثم بدأت النشر،

بعد ذلك، في أكثر من مجلة عربية وعراقية، وأنا ما أزال طالبـاً في المرحلة المتوسطة والثانوية: مثل: الأقلام، العاملون في النفط، ألف باء، الأديب البيروتية، الشعر المصرية. كنت مشحوناً بما يكفي من الحلم والتوتر والرغبات، وكنت أبحث بإلحاح عن شكل شعري لائق بهذا الاحتدام الداخلي.

(4)

لم يكن تعرفي على جبرا إبراهيم جبرا حدثاً عادياً. بل نافذة تطلّ على أحلام كثيرة، بعد أن أثارت انتباهه قصيدتي التي نشرها لي في «العاملون في النفط». كان ذا شخصية آسرة، شجعني كثيراً، وكانت كتاباته النقدية والروائية وترجماته عن الإنكليزية، وما تزال، تحتل في نفسي مكانةً خاصة.

كان اكتشافي عالم أدونيس الشعري، في منتصف الستينات، بداية تحول حقيقي في فهمي للشعر. مصادفة حاسمة دفعتني إلى هذه المتاهة اليانعة: فضولي الشديد وحاجة أحد أصدقائي للمال. حصلت على مجموعتيه الكبيرتين «المسرح والمرايا» و«كتاب التحولات»، وهما من أفضل أعماله الشعرية في تلك المرحلة، من صديق لي اسمه سلمان السعدي، كان يكتب قصيدة النثر ويعمل مدرساً في مدينة كركوك، وكان، حين باعني مجموعتَيْ أدونيس، يمرُّ بنوبة من نوبات إفلاسه المتكررة.

القصيدة الأولى

(1)

استيقظت صبيحة يوم من أيام أيلول 2019، وكنت حينها في مدينة بولو التركية. تصفحت جهاز الموبايل، وإذا بصديقي الشاعر عبد الرزاق الربيعي، هذا الطفل المرح الودود، ينتشلني من بقايا النوم، ويبلغني تهنئة فيها الكثير من الفرح ونقاء السريرة: «مبارك حصولك على جائزة العويس في حقل الشعر». كانت لحظةً وجدانيةً عميقة، فالقصيدة لم تذهب إلى المتاه إذاً. ربما كنت قد توهمت ذلك في لحظة من لحظات الضجر أوالإحساس باللاجدوى.. أما في ذلك الصباح فقد تبين لي أن هناك من كان ينتظر مرورها في اللحظة المناسبة. ومن بداهة القول إن جوائز الكون كلها لا تصنع شاعراً حقيقياً. وكنت أميز دائماً بين قصيدة الجائزة وجائزة القصيدة، بين قصيدةٍ تكتب، في مسعىً مدروسٍ وماكر ربما، للحصول على جائزةٍ ما، وجائزةٍ تأتي تتويجاً لعمر شعريّ حافل بالابتكار والسهر والألم النبيل.

أشارت لجنة التحكيم، في تبريرها فوزي بالجائزة، إلى ما قدمته من نصوصٍ «حافلةٍ بأسئلةٍ إنسانيةٍ كبرى، وحالاتٍ شعريةٍ متنوعة، صاغها في لغةٍ مقتصدةٍ مكثفة، مستلهماً ذاكرة الطفولة والقرية، وأساطيرَ بلاد

الرافدين، وتفاصيلَ الحياة اليومية». وفي التفاتة حميمة إلى عمرشعري محفوف بالتعب والإصرار، مضى المحكمون إلى القول: كان له دورٌ متواصلٌ في تجديد القصيدة العربية، والتنويع في بنيتها وأغراضها، فأضاف طاقاتٍ بلاغيةً وإيقاعيةً أسهمت في إثراء مخيلتنا الجمعية، وحققت قدراً عاليًا من الإدهاش الجماليّ.

(2)

نقلتني هذه اللحظة الفريدة إلى نصف قرن من القلق المشوب بالصبر والمتعة والترقب. وقفتُ، متريثًا، لبضع ثوانٍ، قبل أن أطرق الباب. كانت لحظة استثنائية، تندُّ عن إيقاع أيامي المألوفة. ثمة مزيج من الأحاسيس، يكاد يتعالى على الوصف، أمام مكتب مجلة «العاملون في النفط». كنت أعرف أنها تصدر بإشراف الروائي والمثقف الكبير جبرا إبراهيم جبرا. حين فتح الباب، كان أمامي سكرتير إدارة المجلة، أبو توفيق، وهو كهلٌ شديد التهذيب. وكان ذلك في عام 1964، وكنت في الرابع الإعدادي.

هل يمكن لأحد منّا أن ينسى قصيدته الأولى؟ أعني ذلك الاشتباك الأوّل بين جسده وروحه، بين اكتظاظه بالمعاني والأهواء وعجزه عن البوَح. هل يمكن لنا أن نكفّ، ذات يوم، عن تذكّر تلك القصيدة التي أشاعت فينا، لأوّل مرة، رعدة داخليّة، سال لها عرق قلوبنا وارتعدت أوصالنا من هول لذتها الغامضة؟ كيف يمكن للنسيان أن يقف بيننا وبين

تلك الذكرى البعيدة المثيرة للحواس؟ إنّها موعدنا الأوّل مع اللغة وأتون الانفعالات. وهي قدرنا المحتوم الذي قادنا، صدفة، زبّما، إلى حافّة تلك البئر الفوّاحة بالظلام الصافي.

ولا أظنّ أنّ شاعراً ما يمكنه أن يتذكر قصيدته الأولى تماماً. لكنّه يتذكّرها مغوشة تارةً ومحددة الملامح تارة أخرى: تعطّر ذاكرته، وتوقظ في عالمه نكهة غريبة تشبه، إلى حدّ كبير، رائحة مرعىً مغسول، أو امرأة تسلم جسدها لأمطار النوم. رائحة ليس من السهل تحديدها، لكنّها تقع، هناك، في منطقة ما بين المخيّلة والذاكِرة.

(3)

في فترة من أعمارنا، تتفتّح حواسّنا على الحياة فجأة. ندرك حينها أنّنا ننزلق، مسرعين، إلى حافّة بئر مغوية لا قرار لها. وفي فترة كهذه كنت أحسّ أنّ جسدي يقتادني إلى جنونه الخاص، ذلك الجنون الحسيّ العارم الذي لا لؤم فيه. وهكذا ترتطم هذه الحواس ببعضها بعضاً، وتستيقظ، في مكان ما، قطعان متعطشةً إلى الضوء.

أيّ جَيَشان محتدم هذا؟ لقد كانت حاجتي الأولى للتعبير ولذة البوح تزداد وعورة يوماً بعد آخر. وكعادة الكثيرين ممن تسكرهم أيّام الصبا وحماقاته العذبة، اندفعتُ باحثاً عن نافذةٍ ما تنقذني من تلك الفورة

الجسدية والروحية. نافذة أهرَبُ، من خلالها، ممّا أنا فيه من تخبّط الحواس، ونداءاتها المتضاربة أو العصيّة على الفهم أحياناً.

كنت قد أرسلت القصيدة مع جارٍ لي، كان يعمل سائقاً في شركة نفط العراق، حيث تصدر المجلة من دائرة العلاقات العامة فيها. ما زلت أذكر تلك اللحظة من ذلك اليوم الخريفيّ الخاص من عام 1964 حين ذهبت إلى إدارة المجلة، واقتنيت نسخة من عددها الجديد ولم أكن أعرف أن قصيدتي منشورة في ذلك العدد.

لم تكن قصيدتي الأولى هي الأولى حقّاً؛ فهناك انكسارات كثيرة سبقتها، ومهّدت الطريق لأصواتها أو تمتماتها المبكرة: أشلاء من المعاني والانفعالات، مسوّداتٌ لم تكتمل، محاولات للاقتراب من الشرر. وقبل الوصول إلى القصيدة الأولى كان تخبّطي يصل أقصى مدياته: كان هناك رعدٌ داخليّ خاصّ يوقظ تلك السيول المؤجلة، ويدفع بها إلى الصعود حتى فضاء التعبير. وفي هذا الفضاء الجديد سترتبك أشياء كثيرة كانت راسخة ومطمئنة: الكائنات، الأحلام، الذكريات، المعاني، ومفردات اللغة.

يخيّل لي أنني، في بداياتي المبكرة، كنت مثل من يهرع من نافذة إلى أخرى ملوّحاً لأيّ شيءٍ عابر: غيمة كان أو جنازة أو امرأة، لألفت انتباه العالم كلّه إلى هذه المعركة المريرة التي لا يراها أحد سواي، إلى هذه الفوضى المحيّرة من المعاني، والانفعالات والكوابيس. وكم كان فرحي

عظيماً حين كانت القصيدة العاميّة طريقي الأوّل إلى البوح ذات يوم، وأنا ما أزال على مقاعد الدراسة في الصف السادس الابتدائيّ، لكنّني أحسست بعد فترة قصيرة أن ما أحاول التعبير عنه آنذاك كان أشد وعورة من أن تحتمله لهجتي العاميّة. وهكذا كانت الريح تدفعني بعيداً: إلى الجانب الآخر من نهر اللغة تماماً.

(4)

حين بعثت بقصيدتي الأولى إلى مجلة «العاملون في النفط» لم يكن يخطر ببالي أبداً أنها ستُنشر وبهذه السرعة. كانت المجلّة، على خلاف اسمها تماماً، تفتح صفحاتها لشعراء الحداثة من الشباب، كان هناك سركون بولص، فوزي كريم، حميد سعيد، عبد الرحمن مجيد الربيعي، خالد علي مصطفى، صلاح فائق، خالد الحلي، وآخرون. وكان يشرف عليها مثقّف ومبدع لامع، ذو شخصية شديدة التأثير.

غادرت المبنى الفخم، وأخذت في تصفح المجلة وأنا أعبر جسر الجمهورية، الواصل بين إدارة المجلة وساحة التحرير. اكتشفت، وأنا في منتصف الجسر، أن قصيدتي كانت أول قصيدة فيها، مع أن العدد نفسه كان يضمّ مجموعة من الشعراء الذين كان العمر الشعريّ لبعضهم يفوق عمري الزمني. كان هناك، مثلاً، إبراهيم الزبيدي وراضي مهدي السعيد.

عدت إلى إدارة المجلة ثانية. كانت لحظة وجدانية نادرة، ومنعطفاً مغايراً لمسار أيامي المألوفة. تريثت لثوان معدودات قبل أن أطرق الباب. كنت في خضمّ مزيج من الأحاسيس يكاد يتعالى على الوصف. حين عرف مدير إدارة المجلة أن لي قصيدة في العدد الجديد، أعطاني أربعة نسخ أخرى، ومبلغ خمسة دنانير كمكافأة..

في الطريق إلى مدرستي، وكان دوامها ظهراً، أحسست أن بغداد تتدافع من حولي لترى قصيدتي الأولى، مطبوعة على ذلك الورق الفاخر الصقيل. بغداد كلّها: غيومها وفتياتها الجميلات، نخيلها العالي وأزقّتها المتربة. كنت أتخيّل أن الكثيرين كانوا يتأمّلون عنوان قصيدتي «إلى صديقةٍ مسافرة» الذي كتب باللون الأخضر، بينما خُطّ اسمي بلونٍ آخر، وقد كان كلاهما مكتوباً بخط الرقعة الجميل.

كان جسر الجمهوريّة، الذي يربط بين جانبي الكرخ والرصافة، يغصّ بالعابرين إلى الجهتين. كان الكلّ يشير إليّ: هذا هو علي جعفر العلاق. هكذا كانت مخيّلتي، في ذروة غليانها، في تلك اللحظة. لم أكن ساعتها أظنّ أن حدثاً آخر يمكن أن يشغل سكّان بغداد، أو نساءها بشكلٍ خاصّ، أكثر من قصيدتي تلك. كنت أتخيل النهر، وهو يفتح مراياه المائيّة لتفاصيل كثيرة لعلّ أبرزها: الجسر ونخيل الضفاف، وما تركته فيَّ قصيدتي من بهجة تصل حد الغرور تقريباً. ومن أبياتها:

علّمْتِني غزْلَ اللظى، ليتني　　　لم يهفُ نحو الحسنِ لي قلبُ

قيثارتي للنار أرجوحةٌ لم ينفلتْ منها صدىً عذْبُ
إسملكِ جرفٌ لاحتشادِ النديى أبدعَ، في تلوينه، الرَّبُّ
في كلّ نجمٍ، من حكاياتنا، مجمرةٌ، هوجاءُ، لم تخْبُ

(5)

في إعدادية النضال، في منطقة السنك، حيث أدرس، كان لقصيدتي حديث آخر وأصداء مختلفة. دخل إلى الصف أستاذ اللغة العربية أحمد نصيف الجنابي، الذي جمعتني به لاحقاً صداقة طيبة وزمالة أكاديمية، وكانت دروسه من أقرب المقررات إلى نفسي لأنها مجال تميزي بين طلاب الصف الرابع، وغالباً ما كنت أستعير منه الكتب الأدبية، والمترجم منها بشكل خاص. كانت القاعة في وضع لا يبدو طبيعياً: الطلاب غير منتظمين في جلوسهم. كانوا منقسمين إلى مجموعات. كل مجموعة تتزاحم على نسخة من مجلة العاملون في النفط حتى أن معظم الطلبة لم ينتبه لدخول الأستاذ.

حين أبدى استغرابه مما يجري، على خلاف عادتنا في الأيام الماضية، هب الكثير من الطلاب يطلبون من الأستاذ، بحماسة واضحة، أن يكون درسهم لذلك اليوم احتفاء بزميلهم، باعتباره شاعر الصف. حينما علم الأستاذ الجنابي بأن قصيدتي المنشورة في المجلة هي السبب في هذه الجلبة التي لم يعتدها سابقاً، تناول المجلة وقرأ القصيدة باهتمام، ثم طلب مني قراءتها على زملائي. كنت أدرك، كما أدرك الأستاذ أحمد

نصيف الجنابي لحظتها، أن أكثر الطلاب كانوا يريدون الاحتفاء بالقصيدة وكاتبها هرباً من درس النحو، لا حباً بالقصيدة أو كاتبها.

ومع أنّ قصيدتي تلك كانت عموديّة، إلا أنني كنت فيها، وفي سواها بشكل أوضح، كمن يحاول أن يشقّ مساراً لم تألفه لغة هذا النمط من القصائد ولا بناؤها البلاغي. أحاول أن أدفع بلغتي إلى أقصى حالات التطرّف حتى تفارق مرجعيّتها الواقعيّة أحياناً. وكانت قصائدي العمودية بشكل عام تنحو، حدّ الالتباس ربّما، منحىً يعتمد الصور والاستعارات التي تتسم بالغرابة.

وكأيّ شابٍ يرى، لأول مرة، ثمرة صراعه مع لغته وأخيلته وعواطفه، كنت مرتبكاً حدّ الفرح. ومع ذلك، وفي الوقت ذاته تماماً، كنت أحسّ بالرهبة أيضاً: لأنّ سؤالاً جارحاً كان يشوّش عليّ فرحتي تلك: ماذا سأكتب بعد قصيدتي هذه؟ ومع أن القصيدة كانت خياري الأول طوال حياتي، فإن نشاطاً آخر كان يصاحبها في الغالب: كتابة المقالة النقدية، أو المقالة الأدبية.

الديوان الأول

(1)

أخبرني الصديق الروائي إسماعيل فهد إسماعيل، وكان في زيارة قصيرة لبغداد عام 1971 على ما أذكر، إنه سيذهب إلى بيروت بعد أسبوع. كان لديّ مجموعة من القصائد المنشورة في عدد من الجرائد والمجلات العراقية، كتبتها في الفترة 1969-1971. وكنت قد جمعتها، مع زميلة عزيزة عليّ، كانت، وما تزال، مولعة بشعري. تأخرت المجموعة عند دار العودة، أكثر من سنتين تقريباً، قبل أن تظهر، عام 1973 في طبعة تفتقر إلى الدقة.

بعد فترة قصيرة من اتصالي به، فاجأني الفنان ضياء العزاوي بلوحة جميلة لغلاف المجموعة. فرحت بلوحته كثيراً، مساحة ذهبية كأنها حقل من حنطة يدنو من حصاده الأخير. في الجزء الأسفل من اللوحة، عناق بين مساحات لونية عديدة تتفاوت في انتظامها وسعتها، وتتشكل من الأخضر، والأحمر، والأبيض، والأسود بطريقة لافتة. وكان هناك خط أسود يخترق المساحة الذهبية عمودياً حتي حافتها العليا، وعلى يمينه وردة حمراء.

شارك في غلاف مجموعتي الأولى، أربعة من أجمل الأصدقاء وأكثرهم رهافة: اللوحة للفنان ضياء العزاوي. وتصمم الغلاف وخط العنوان للشاعر صادق الصائغ، وقام الشاعر محمد سعيد الصكار بخط

عناوين القصائد بطريقته الرشيقة. أما الغلاف الخلفي فقد حمل مقطعاً جميلاً وشديد الدلالة من كلمة للشاعر فوزي كريم.

وصلتني حصتي من النسخ إلى بغداد. وكان فرحي بها كبيراً. ردة فعل طبيعية، وشديدة الصدق لكل من يرى مشاعره وتخيلاته وأوهامه تتنفس على الورق. بعد ساعات لم يكن المولود معافى تماما. لم تذكر دار النشر اسم الفنان ضياء العزاوي رساماً للوحة، ولا الشاعر صادق الصائغ مصمماً للغلاف. وهكذا تبدد الكثير من حرارة الفرح الأول. وقد انعكس ذلك على لقائي صاحب دار العودة، لقاء شديد الفتور، حين التقيته في بيروت 1973.

وحين أقدمت على إرسال مجموعتي تلك للنشر، كان الشاعر وديوانه الأول ينصهران في فاعلية شعرية أولى، أو كأنهما كذلك، يبنيان الضفة الأولى لنهر الكلام، الذي سيتضاعف، ويتعقد، وترتفع مناسيبه، مجموعة بعد أخرى. وبين مجموعته الأولى والأخيرة يمتد خيط الكلام امتداد عمر الشاعر، الذي يمسك بطرف هذا الخيط ليقيس به نبض الماء تارة وانفعال الموج تارة أخرى.

قد تكون المجموعة الأولى مأزقاً للشاعر إذا لم يكن لديه ما يقوله بعدها. وقد لا تكون أكثر من صيحة لا تعني شيئاً، لكنها تضاف إلى حقل من الضجيج المتشابه. وربما تشكل خميرةً لمصيرٍ شعريّ مثير للانتباه إذا أَحسن الشاعر استثمارها. أي أن هناك مآلاتٍ ثلاثة، تتوقف جميعاً تقريباً على موهبة الشاعر، وثقافته.

(2)

ربما بدت مجموعة «لا شيء يحدث.. لا أحد يجيء»، وكأنها محاولةٌ للتعامل، بطريقةٍ خاصة، مع اللغة والصورة والايقاع. أو مغامرة دفعت بي إلى الظن، واهمًا أو عن ثقة مشكوك فيها، أن باستطاعتي أن أربك إيقاع الموج، أو أترك بعض الخدوش على هذه الأعمدة الشعرية الثلاثة من أعمدة القصيدة المتعارف عليها: اللغة، الصورة، والإيقاع..

لم يكن تعاملي مع هذه الأعمدة الشعرية ناتجًا عن جرأة مجردة على اللغة، أو استخفاف بالإيقاع الشعري. ولم يكن أيضاً مبالغة في تقدير الصورة الشعرية في حد ذاتها. بل كان وليد رغبة مشوبة بقدر لا بأس به من الوعي الغائم أحيانًا. تمكنت مني، منذ البداية، رغبةٌ ملحّةٌ في أن أكون مختلفًا عن جيلي.

كانت اللغة شاغلي الأول في تلك المجموعة، حتى أنني كنت أبالغ أحيانًا في العناية بها، وتنقيتها من حَسَكِ الطريق وما يتساقط من ثياب المارة. ولأنني شديد النفور من الثرثرة الشعرية والتعبير المطوّل، حدّ التخمة، عن معنىً ما، كنت أتمادى في العمل أحيانًا على أن يكون النصّ الذي أكتبه موجزاً أو خاليًا إلى أقصى حد ممكن، من النتوءات والاستطالات والباروكات اللغوية الفائضة عن الحاجة. كنت كمن يسعى إلى قصيدة ملمومة، مكتفية بذاتها، توميء اكثر مما تتحدث، وتُحَسُّ أكثر مما تُفَهم. وكان المعنى لا يسلم من الأذى دائمًا نتيجة هذه النزعة إلى

التضييق والايجاز.

أما ولعي بالصورة فكاد أن يصل حد الهوس. وحتى هذه اللحظة لا أجد مبتغاي في القصيدة التي تهرول إلى معناها مباشرة، دون جهدٍ يضبّب المعنى ويخفف من ملامحه الحادة. كنت أعتقد أن القصيدة لا تدل على نفسها إلاّ من خلال عناية فنية لا تكتم أنفاس النص، ولا تقوده إلى مصير قسري يفرضه الشاعر. وقد أشار فوزي كريم، في كلمته الملحقة بالديوان، إلى هذا المنحى حين قال إن «العلاق مولد صور بارع، لا يلتفت إلى الآخرين، بل يعيد الصياغة لتكون اللغةُ أكثر براءةً وأشدّ بدائية». وكثيرة هي الأمثلة على غرابة الصورة:

- رحيلكِ طيرٌ من القشِّ يقتادُني
صوبَ أرضِ البكاءْ..
- بكائيَ شيخٌ من الحبرِ
في جبهتي يستريحُ..

أو عبثيتها أحيانـًا:

- يختبيءُ الحنينُ تحت جفنيْ
جزيرةً من جثث النعاسْ
- أمدُّ كفّيْ نافضـًا عن صوتكِ الماءَ
وعن شفاهكِ الأجراسْ..

ولم تكن تخلو حتى تجاربي في القصيدة العمودية من هذه المغالاة:

- حقائبي حطبٌ يبكي، وحنجرتي
سفينةٌ شبَّ في أعشابها الصدأُ..

وكان افتتاني بالإيقاع خصلة شعرية مشتركة في معظم ما كتبت من قصائد في تلك الفترة المبكرة:

- وزِّعْ لغة الصبر علينا
جرِّبْ لُغةَ البكّائينْ،
الليلُ شبابيكٌ تهذي،
وعصافيرُ الفرحةِ طينْ..

(3)

شهدت تلك المجموعة تطلّعاتي الأولى إلى استثمار التناص والإيماءات التراثية، وتقنية القناع. كنت أمضي، ذات يوم، إلى مفترق شديد الوعورة. طريق لا أتبين ملامحها بوضوح كاف. تخيلت نفسي وقد صادفني فجأة في ذلك المفترق أحد أصدقائي من الشعراء القدامى. كان بالغ اللوعة، ويكبرني كثيراً، وليس له غير قصيدة واحدة. أحسست أن دموعنا متشابهة وأننا نتشظى في مكان يتعرض إلى ريح هوجاء. بعد أن ودعته ومضى بعيداً، وجدت بين يديّ قصيدة: تخطيطات في دفاتر أبن زريق البغدادي. مازجاً في ثناياها بين سيرة الذات ومحنة شاعر القصيدة الواحدة. كان نهر الغراف ومدينة راوة يتماوجان متضافرين، في الخيال

والذاكرة، ليصنعا اندفاعي إلى سنوات النشوة الأولى دون مكرٍ أو حيطة:

وسادةٌ وجهي، وغُصنُ ماءْ
أحمِلُ في نُعاسِهِ وجوهَكم، يا شجَرَ الكَرْخِ،
وأنسى أنَّ لي من عُمْرِكم عامينْ
تركتُ فيهما يَدَيَّ، عمْريَ المبتلَّ،
جئتُ، دونما عينَينْ..

وفي المجموعة أيضاً قناع آخر. عبد الله الفاضل، ذلك الشاعر البدوي العاشق، الذي تركه قومه وحيداً ينهشه الحنين والجدريّ. وظلّ يرافقني دائماً نزوع لا يفتر إلى التعبير بالصور الصادمة أو الشغف بالإيقاع والتناص والأقنعة. وقد عدت، في ديوان، «وطن لطيور الماء»، إلى معالجة هذه القصيدة في توظيف أوسع لقناع ابن زريق البغدادي. وكانت قصيدتي الطويلة «المشي بين أرضين» ميداناً لهذه العودة..

كان ميلي إلى الإيقاع جزءاً من توجّهٍ كنت أحاول ترسيخه في ما أكتب من نصوص. كنت أرى أن الإيقاع كان وسيظل، ولكن بدوافع جماليةٍ ودلاليةٍ جديدة، مكوناً شعرياً مُهمّاً إذا أحسن الشاعر الكشفَ عن إمكاناته. ولا أعني بالإيقاع، هنا، مَدَيات البيت الشعريّ الموروث، الجاهز، أو المعدّ سلفاً، فقط، بل ما في اللغة ذاتها من فيضٍ كامنٍ من الليونة والتموج والحوار بين المكونات. كنت أحاول، في هذه

المجموعة، عرقلةَ بعض الأوزان الشعرية وتهدئة لهاثها المتسارع. ولم أكن أبالي أحياناً حتى بارتكاب بعض الوقفات الوزنية من أجل تحقيق هذا الغرض.

(4)

دخلتُ بمجموعتي الأولى تلك، إلى مشهدٍ شعريٍّ صاخب، دخولَ اليتيم الذاهل، إلى سوق يضج بالباعة الفرحين بما لديهم. قبائل أيدلوجية تتصايح على بعضها. وتعرض بضاعتها بإغراءات مدروسة بعناية. كان هناك شعراء موهوبون حقاً، وشعراء أقلّ موهبة لكنهم أكثر ذكاءً. أما البعض الآخر، وهم كثرٌ على أيّة حال، فشعراء دفعتهم إلى الواجهة رافعاتٌ نقديةٌ مؤدلجةٌ، تحتفي باليقين الماركسيّ أو القوميّ الذي لا سند واقعياً يؤيده. ومن تلك الرافعات النقدية أيضاً ما يقصر مهمته على استخلاص المعنى أياً كان موضوع القصيدة وأياً كان منحاها التعبيري..

ومع أنني لم أجد، في بغداد، مثلاً، إلاّ تغطياتٍ صحفيةً عابرة لهذه المجموعة، لم يتملكني شعور المحبط، بل أحساس المجروح في اعتداده بذاته. وفي الوقت الذي لم تجد القبائل الأيدلوجية ضالتها السياسية أو الفكرية في مجموعة تنتمي إلى نبرتها الفردية بقوة، كان الروائي المغربي محمد شكري يحتفي بها، في جريدة المحرر المغربية، بحماسة استثنائية:

«صادمةٌ جِدّةُ هذا الشعر».

يمكنني القول ربما إنها كانت تمريناً شعرياً جريئاً، أمدّني بالكثير من الافتتان الطفوليّ باللغة والإيقاع. وكان فيها من الصور ما يندرج في غرابة تعبيرية أجدها، آنذاك، عامرةً بالترف اللغويّ والذهاب إلى المعنى بطرق شديدة التخفّي. غير أن خصوصيتها اللغوية واجتهاداتها الإيقاعية والبلاغية لم تظهر إلاّ لاحقاً في ضوء ما تبلور من مقاربات نقدية تحتفي بشعرية النصّ بطريقة جديدة.

من جيل الستينات ولستُ منه

(1)

بعد رحيل الشاعر الكبير حسب الشيخ جعفر في الحادي عشر من نيسان 2022، بيومين، كنت مع الصديق الناقد فاضل ثامر على القناة العراقية في حوارٍ أداره د. سعدون ضمد. نستعيد بحزن وإكبار مسيرة هذا الشاعر الكبير الذي كان، وسيظل، مثاراً للكثير من الجدل والاجتهادات. أشرت، خلال الحوار، إلى حقيقة مهمة ميزت حياته وتجربته الفريدة، وتصلح مدخلاً للحديث كذلك عن جيله الحافل بالإثارة والفوضى: كان حسب الشيخ جعفر أقل شعراء الستينات هذياناً وصخباً، مع أنه كان أكثرهم تجديداً.

ومنذ بداياته، ورغم صوته الخفيض، كان حسب الشيخ جعفر صاحب اقتراحات شعرية جذرية. وعلى العكس من معظم شعراء الستينات، كان يتمتع بأفق جمالي واسع: ذاكرة يقظة ومخيلة بالغة الثراء. لكن هذا الشاعر الفذ، على خطورة تجربته الشعرية، كان بعيداً عن فن العلاقات الشخصية وتسويق النفس. وهي خصلة ظلت متأصلة فيه، وتسير في اتجاه مضاد لشعراء ذلك الجيل، الذي عانى بعضهم من تضخم الذات، وارتقت ببعضهم الآخر رافعات حزبية، أو شللية، أو أيدلوجية.

(2)

في تلك الفترة، كانت ريحٌ ما، خجولة وهادئة، تدفع بشراعي الوحيد في عمق النهر، دون أن ألتفت إلى اليابسة التي كانت تعج بالضجيج. كان ثمة شعراء موهوبون حقّا، وآخرون يعتاشون على موهبة متواضعة، وبعض ثالث لا موهبة لديه. ويمكنني القول إنني التحقت بهذا الجيلِ متأخراً إلى حد ما.

كثيراً ما كررت القول إنني كنت من جيل الستينات، ولم أكن منه في اللحظة نفسها. كنت أنمو بعيداً عنه ولكنني في المناخ ذاته، أحاول كتابة قصيدتي بطريقتي الخاصة، خالصاً مما شاب سلوك بعض الستينيين أو نصوصهم من ادعاءات يحاولون بها تغطية ما تشتمل عليه نصوصهم من قصور في اللغة أو الموهبة.

جئت بعُدّة لا تفتقر إلى الكثير، لتكون موضع عناية النقد السائد آنذاك، لكنها لم تحظ ربما بما يكفي من مباركة الشلليات المساندة. قدمت نماذج شعرية لافتة سواء على مستوى النص العموديّ، في بداياتي، أو قصيدة التفعيلة منذ مجموعتي الأولى: كالكتابة بلغة شديدة التركيز، المزج بين البحور الشعرية، المراوحة بين أكثر من شكل شعري ضمن البحر الواحد، كتابة القصيدة السردية، توظيف التراث كأقنعة، ورموز، وإيماءات تناصّيّة. غير أن المشكلة لم تكن تتعلق بقصائدي، بل كانت، كما أرى، تقع في مكان آخر. كان معظم نقاد تلك المرحلة موزعين على قبائل سياسية وإيدلوجية متطاحنة.

(3)

كنت أنمو، شعرياً في بقعةٍ محاذيةٍ لجيل الستينات. وحين أنظر إلى السبب في ذلك، ربما لا أجد له تفسيراً إلا في أمرين؛ أولهما: أنني كنت أسعى في بداياتي، وبهوس أحياناً، إلى كتابة قصيدةٍ في إطار الوزن العمودي لكنها مختلفة، بل مشاكسةٌ لما هو مألوف حتى داخل النمط العمودي نفسه: محاولة للإفلات من العروض إلى اللغة ومن الذهن إلى المخيلة. أعني من صلابة الوزن وجفاف المنطق إلى ليونة المجاز وانديا‌حه. وقد أحسست أن تجارب شعريةً كالتي كنت أكتبها لا تجد الإصغاء الذي تستحقه في ذلك الهرج الستيني الصاخب، الذي يستند في الكثير من مكوناته إلى الإعراض، حقاً أو باطلاً، عن كل ما يمت بصلة إلى الموروث الشعري.

أما الأمر الثاني فيتعلق بتكويني الشخصي؛ إذ نشأت على كراهةٍ لكل ما يفتقر إلى الكياسة. كان غبار الشلليات يملأ حيزاً غير قليل من المشهد الستيني. وكان نفوري شديداً منها ومما كان يعلق بسلوك بعض الستينيين من ادعاءات. بعضهم كان موهوباً موهبة حقيقية. لا جدال في ذلك. غير أن البعض الآخر كان ممن اندفع مع التيار دون أن يتمتع بوعي أو موهبة أو ثقافة حقيقية:

من سأدعو إلى جلستي؟
من يشاركُني خضرةَ الروح أو مطرَ المائدةْ؟
لا نبيذي نبيذُهـمُ، لا هـواهـمْ هـوايَ،
ولا تلكمُ الغيمةُ الصاعدةْ
تستثيرُ طفولتَهم..
شجرٌ خاملٌ وأرائِكُ من خشبٍ ونفاقٍ قديمينِ..
يا ورقَ الضوءِ، يا دفءَ غزلانهِ الشاردةْ
أين أصبحتُما؟

(4)

كنت أشتغل بهدوء، وعلى طريقتي الخاصة، بعيداً عن الضجيج والادعاءات الكبيرة التي كانت ظاهرةً ستينية بامتياز. نشرت العديد من قصائدي ابتداء من 1963 في مجلة العاملون في النفط، والأديب البيروتية، والشعر المصرية، والأقلام العراقية، إضافة إلى الجرائد المحلية. ومع ذلك فإنَّ ترددي على مقاهي الشعراء الستينيين جاء متأخراً نسبياً.

يمكنني القول إنني دخلت إلى حفلة الجيل الستيني دخول اليتيم الذاهل، كما قلت في مكان آخر. كان الحفل بهيجاً لكنه مبعثر وعديم التجانس. وكانت مجلة الشعر 69 أهم محاور ذلك الحفل، والمثال الواضح على عدم تناغمه. فلم تواصل تلك المجلة الطليعية صدورها

أكثر من بضعة أعداد. لقد ضاقت بها، الذهنية الرسمية، والذائقة التقليدية على حد سواء. مع أن مقتلها الأشد، فيما أرى، كان يكمن في مكان آخر. في تسرّب جزء من عقيدة الدولة وتصلبها إلى بنية المجلة، ومساراتها الرؤيوية والفكرية. صحيح أن بيانها الشعري، الذي استهلت به عددها الأول، كان مثار نقمة الكثيرين من المحسوبين على التيار المحافظ في الشعر الأدب والحياة، إلا أن المجلة، بدت ملغومة من الداخل منذ عددها الأول، بل قبل أن تصدر ربما، وكأنّ وراءها عقليتين متناقضتين.

يتجه بيانها الشعري صوب أفق ليبرالي لا لبس فيه، بينما يدب في مفاصلها وفي تقاريرها المبثوثة في الضواحي نفس رقابي، تخالطه أحياناً نبرة عقائدية تتعارض كلياً مع منطلقات البيان الشعري وأوهامه. كان العدد الأول من المجلة شديد الحيوية، إلا أنه، مع ذلك، كان يحمل مؤشراً مقلقاً على نهاية حتمية. فلا يمكن لمغامرة حداثية في الشعر أو الحياة، أن تتم في هواء خانق؟ كان هناك إحساس لا يخفى أن الشاعرين فاضل العزاوي وسامي مهدي، نمطان مختلفان حد التضاد، في الوعي والسلوك، بل أكاد أقول إنهما كانا يبدوان، وكأنهما صديقان لدودان أكثر منهما ممثلين لرؤيا واحدة: شاعر ليبرالي، ذو مخيلة حداثية متطرفة حد السريالية أحياناً، وآخر يقبل من حاضنة أيدلوجية راسخة، ولا يذهب، في التحديث الشعري بعيداً عن ثوابته الفكرية. وهكذا ما كان يمكن لتجاورهما القلق، وفي مشروع شعري حداثي كهذا، إلا أن يقود إلى

النهاية المتوقعة. وهذا ما حدث فعلاً. بضعة أعداد جريئة، وانتهت مجلة الشعر 69. وتفرقت السبل بالقصيدة العراقية، ومآلاتٍ ومنجزاتٍ وأسماء.

لم أكن وحيداً في ذلك العراء. بل كان معي مجموعة من الحالمين بالقصيدة. بعضنا كان يقف متهيباً خارج المشهد الستيني. ولفارق نسبي في العمر، أو افتقار إلى كفاءات غير شعرية ربما، لم نكن ننتمي بقوة إلى التجمع الرئيسي: كنا أصواتاً خافتة النبرة، وأرواحاً عارية من ألاعيب السياسة ومكرها الضروري، فلا عذابات السجن ولا خبرة التنظيم ولا الافتتان بالذات. وهكذا كانت مجموعاتنا الشعرية الأولى تجسيداً لوضعنا الفردي ذاك وما كنا نصبو إليه من أفق نحاول أن يكون مختلفاً. كنا بعيداً عن خطوط التماس إلى حد ما، أو على تماس خفيف مع شعرائه الأكثر وضوحاً. ثمة لاعبون أساسيون، كانوا يحتكرون، تقريباً، حركة المشهد الشعري آنذاك: فضاء المنتديات، دخان المقاهي، نوافذ الصحافة، وما يقع، خارج النصوص أحياناً من مخططات أو تحركات أو مشاريع.

(5)

هكذا كانت محاولاتنا الأولى، بينما كان النقد في معظمه يندفع بحمى الأيديولوجيات المتصارعة، محاولاً الإعلاء من «وظيفة» القصيدة أو

«دلالتها» أو «معناها» دون اعتبار، في الغالب، للجهد الجمالي والتركيبي الذي يرتفع بها إلى مستوى النص الشعري المحكم. كان على الشعر، أو أدب الحداثة عموماً، بالنسبة لهذا النقد أن يكون وظيفياً نفعياً طيّعاً. وكان عليه، أيضاً، أن لا يعوّل على أية قيمة ذاتية. بل يستمد تأثيره من أشياء تقع خارج النص: التبشير العقائدي والتحريض الاجتماعي.

لقد وجدنا أنفسنا، هكذا، في عراءٍ مديد، لا سند لنا إلا حزننا وقصائدنا. دونما منصب، أو ثروة، أو قبيلة باطشة. لذلك كله لم يكن لنيراننا الصافية أن تستدرج إليها قوافل النقاد المحترفين وكتبة المدائح النقدية، فهي نيرانٌ لا تخلف وراءها إلا الحبر الأخرس. وللنقاد، إذن، أن يتجهوا وجهة أخرى، لا تقودهم إلى الأيديولوجيا فقط، بل إلى ذلك الكمين اللامع أيضاً: الامتيازات والمداهنة والكذب المربح. إن مقالة أو كتابا، في المديح النقدي، قد يفضي إلى وجاهة أو موقع مرموق. وربما استطاع بعض هؤلاء النقاد، بفعل نفوذ من نوع ما، أن يؤثروا في تشكيل معايير القيم الأدبية وسلم المستويات، حيث يوزعون الصمت أو النسيان على شعراء بعينهم، ويعيدون بناء ذاكرة أخرى للنقد لا تحتضن إلا أسماء معينة، ولا تتسع إلا لقبائل من نمط خاص.

(6)

كثيرة هي الأصوات الشعرية الصافية التي كان نصيبها من النسيان كبيراً. أسماء كانت تسعى بشغف عميق لتأسيس منحى جمالي داخلي

يعتمد الرؤيا بديلاً عن الموضوع، والبوح عوضاً عن المباشرة. كانت قصائدنا تقيم في عراء مكشوف، لا مظلة حزبية، ولا شجرة كثيفة الظل. وبذلك ظلت أصواتنا خفيضة النبرة وهامسة في مناخ يختلط فيه الضجيج السياسي وفن التبشير بالذات، وثقافة الشلليات المتفشية كالأوبئة. وبدوافع مختلفة كان النقد التقليدي يضيّق من حرية القصيدة ويمعن في مطاردتها، لقد كان نقداً مهموماً بالهاجس الاجتماعي، بالوظيفة، أو الدور، أو المهمة. لا يستطيع الارتفاع إلى فضاء القصيدة أو الإمساك بمواطن الرهافة والجمال فيها. وهكذا غطيت الضجة على التأمل، والهتاف على الأنين. منذ بداياتي كان هناك ما يميز تجربتي الشعرية عن الكثير من جيل الستينات. لم تكن كتابة القصيدة هي محور اهتمامي الوحيد، مع أنها المحور الأهم. كان لي نشاط، في فضاء النثر، جاد ومتواصل، بلغ بي مفترق طريقين واضحين: الدراسة النقدية المعززة بالبراهين، والمقالة الأدبية التي تقارب النقد دون أن تفرط في ترفها الجمالي.

(7)

كنت، ضمن مجموعة من الشعراء الوجلين، أو المبرئين من المكر السياسي ولوثة الادعاءات. كنت أقف معهم على هامش المشهد الستيني، نراقب ما يحدث بكثير من طيبة القلب، وكراهة الشلليات

الحزبية، والاجتماعية، وما فيها من نفاق ومحاباة. وكان من الصعب تقريباً أن تجد بين ذلك الجيل شاعراً مبرأ، تماماً، من تجربة الانتماء لحزب ما. فقد كانوا، إلى هذا الحد أو ذاك، بين منتم، أو تائب، أو نادم، أو مثقل بالحنين إلى ماض سياسي لما يتحرر منه بعد.

3

مباهج السفر الأول

(1)

لفت انتباهي، وأنا أدخل صالة الاستقبال، أن معظم زبائن الفندق من النساء. وقفتُ أمام مديرة الفندق، وأنا في غاية الإجهاد، فقد مرت ثلاث ساعات وأنا أدور في شوارع دمشق وبين فنادقها المكتظة في ذلك الصيف اللاهب. كان ذلك في عام 1973 وكانت الحدود مغلقة بين لبنان وسوريا في تلك الفترة، مما ضاعف من ازدحام دمشق بالسواح بشكل استثنائي. أنوء بسحب حقيبة ثقيلة بحثاً عن مكان أمضي ليلتي فيه. أرادت المديرة مساعدتي فتركتني أبحث عن سرير مناسب في سطح الفندق، فالعثور على غرفة في مثل هذا الموسم، في دمشق، أمر يشبه المستحيل. ذهبت إلى السطح. بقايا رائحة دبقة ما تزال تفوح من تفاصيل المكان هناك، من الأسرة المتهالكة، والمناديل الورقية حائلة اللون، والأغطية التي لم ترتب بعد استعداداً لما سيجري في هذه الليلة:

- هل يمكنني استخدام الهاتف؟

وحين لم تمانع، اتصلت بالأستاذ جلال فاروق الشريف. المعروف بأناقته ورقة طبعه. لم أكن متيقناً أنه سيتذكرني، إذ إن معرفتي به لم تكن طويلة. عرفته من خلال مجلة «الموقف الأدبي»، التي كان يرأس تحريرها، حيث نشرت فيها بعضاً من قصائدي في تلك الفترة، ثم تعرفت

عليه شخصياً بعد ذلك، في مهرجان المربد الشعري ذلك العام. تلك كانت أول تجربة سفر أخوضها، حتى أنني، وبسبب تلك الجولة المسائية الشاقة، لم ألمس من جمال دمشق شيئاً، ولم أطفئ حنيني الطاغي إليها. كنت أتحدث إلى جلال فاروق الشريف، بنبرة مثقلة بالتعب. فوجئت، أنه يتذكرني تماماً. طلب مني أن أصف له موقع الفندق الذي أنا فيه.. كان اسم الفندق «أبو الهول»، وكان له من اسمه نصيب. يقع في الطابق الرابع والأخير من إحدى العمارات الدمشقية، تديره امرأة بدينة، يملأ فمها لسان شديد البذاءة، ويساعدها في إدارة المكان شاب في مقتبل العمر لا يملك لها غير الطاعة المفرطة.

بعد نصف ساعة تقريباً. كنت في عناق حار مع الأستاذ جلال الشريف. وضع حقيبتي في صندوق سيارته وانطلقنا، في ذلك الليل الدمشقي الذي بدأت أحس طعمه الجميل لأول مرة. كنا نتحدث عن الأدب، والمربد، والنشر في المجلات، انتبهت إلى أننا خرجنا من دمشق المفعمة بالحياة والضوء والضجيج. قال سنذهب إلى مصيف بلودان أو الزبداني، لم أعد أتذكر تماماً. حيث يملك شقة جميلة، رغم صغرها، هناك.

أمضيت مع جلال الشريف عشرة أيام كاملة. كنا نشرب قهوتنا الصباحية في شقته، ثم ننزل إلى دمشق حيث يعمل في مجلة الموقف الأدبي بمبنى الاتحاد العام للكتاب العرب. وفي معظم الأحيان كنا نتناول

إفطارنا في أحد المطاعم المنتشرة على نهر بردى. كنت أمضي الوقت معه، أوفي مراجعة وزارة الداخلية منتظراً تأشيرة السفر إلى بيروت. لم يكن يذهب إلى عائلته طوال تلك الفترة تقريباً، وكانت الصلة الوحيدة بينه وبينهم، ذلك السلك الأخضر النحيل الملقى على مكتبه: الهاتف. تعرفت على عدد من الأدباء والشعراء السوريين، واستأنفت معرفتي السابقة ببعضهم، خلال مشاركاتهم في أمسيات المربد الشعري.

(2)

التقيت بالشاعر محمد الماغوط، في تلك الزيارة، ومازلت أذكر ذلك المساء الجميل على جبل قاسيون: الماغوط، وأحد الأصدقاء وأنا. كنت أتوق منذ فترة طويلة إلى لقائه، فقد كانت قصائده الطافحة بالجنون والتشرد، تحتل مكاناً مميزاً في قراءاتي، ثم بين النصوص التي أقوم بتدريسها في الجامعة.. في تلك الأمسية أهديت الماغوط نسخة من ديواني الأول والذي صدر عن دار العودة في بيروت حديثاً، ومازلت أذكر تماماً كيف أشرق وجهه الطفولي بغبطةٍ خاصة حين عرف أن الديوان يشتمل على قصيدة مهداة إليه. كانت القصيدة بعنوان: «ذاكر غير مضاءة» تستثمر الكثير من مشاهد الطفولة ويحضر فيها الأب بكثافة:

كنتُ الطفلَ، اليابسَ

يلمعُ جرحٌ في ذاكرتي:

نعشٌ يتوهّجُ بالخُضرةِ
واسمٌ، ينضحُ ماء..
ولديَّ مخاوفُ منتفضةْ
منها ما يذهبُ للنومِ
ومنها ما يمكُثُ
في اليَقَظَةْ..

(3)

ومن الصدف الغريبة أنني التقيت بالقاص عبد الستار ناصر في زيارتي تلك. كان قد أضاع حقائبه منذ ثلاثة أيام، وكان مثلي ينتظر موافقة السلطات الأمنية على عبور الحدود لزيارة بيروت. ومع أنني كنت ألتقيه في بغداد كثيراً، إلا أن زيارة دمشق وبيروت، كانت فرصة نادرة لكلينا يتعرف فيها كل منا، على الآخر، معرفة قريبة ظلت مستمرة حتى هجرته إلى كندا ثم وفاته، لاحقًا، فيها.

انطلقنا إلى بيروت ذات صباح رائق. لم يكن الطريق طويلا بل كان، لما يكتنفه من جمال وتموج، أقصر مما توقعت وأجمل مما كنت أظن. كان لزيارتي دمشق وبيروت، ذلك العام، دلالة استثنائية، فلهاتين المدينتين، رنين خاص في النفس، وسيظلّ كذلك إلى مدى بعيد: لدمشق شمس عالية تشرق في المخيلة فتندلع وراءها شموس جمة، وتواريخ

منداة بالشعر والصهيل. ولبيروت سماء الحاضر كلها: تعهدت ذاكرة أجيال كثيرة وغذتها بالثقافة والوعي. وكانت نافذتي الأولى على النشر. كانت مجلة الأديب لصاحبها البير أديب، أول مجلة لبنانية بدأت النشر فيها. تعلمنا من بيروت، وعلى يديها، الكثير مما في الإبداع من عناصر وأسرار وتفرد، عبر مجلاتها وجرائدها، ودور النشر فيها. كنت، في تلك الرحلة، أستمتع بلذة السفر الأول، الذي بدأ بدمشق مروراً ببيروت وانتهى بالقاهرة. وكنت أعمل، في تلك الفترة، محرراً في مجلة الأقلام.

وما إن وصلنا بيروت، وعثرنا على فندق بسيط نسكن فيه حتى انطلقنا للتعرف على ملامح المدينة وأجوائها الأدبية ورموزها الكبرى في الإبداع والفكر والثقافة. كان أول شيء رأيناه مقهى الهافانا، وكان هناك بعض الأدباء الذين يعرفهم عبد الستار ناصر أكثر مني. التقيت في تلك الجلسة بصاحب دار العودة، أحمد سعيد محمدية. لم يكن اللقاء مريحاً. وقد بعث إليّ بمجموعة من النسخ إلى بغداد، وحين أسرعت إلى تصفحه، كانت خيبتي كبيرة، إذ كان الديوان يعجّ بالأخطاء المطبعية. وكنت قد كتبت وأنا في بغداد، رسالة بالغة الغضب إلى محمديه بسبب الطباعة الرديئة، قلت فيها إن أيّ دار نشر، حتى لو كانت شعبية، لا تقبل لنفسها ما حدث. خرجت من لقائي معه وأنا موقن أن صلته بما ينشر من مطبوعات لا تتعدى صلة صاحب دكان بما يبيع من بضاعة، فلا وشيجة ثقافية أو فنية تربطه بما ينشر. قد أكون مغالياً في ردة فعلي تلك، وربما كان لي في

حماس الشباب وغروره بعض العذر، فقد رأيت، بعد ذلك، من أصحاب دور النشر من يفوقه بعداً عن الثقافة.

(4)

أمضينا حوالي أسبوع في بيروت، مليئاً ومتنوعاً. كان فيلم «العراب» بطولة مارلون براندو، أول نشاط مشترك قمنا به سوية. ثم شاهدنا سوية أيضاً فيلم «غاتسبي العظيم» بطولة روبرت ريدفورد. كانت مشاويرنا مشتركة حيناً، وكان لكل منا مشواره الخاص في أحيان أخرى. في الجامعة الأمريكية التقيت بنديم نعيمة، وخليل حاوي، ومحمد يوسف نجم، وإحسان عباس، ونقولا زيادة، وقد استمرت علاقتي بهم سنوات طويلة. وكان لقاؤنا بأدونيس في شارع الحمراء أولاً، ثم في بيته في الأشرفية ثانياً من أجمل اللقاءات وأكثرها ثراء.

كانت ليلة نادرة، أضفى عليها أدونيس جمالاً خاصاً. كان يتصف، كما هو دائماً، بصفات قد تبدو متنافرة، فهو ذلك المزيج المركب بما يمثله من عمق وتلقائية، وتعقيد وطفولة، وفوضوية وانضباط. لم نكن، ستار وأنا فقط في بيت أدونيس، بل كان معنا عدد آخر من الشعراء والفنانين، ما زلت أذكر منهم منى السعودي، وسمير صائغ.

في تلك الزيارة التقيت بفؤاد رفقة، صديقي الحميم، وبلند الحيدري، وسعدي يوسف اللذين كانا يقيمان في بيروت آنذاك. ومن المشاوير التي

لا أنساها، زيارتنا إلى ميخائيل نعيمة في منزله الجبلي في بسكنتا. لم أكن قادراً، في تلك اللحظة، إلا على التأمل. أحسست أمام جسده النحيل برهبة عميقة. كان يبدو وكأنه جزء من قداسة كونية شاملة، بيت منعزل في آخر الدنيا. شمس تنحدر إلى غروبها المقدس، وسماء تخلع زرقتها الأخيرة على السفوح. وثمة، في ذلك المدى المهيب، بدايات ليل قادم يتصاعد من عمق الوديان وشراسة الجبال المحيطة. كان ميخائيل نعيمة غارقًا في زمان خاص وموغل في القدم.

(5)

حين وصلنا إلى هناك أحسستُ بقشعريرةٍ من نوعٍ خاص، فالمكان كله ممسوسٌ بالقداسة الحقة والجلال النادر. كان المساء في بدايته، وفيروز تمدّ صوتها سريراً من الضوء الخالد وحنين الفراشات، وكان الممتع العميق، ميخائيل نعيمة، متوّجاً بأعوامه الثمانين، يجلس على كرسيّه المصنوع من أشجار الجنة. وفي ذهابنا، إلى ميخائيل نعيمة، وعودتنا منه، كنت أفنى في تلك الطبيعة الخارقة، الجبال الممزوجة بالضباب، الوديان المغرية. وثمة مدى شاسع تباركه فيروز بأحزانها الساطعة. اكتشفت لحظتها، أن فيروز لا يمكن سماعها كما ينبغي إلا في غمرة هذه الطبيعة الخلابة حد القسوة.

هكذا، ومنذ تلك اللحظة، وفيروز، عندي، هي هي دائما. خميرةُ الجمال في هذا الكون، وأكثر مصادر عذوبته نقاء. طفولة يانعة تتمدد ملء الزمان والمكان حتى تترك على كل منهما لمستها الخاصة ونبرتها التي لا تليق بأحد سواها. ويكاد الصباح أن يكون حكرا على صوت فيروز وحدها. إنه مملكتها الربانية الصافية، أو ممرها الذاهب إلى الأعالي التي لا تعرف النهايات. تحمل صباحات الله وتدور بها على الناس، توزعها حميمة كأرغفة الأمهات وصافية كدمعة الفرح، على الأطفال والمقهورين وأغنياء الروح. تدخل بها خفيفة مثل نسمة إلى القرى العريانة في البرد، والوديان المنقوعة بالضباب وأنين النايات.

يخيّل لي، أولنا جميعا ربما، أن الصباح لا يأخذ مداه كاملا قبل أن يمر على فيروز، فمن دونها يظل الصباح منقوصا يعوزه النضج والضوء الكافي. وحتى يكون كذلك، أعني حتى ينمو وينضج ويتحول إلى نهار شاسعٍ لا بد له من صوت فيروز، عكازة من الضوء، يتوكأ عليها متجها إلى نهار ما، ومن هناك يذهب صاعدا إلى الله، الجميل، الواسع، النضّاح بالهبات النادرة.

وحتى ننصف هذا الصوت البهيج، القادم من أقاصي البدايات، لا بد من القول إن الأوقات كلها تقريبا طوعُ يديه، وفي مدى قدرته المدهشة. الظهيرة وحدها ربما، ذلك الوقت الذي تبلغ فيه الشمس نضجها الحارق، لا تدخل في مديات فيروز وصوتها المليء باللطف والرحمة،

فهذه القطعة من الوقت أقل أجزاء النهار صلة بالفرح وتفتحات الحب وانفعالات الرحيل أو الوداع. بينما لا يمكننا أن نتماهى مع صوتها إلاّ باعتباره هبة ربانية، صباحية حيث تبدأ الحياة، وليلية حيث زمن البوح وانهمار الذكرى. أراد بها الله أن يضفي على ابتكاراته المدهشة جمالا إضافيًا: ابتكاراته في المكان والزمان وعواطف البشر.

خذ المكان مثلا، إنه يتثنى أو يلين ويتأوه، مثل صبية في أول النضج، حين تمر عليه فيروز بصوتها الحافل بالضوء والغريزة الصافية. ومنذ آهتها الأولى، يذهب معها المكان إلى آخر حدود اللوعة، فيستبد به الحنين وتتسرب النشوة إلى جميع مفاصله، فإذا به يستيقظ من رقدته الحجرية ويبدأ بالذوبان والسيولة. ينادي أجزاءه ومكوناته فتقبل جميعها كقطعان منتشية تترنّح من فرط السكر.

صوت فيروز يظل طفلا على الدوام، يوزع الرضا على الفصول جميعا، ولا يعرف إلاّ العبث الجميل، وبراءة الكائنات. كما أن اللافت في أغنياتها، أنها مناخٌ لاندماج الناس في فعل المحبة التي لا يشوبها الكدر أو التحاسد، فهم ليسوا وشاة أو عذالا أو شامتين، كما في الكثير من أغانينا العربية، بل هم شهود على وفاء المحبين، أو تقلباتهم، أو مقاومتهم للنسيان.

تحرك فيروز مهجة هذا الكون، فتبث فيه الشجن الشفيف واللوعة الريانة المباركة، من خلال بُحّتها المجرحة المشوبة بالفرح الحزين

والحيرة البيضاء، يبدأ الجسد في التعرف على مخبآته الأولى، وطيشه الأول، على أسراره الصغيرة وعثراته القابلة للتكرار. وبذلك يربي صوت فيروز أجسادنا، منذ طفولتها، على الوجع المرهف الخالص. من بُحّتها المنداة تلك تأخذ الرغبات طريقها، مثل عشبة تتلوى في هواء حنون، إلى تجربة تظل في طورها الأول دائما، نضاحة بدهشة الطفولة، والخوف المعاق، بالاستمتاع البريء، والبشرى التي لا تعرف الاكتمال.

(6)

من بيروت، اختار كل منا مساراً خاصاً به. كانت القاهرة وجهتي القادمة. بينما كان لعبد الستار ناصر مخطط آخر: زيارة بعض المدن الأوربية. كان مولعاً، حد الجنون، بالسفر والنساء والمغامرة. وحين افترقنا أحسست أنني اكتشفت في تلك الرحلة شخصيته على حقيقتها، كما لم أفعل طوال سنوات الصداقة بيننا. كان يتمتع بطفولة صافية ومرح تلقائي عالٍ. كانت الصداقة، بالنسبة له، محبة بيضاء واستعداداً للمخاطرة من أجلها.

القاهرة وأقمارها التي لا تصدأ

(1)

كنت في مطار القاهرة قادماً من بيروت. كان معي شيئان ثمينان: فرحي بمجموعتي الأولى، ونسخة من مجلة مواقف. هذا كل ما كنت أحمله. المجلة مرسلة من أدونيس إلى الشاعر محمد عفيفي مطر. وكنت فرحاً، آنذاك، بصدور أول مجموعة شعريّة لي (لا شيء يحدث.. لا أحد يجيء) عن دار العودة في بيروت عام 1973.

التقيت بعدد من كتّاب مصر الذين توطّدت علاقتي ببعضهم خلال مهرجان المربد، الذي بدأ حيويّاً وجديداً في بداية السبعينات في البصرة. تعرفت، في تلك الزيارة على كمال ممدوح حمدي، وفاروق شوشة، وإبراهيم أصلان، وفؤاد بدوي وسامي خشبة ويحيى الطاهر عبد الله، ومحمد إبراهيم أبو سنة. وما زلت أذكر تلك الندوة الإذاعيّة المميزة التي قُدّمت حول مجموعتي الأولى. كان سامي خشبة وكمال ممدوح حمدي من أبرز المشاركين فيها. وظللت فترة من الزمن أتذكّر، باعتزاز كبير، عبارة ثمينة لسامي خشبة يصف فيها قصائدي بأنها، مثل منحوتات جياكوميتي: صافية، ملمومة، لا زوائد فيها. كان يصف ملمحاً، في

شعري، مازلت أحنو عليه، وأعيه، وأحاول تنميته باستمرار، ولهذا السبب، ربّما، ظلّت تلك العبارة راسخة في الذاكرة.

كم كنت محتاجاً إلى تلك الزيارة؛ لقد شحنتني بحيويّة أدبيّة عالية، وكانت، رغم قصرها، بداية لصلة حميمة بالجو الثقافي هناك نقّاداً ومبدعين ومجلات ومؤسسات ثقافية. كانت تلك العلاقة قد بدأت منذ أوائل الستينات: سنوات الأحلام الكبرى في الإبداع والثقافة والسياسة والحياة. تمتلىء مكتبات بغداد بما تصدره بيروت والقاهرة من كتب ومجلات ودواوين شعرية. كانت مجلات الطليعة، والمجلة، والشعر، والقصة، والكاتب تمثّل، بالإضافة إلى مجلات بيروت، زاداً ثقافياً لا غنى لي عنه. ومع أنني بدأت النشر، عربياً في عام 1964 في مجلة الأديب البيروتية وفي مجلة الشعر المصرية، حين كان يرأس تحريرها د. عبد القادر القط، إلا أن قراءتي للمجلات القاهرية ترجع إلى فترة مبكّرة.

كانت الستينات مشهداً ثقافياً وإبداعياً بالغ الغنى والحيويّة. وكنّا أبناء ذلك الجيل، متعطّشين إلى القراءة بشكل عصيّ على الوصف. كتابات طه حسين، ومحمد مندور، ومحمد غنيمي هلال، ومحمد النويهي تشدّني أكثر من سواها؛ فقد كانت تشكّل أفقاً ألامس من خلاله ما تبتكره مخيّلة العالم، وعقله. ثم لحق بصفّ هؤلاء العمالقة جيل لا يقلّ تميّزاً عنهم، ومن أعمقهم نبرة: عز الدين إسماعيل، وغالي شكري، ومحيي الدين

محمد، ثم جابر عصفور، وصلاح فضل، ومحمد عبد المطلب الذين يمثّلون اندفاعة جريئة قرّبت النص العربي من ضوء المناهج الجديدة ومقتربات التحليل غير المألوفة.

كان محيي الدين محمد من النقاد الصاعدين إلى مستقبل نقدي استثنائي، ذا لغة مميزة، كثيفة، وبعيدة عما يشوب لغة بعض النقاد من جفاف أو تقليدية. لغة جديدة ومقاربات لا عهد لي بها، في الكشف عن مكونات القصيدة الحديثة واشتراطاتها الفنية والجمالية. الشيء الصادم والمحزن في حياة هذا الناقد انطفاؤه المفاجئ، ربما لظروف اجتماعية غربته، كما تناهى اليّ من أصدقائه الذين عايشوه في الخليج، عن وعي الكتابة وما تتطلبه من أثمان قاسية.

(2)

لا يمكن لأيٍّ منا أن يذهب إلى القاهرة بذاكرة بيضاء. كيف يمكنه ذلك وهو يتوجه صوب مدينة فريدة من نوعها، شديدة البساطة وشديدة التعقيد؟ كنت أعرف هذه المدينة العريقة، كما يعرفها الكثيرون، معرفة قلبيّة وروحيّة وثقافيّة قبل أن أراها؛ لأن المدن، الموغلة عميقاً في الماء والتاريخ وتراب الحضارات، لا تكمن ملامحها في مظهرها الخارجيّ وحده، بل في بعدها الآخر الخفيّ، والراسخ في الأعماق. حين تزور، للمرة الأولى، مدينة كالقاهرة، أو بغداد، أو دمشق، أو بيروت، أو صنعاء،

أو مراكش مثلاً، فإن زيارتك لها لن تكون الأولى إلا بالمعنى المكاني فقط، أي الانتقال الحسيّ إليها عبر صلادة المكان لا غير. أما بالمعنى الوجداني والمعرفي فإن زيارتك هذه ليست إلا رصيداً آخر يُضاف إلى عوامل ارتباطك بتلك المدينة والتحامك الروحيّ والثقافيّ بها. وهذا ما حصل لي، فعلاً، مع القاهرة، في زيارتي الأولى تلك.

أول ما يوجهك في القاهرة شعرية الحياة وهي تطفح من أحاديث الناس، وتفوح من سلوكهم المفعم بالبساطة والشفافية. ثمة، في لهجة أهلها، سحر لا يمكن مقاومته، فهي لهجة هذّبها الاستعمال، وشذّبتها الحضارة، فارتفعت إلى مستوى رفيع من الأداء، الحي، الذي يفيض باللطف، والبشاشة، والإيقاع. وهي لهجة تكاد، لفرط رهافتها، أن تذوب على الشفاه، حتى يخيّل لي، أحياناً، أنها معزولة عن الغرض أو الاستخدام النفعي لها، أي أن التحدّث بهذه اللهجة هو انغمار لذيذ فيها. أو هو، إن شئت، متعة لا تُضاهى. كما أن الإصغاء إليها، يرقى إلى هذا المستوى من التلذّذ الأخّاذ.

لا شكّ أن للكثير من لهجاتنا العربية تميّزها وفتنتها، غير أنني أميل إلى الظن أن في لهجة القاهرة خصائص لا تحظى بها لهجة أخرى. فهي عامرة بالحيوية والليونة إلى حد بعيد، وكأن أقداحها طافحة بالشعر والتورية، والالتفاتات البارعة، والمرح السيّال، والإيجاز المشحون بالإثارة.

(3)

لم تخلُ تلك الفترة البهيجة من ذكريات جرحت ذلك الفرح القديم. إحداها كانت شديدة المرارة. ذهبت مباشرة إلى علاقتي بالمبدع الكبير الراحل محمد عفيفي مطر. كان ذلك في ملتقى القاهرة للشعر العربي، وكان ثمة منافسة نهائية على جائزة الشعر، في القائمة القصيرة، انحصرت بين أحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد عفيفي مطر. وكنت ضمن لجنة للتحكيم برئاسة عبد السلام المسدي، تضم مجموعة من الشعراء والنقاد مثل محمود الربيعي، محمد عبد المطلب، وفاروق شوشة.

كلا الشاعرين مهم ومتميز، وله بصمته الخاصة. فالمنافسة كانت صعبة لأنها بين كبيرين. غير أن النقاش لا بد أن ينتهي إلى فوز أحدهما. وحتى نتهي إلى قرار ما، لا بد من الوصول إلى نقطة مفصلية دقيقة. تفض ذلك الاشتباك بين شعريتين كلتاهما جديرة بالاحتفاء العالي: حجازي وعفيفي: كنت من المؤمنين أن حجازي بنّاء بالغ الذكاء، يعرف طريقه إلى فضاء التلقي بدهاء وسلاسة، فهو يمسك بخيوط الحدث الشعري، يغذيه، بالتفاصيل، والحركة، ويملأ فجواته باللون والنبرة برهافة عالية.

أما عفيفي مطر فهو شاعر الإيقاع الثري المتشابك، والإيماءات الدينية والفلسفية البعيدة، والعمق الصادم. وهو الشاعر المتعصي على القراءات

المتعجلة، يصغي إلى حكمة الأرض وإنسانها المكدود، ويغترف من تدافع الطمي وشجن الحكايات والرموز والأساطير.

وقد استقر الرأي على أن الوصول إلى ذائقة المتلقي، يستحق أن يكون معياراً للحكم بين الشاعرين وهكذا كان، حين تم اختيار أحمد عبد المعطي حجازي للجائزة. ولم نكن غافلين عن أن هذا القرار سيكون مجلبة لاعتراض الكثيرين من خصوم حجازي. والاعتراض لا يمس جوهر الشعر، بل يتعلق، كما أعتقد، بما عرف عن الشاعر من نزعة فيها الكثير ربما من حدة الطبع والصراحة الجارحة..

بعد شهور وكنت في معرض أبوظبي للكتاب، علمت من الصديقين جابر عصفور وحاتم الصكر أن هناك تقريراً عن فوز حجازي بجائزة الشعر، قد نشر ذلك اليوم في جريدة الاتحاد الإماراتية. وجدت في التقرير، الذي كتبه صحفي من القاهرة، مجافاة كبيرة للحقيقة وتشويهاً لما قلته في اجتماع اللجنة.

وعلى الفور، كتبت رداً على التقرير المذكور، وكان معنا المشرف على القسم الثقافي في جريد الاتحاد د. سلمان كاصد الذي نشر ردي على ما جاء في التقرير، مبيناً ما لشعرية محمد عفيفي مطر من فرادة وعمق باهرين. وكان استيائي كبيراً حتى أنني اتصلت هاتفياً بالدكتور المسدي فاستغرب ما ورد في التقرير المنشور عن الجائزة لكنه لم يكن معي في فتح معركة صحافية لا طائل منها، وقد أخوضها وحيداً.

سيظلُّ محمد عفيفي مطر، أحد أهم شعراء الحداثة العرب، موهبة راسخة في سرديات الأرض والمعرفة وحيوية التخيل. وسيظل موته خسارة شخصية وثقافية كبيرة، وقد ضاعف من هذا الأسى مقتل أرملته الكاتبة السيدة الفاضلة نفيسة قنديل، بتلك الطريقة البشعة. شاعر لا تنفصل حداثته الشعرية عن انتماءٍ عميقٍ للحاضر، وإدراكٍ كبير لأجمل ما في تراثنا الشعريّ والروحيّ والأسطوريّ:

يقبلُ مثل غيمةٍ
صاعدةٍ من غسق الأنهارْ..
يتبعه الحقلُ كثيفاً صافياً، تتبعه اللغةْ..
بقيةٌ من سهر الليلِ على ردائهِ ومن يديهِ
الخشْنتينِ، من خيالهِ المخيفِ
يعلو أولُ النهارْ..
قصيدةٌ لم تكتملْ بعدُ..
يحكّ ظهرها الدافيءَ بالضوءِ وبالهواءْ..
مسافرٌ في الطمْيِ:
لا يُسْلِمه المجازُ إلاّ للمجازِ
فالخريفُ سيد الخرافةِ،
الشهوةُ بنتُ الموتِ،
بنتُ الماءْ..

ربطتني بالدكتور عزالدين إسماعيل صداقة خاصة منذ أيام صنعاء. محطات عزيزة عليّ لا يتسلل اليها النسيان بسهولة: لقاءاتنا في مجالس الدكتور عبد العزيز المقالح، مناقشة الرسائل الجامعية، تقريره العلمي المميز عن بحوثي للترقية، مشاركاتي العديدة في مؤتمرات النقد الأدبي الذي كان يشرف عليها حتى أيامه الأخيرة. كان يتمتع بشخصية مؤثرة. عرفته أول مرة من خلال مقالاته في مجلة الآداب ثم جهوده اللاحقة في النقد والترجمة والاشراف على مجلة فصول التي مثلت نقلة في تطور الخطاب النقدي العربي وفي مقاربة النصوص.

اتصل بي ذات يوم، حين كنت أعمل أستاذاً في جامعة الإمارات. كان ذلك الاتصال مفرحاً، وكان مفاجئاً بأكثر من معنى. كان أول اتصال هاتفي بيننا، وتم خلال ساعات العمل. لا بد أن في الأمر ما يستدعي كل ذلك. وتلقيت في اليوم اللاحق اتصالاً من ابنه. كان د. عز الدين يسعى إلى التقديم إلى جائزة عربية كبرى في النقد. ومن شروط تلك الجائزة ألا يكون الترشيح شخصياً، وإنما عن طريق جامعة أو مؤسسة بحثية. لم يكن الموضوع يسيراً. فمن أين لنا الوقت الكافي لإنهاء موضوع كهذا؟ كنت شديد التوتر، وكأنني أمام امتحان للصداقة ووفاء الأجيال. وكان موقف زملائي في القسم لا يمكن نسيانه، فقد شاركوني حماسي ومحبتي.

بعد أيام حافلة بالمتابعة، كنت في مكتبي بالقسم، وكان نهاراً استثنائياً ملأ كياني كله بغبطة خاصة. فقد نجحنا أخيراً في تحقيق ما يصعب تصوره

في هذه الفترة القصيرة. كتاب جامعة الإمارات بترشيح الدكتور عز الدين للجائزة ينتظر التوقيع. أزحت الجريدة التي أمامي جانباً، ومددت يدي إلى الهاتف لأزف اليه البشرى. جثمت الجريدة على روحي، ثقيلة صادمة، مثل صخرة: كان د. عز الدين إسماعيل قد رحل عن عالمنا ذلك اليوم إلى الأبد.

(4)

لم أكن أتصوّر، في إحدى مشاركاتي الأدبية، أنّ شتاء القاهرة يمكن أن يكون بارداً إلى ذلك الحدّ. ومع ذلك كنت مستمتعاً به بشكل لا يُوصف: لم يعقني عن زيارة الأصدقاء، أو التجوّل في مكتبات القاهرة، أو زيارة معالمها الأثريّة، أو حضور بعض من أنشطتها الأدبيّة والفنيّة. لقد أضفى جوّ القاهرة الممطر جمالاً إضافيّاً على ما يتمتّع به ليلها، عادة، من عذوبة فائقة. كان كلّ شيء في القاهرة، أو كل جزء منها يزداد، في الليل، فتنة. كانت الأشجار، والشوارع، والمباني، والبشر، وطيور المآذن تكتسب، بفعل الليل والمطر، طعماً جديداً، وملمساً لم تعهده من قبل. إن خان الخليلي، مثلاً، يغدو في منتهى تألّقه في وقتٍ كهذا: حين يختلط المطر بالضوء، والليل برنين النحاس، وتمتلئ أزقّته الضيّقة برائحة الشواء، والتبغ، ونداءات الباعة.

في إحدى زياراتي إلى القاهرة توجهت، في اليوم الثاني لوصولي، إلى

المجلس الأعلى للثقافة، لزيارة الصديق الناقد جابر عصفور، ولم تكن زيارتي تلك مجرد زيارة لمؤسسة ثقافية ضخمة وبالغة الحيوية. فأثناء حديثي مع جابر عصفور، في مكتبه، وعلى النيل خلال الغداء، كان يتملكني إحساس عميق بأن ما يتمتّع به هذا المثقّف الكبير من أفق معرفيّ وإنسانيّ، وما تجسّده كتاباته من حيويّة نقديّة وتحليليّة تجعل منه واحداً من المستنيرين الكبار الذين تجاوز دورهم محيطهم المحلي إلى المحيط العربي.

ومن ميزاته في الصداقة عذوبته البالغة ومتابعته للتفاصيل الدالة. كان حين يلتقي صديقاً، في جمع من المدعوين، مثلاً، لا يحيّيه من طرف لسانٍ في عجلةٍ من أمره، بل تحية المحبّ، الذي يغرف من ذكرى بعيدة، أو حدثٍ مشتركٍ. أذكره مرة، وكنت مدعواً إلى واحدٍ من ملتقيات القاهرة الشعرية وقادماً من صنعاء. بعد أن سلم عليّ، سألني عن شاعر اليمن الكبير، وصديقنا المشترك د. عبد العزيز المقالح، ثم فاجأني بسؤال، لم أتوقعه.

وعندما عرف أن غرفتي، في الفندق، تطلُّ على المدينة، طلب نقلي فوراً إلى غرفةٍ ذات إطلالةٍ على النيل: كان يرى أن شاعر الماء، وحضارة الأنهار لا بد أن يواجه النيل لا كتل الأسمنت. هكذا كان يخاطب المشرفين على إسكان الضيوف. لمسةٌ فيها الكثير من الرقيّ والوفاء والصداقة، رغم بساطتها. كان يمزج الثقافة العميقة بالمرح والبشاشة

الراقية، فلا يجور أحدها على الآخر، لا يرتدي قناع الثقافة المتجهمة، ولا ينسيك مرحه ودفء شخصيته أنك في جوار عمارة ثقافية ونقدية راسخة. كان شديد اللباقة، لا يضيق برأيٍ، ولا يحتدُّ في نقاش.

بدأ سلم الهبوط في رحلة جابر عصفور كما يبدو من خلال موت عائلي، وكأن الأسرة كانت على موعد مع رائحة المرض والموت التي تتجول في البيت بقدمين حافيتين: تموت ابنته فيمرض مرضاً مهلكاً، ويتراخى الكلام الجميل على شفتيه، وتكف الكتابة عن جموحها، وتموت الزوجة، لتخفت رائحة الحبر والعافية.

كان لقائي الأخير بجابر عصفور في ملتقى القاهرة للشعر العربي، عام 2020 كما أذكر. وقفنا نتحدث في قاعة الاحتفال قبل أن يبدأ الإعلان عن الجائزة، التي منحت للشاعر البحريني قاسم حداد. كان يسرد، بفرح مشوب بالتعب، بعضاً من ذكرياته عن بغداد. وكانت يداه، ترتجفان فلا تقويان على التناغم مع كلامه الذي بدا بطيئاً متعثراً، وإن كان ما يزال على شيء غير قليل من بشاشته المعهودة. كنت أتابعه فأحس أن ثمة حمولة فكرية وثقافية مرموقة ينوء بها جسد عانى كثيراً من الحزن والتصدعات.

كان حزني عليه شخصياً إلى أبعد الحدود، وعامّاً إلى أقصى تخوم الثقافة. كانت علاقتنا تغرق في تفاصيل صداقةٍ حقة، ظل جابر عصفور يرعاها رعايةً كريمة من بغداد إلى صنعاء إلى الإمارات. صداقةٌ لم تقترب يوماً من اليابسة، رغم كل الظروف التي مرّ بها كلانا، وطبيعةٌ مثلت،

دائماً، إحدى الخصال الراسخة في شخصيته القريبة من الكثيرين. لقد غادرنا بعد أن ترك غابة الكلام عامرةً بالضوء والحفيف، كما قلت في إهداء الطبعة الثانية من كتابي: الحلم والوعي والقصيدة، 2022.

(5)

القاهرة مدينة محيرة بالمعنى الجميل للكلمة. فهي توفر لك دائماً، وبسخاء أصيل، عدداً كبيراً من الخيارات المغرية للاستمتاع بالوقت. صحبة الأصدقاء، مباهج النيل التي لا تمل، العروض المسرحية، المقاهي الأدبية، الأعمال الموسيقية الكبيرة، المكتبات، دور النشر، معارض الكتب، المؤسسات الثقافية. المتاحف، المناطق الأثرية، خان الخليلي.

ومن خصائص ليل القاهرة، تحديداً، أنه شديد الغنى: يضع بين يديك إمكانيّات متنوّعة تجعل من ليلك ليلاً آخر، مثيراً وخاصّاً إلى أبعد الحدود. وقد أتيحت لي الفرصة لحضور عدد من الفعاليات المسرحيّة والموسيقيّة، إضافة إلى فعاليات معرض الكتاب التي شغلت جزءاً من ليالي الناس ونهاراتهم.

وتظلّ الأمسية التي قدّمها الفنان اللامع نصير شمه، من أجمل ما تختزنه الذاكرة وتُضاء به النفس. كنت أنتظرها منذ سنوات طويلة. حين دعاني لأمسيته تلك كنت قد حجزت للعودة، في الليلة نفسها، إلى دبي.

لحظتها أدركت أن حضور عزف على العود لنصير شمه حدث لا يتكرّر دائماً، ومتعة لا يحول بيني وبينها أيّ التزام آخر.

وقبل امسيته المميزة تلك بيومين، أمضينا سهرة جميلة في شقته، حيث زوجته الشاعرة السورية لينا الطيبي وما أعدته من عشاء عراقي لا ينسى. كان معنا في تلك الليلة، إذا لم تخنني الذاكرة، عدد من أصدقائنا المشتركين: صلاح فضل، سمير سرحان، جابر عصفور، فاروق شوشة. وقد اكتشفت في ذلك اللقاء جانباً إنسانياً بالغ الجمال في نصير شمة، فهو، إضافة إلى ما يتمتع به من كاريزما إبداعية، ذو حضور شخصي لا يجارى: البداهة الحاضرة، روح المرح الذكي، رواية النكتة، بلباقة وأسلوب جميلين.

كانت قاعة الأوبرا مكتظّة: الجمهور يتدفّق بحيويّة ويتدافع بلطف، القاعة تمتلئ بمقاعد إضافيّة، والترقّب والفرح حاضران في كل مكان. اعتلى نصير شمه خشبة المسرح حاملاً عوده المرهف

ومذ سقطت أوّل قطرة من الموسيقى، أعني منذ الاحتكاك الأوّل بين أصابع نصير شمه وأوتار عوده أحسست وكأنّ هذا الفنّان المدهش يمنح آلة العود قدرة إضافيّة لم تكن ضمن مدياتها سابقاً: يؤجج كل إمكانيّاتها ببراعة عجيبة، ويتوحّد معها حتى تغدو امتداداً لجنون يديه وشهوة أصابعه. يتحوّل العود كله إلى موسيقى سيّالة. وهكذا لا يكون الإصغاء إلى نصير شمة وحده، بل إلى تراث العراق وتاريخه الشجيّ.

يتوقف العود، هنا، عن كونه آلة للعزف فقط، بل يصبح هو نفسه، نشيجاً مستفيضاً: يتوتّر تارة، ويرقّ تارة أخرى. ثم يمضي في نحوله حتى تظنّه عشبة تنبثق، فجأة، في حرير النوم. وفي كل مرة أستمع فيها إلى هذا العازف المميز يحضرني الشاعر سركون بولص، في قصيدته الجميلة أبعاد، التي تبدو وكأنها كتبت في نصير شمة في إحدى تجلياته الموسيقية:

العازفُ في ركنه
يعانقُ عوده بوداعةٍ كأنّه يصغي
الى بطنِ حبلى بينما أصابعه
تعذّبُ الأوتار..

أكستر، والبياتي، وأجراسٌ بعيدة

(1)

على إحدى طائرات الخطوط العراقية، كنت متوجهاً إلى بريطانيا للدراسة، في الأسبوع الثاني من نيسان، 1980. كان ذلك اليوم حافلاً بالقلق؛ فقد تركت بغداد، وأجواؤها السياسية ملبدة، وتوقعات الناس مفتوحة إلى أقصاها. كان لكل شيء رائحة مرئية، تراها على الجدران، والطرقات، وفي عيون البشر.

هل كان نيسان أقسى الشهور حقّاً، كما يقول إليوت؟ هل كان يخرج أزهار الليلك من البراري الميتة ويمزج ذكرياتنا بالرغبات؟ بالنسبة لي لم يكن شهر نيسان شهراً عادياً. لقد كان يمثل لي أكثر الشهور توتراً. كما كان، في الوقت ذاته، أكثرها جمالاً أيضاً. لقد جمع، في ثناياه، مزيجاً لا يمكن نسيانه من التفاصيل والمواقف.

(2)

في اليوم الثاني، كنت في طريقي إلى مدينة إكستر حيث جامعتي الجديدة. لم أكن أتوقع أن يكون الجوّ عاصفاً ومطيراً إلى ذلك الحد. اندفعت نحو مدخل محطة القطار، تحت وابل من المطر. وكأن سيولاً مدلهمّة تنهمر على المدينة ثقيلةً، متواصلة. وحين وقفت على الرصيف،

في ذلك الصباح البعيد، بدا كل شيءٍ جديداً عليّ تماماً: محطة «بادنكتون»، والقطار الذاهب إلى مدينة أكستر، والمطر النازل بغزارة. ومن نوافذ القطار المسرعة، كنت أرقب واحداً من أجمل تجليات الريف الانجليزي المدهش. المراعي، والتلال الخضراء، والغابات، وقطعان الماشية تأخذ أماكنها تحت سماوات شاسعة. وكان القطار، في انحداره السريع، يوقظ في النفس الكثيرَ من التوقعات. كنت أتخيل، وأنا أحدق من النافذة المبتلّة، صوراً لا تحصى لهذه المدينة التي أتجه إليها في ذلك الصباح المضبب. بعد أن وصلت محطة المدينة، توجهت مباشرة إلى مدرسة اللغة. وكم كانت دهشتي كبيرة حين وجدت أن كل شيء معدّ في انتظار التحاقي بالدورة الجديدة: الشعبة، الكتب المقررة، السكن مع إحدى العوائل البريطانية.

أول ما جلب انتباهي في المدينة أنها صغيرة نسبياً، ومبعثرة على مجموعة من الأنهار والأراضي المتموجة. لم أكن أعرف هذه المدينة حين تقدمت لإكمال دراستي فيها، غير أنني كنت أتذكر جيداً كلام جبرا إبراهيم جبرا عنها في سيرته الذاتية، «شارع الأميرات»، كما أتذكر بعض الأسماء النقدية التي تخرجت من جامعتها. كان عبد الله الغذامي، الناقد المثير للجدل، أحد خريجيها. وكان الشيخ محمد بن سلطان القاسمي، حاكم الشارقة، واحداً من طلاب مركز دراسات الخليج في الجامعة. ومن الأسماء التي كانت تمارس التدريس فيها عزيز العظمة، ذو الآراء الفكرية الجريئة، ورشيد العناني: المختص بنجيب محفوظ.

(3)

توزعت مباني الجامعة، على ضاحية من التلال الخضراء. وكان مسرح (نورث كوت) من معالمها البهيجة. وكثيراً ما كانت تعرض عليه أعمال مسرحية معروفة. لم يكن قسم اللغة العربية قد انتقل، في ذلك الوقت، إلى المباني الجديدة للجامعة. وكذلك الأمر بالنسبة لمركز دراسات الخليج. كان كلاهما في مبنى مشترك يقع خارج مباني الجامعة لكنه ليس بعيداً عنها.

كان الراحل د. محمد عبد الحيّ شعبان، رئيس قسم اللغة العربية، أول من لقيت في ذلك اليوم. شخصية باهرة إلى أبعد الحدود. كان، في الأساس، أستاذاً للتاريخ الإسلامي، وقد عرف على نطاق واسع بشجاعته في النظر إلى التاريخ والحياة معاً. كان، رغم صرامته الأكاديمية، ذا شخصية أبوية متعاطفة. يتمتع، رغم تقدمه في السن نسبياً، بعقلية شديدة المرونة. وتظلّ كتاباته عن الدولة الأموية، على سبيل المثال، دليلاً حياً على نزوعه المعرفي إلى التجديد وإعادة النظر في مسلمات التاريخ. حين دخلت مكتبه للسلام عليه، استقبلني ببشاشة كبيرة. وللمفارقة، كان بين يديه العدد الجديد من مجلة «فنون» العراقية، وكان يطالع مقابلة صحفية معي ضمها ذلك العدد.

ولم يكن جاك سمارت، الاسكتلندي، الذي أشرف على رسالتي عن عبد الوهاب البياتي، أقلّ إثارة للانتباه من د. شعبان. فقد كان، رغم أنه لم

يتجاوز الأربعين من عمره آنذاك، شديد الذكاء والتميز. كان يتقن أكثر من أربع لغات من بينها العربية والفارسية والإسبانية، وكان ذا شخصية آسرة.

عاش، في شبابه المبكر حياة عملية ودراسية شديدة الإثارة. في جامعة الخرطوم، وجامعة الأزهر، وبين القبائل البدوية على الحدود المصرية الليبية. جمع بين مهنة العامل والموسيقي والأكاديمي والمغامر. مفتوناً كان بالشعر الجاهلي وأجوائه، وقد دفعه ذلك، كما حدثني في حوار صحفي معه نشرته مجلة «الأقلام» في حينه، إلى العيش بعيداً عن مدينة أكستر. في مزرعته الخاصة: بين قطعان الماشية وطيور الأوزّ، بين جياده الأصيلة وكتبه، حيث بين يديه وفي متناول مخيلته، الغيم، وكاتدرائية المدينة، وامتداد المراعي.

(4)

لم يغب عن ذهني، حين اخترت البياتي موضوعاً للدراسة، أن معظم المعترضين على ذلك سيكونون ممن لم يقرؤا البياتي قراءة حقيقية، أو ممن أخذتهم معاركه الشخصية بعيداً عن التأمل المنصف في قصائده وأجوائها الفنية والرؤيوية.

كان الاختيار وليد إحساس كاليقين، أن البياتي لم يُقرأ، قراءة منصفة. وما تزال ثقافة الشائعة تفعل فعلها في تشكيل ردود أفعالنا تجاهه حيّاً وميتاً. وربما كانت حياته الشخصية عبئاً على قصائده في أحيان كثيرة.

ويبدو أن النفور من سجالاته العنيفة وقف حائلاً دون الكثير مما في شعره من عوالم ميزته عن جيله والأجيال اللاحقة.

كرست البياتي، في شعره، صورة الإنسان المهمّش، الأعزل، الرجيم، المنفيّ، وجعلها جزءاً من نبرته الشعرية المحببة، وبذلك ترك بصمة على شعراء من أجيال شتى، وظلت قصيدته، بجملتها القصيرة ونبرتها المفجوعة وتنوع إيقاعاتها، محاولة دائمة للارتقاء باليومي والعابر إلى فضاءات أسطورية وصوفية حافلة بالتوتر..

وفي كتابتي عنه، أردت قول كلمة مختلفة عن البياتي، لا تؤلهه ولا تنفيه. لا الارتفاع به، كما كان يفعل مدّاحوه، إلى مستوى الأسطورة. ولا الإمعان في ذبحه تنفيساً عن غيظ من سلوك يقع خارج نصوصه، كما كان يفعل الكثير من خصومه. لقد بدأ اختلافي مع الكثيرين ممن سبقوني إلى دراسته من العنوان. لقد كنت بصدد مشكلات فنية، تقنية، ودلالية قد لا يحسم الأمر فيها لصلح البياتي دائماً. كان تأليه البياتي حياً، ثم دفنه شعرياً بعد وفاته، وجهين لحالة من النفاق والازدواجية في مشهدنا الثقافي. كنا، نحن ولا أحد سوانا، وراء الحالتين، ولا بد أننا كنا غير منصفين في واحدة منهما دون شك.

(5)

كانت مدينة إكستر، بل مقاطعة (ديفون) كلها تتموج بالتلال والوديان والغابات الداكنة. وحرصاً مني على أن أظل على تماس مع تلك الطبيعة

اخترت السكن، في السنة الأخيرة من إقامتي هناك، في مدينة صغيرة، تبعد عن جامعة إكستر عشرين ميلاً تقريباً. حيث الطريق من تلك القرية المبعثرة على التلال إلى إكستر من أجمل المتع اليومية وأكثرها إثارة للخيال. وسط هذه الطبيعة النضاحة بالندى أمضت وصال وخيال، وكانتا ما تزالان صغيرتين، أربعة أعوام من طفولتهما العذبة. تلهوان، بمرح غامر، تحت الغيوم وأسراب الطيور المنتشية بتلك الوديان. مشدودتين إلى ما تهبهما تلك الطبيعة من عطايا، لا سيما مشاهد الثلج وهو يهطل على البيوت، والأشجار، والأرصفة. لقد كان ذلك المشهد، بالنسبة لهما، عيداً لا يمكن نسيانه.

وقد عاش في هذه المقاطعة الساحرة الكثير من شعراء انجلترا وروائييها، كان أشهرهم: جين أوستن، سي دي لويس، تيد هيوز. وقد يكون هيوز أكثر هؤلاء ارتباطاً بمدينة أكستر. لقد بنى أسطورته الشخصية على عدد من الحقائق الشعرية والشخصية المثيرة للمخيلة: حبه للشاعرة الأمريكية سيليفيا بلاث وزواجهما المأساوي، انتحارها، وانتحار أبنائه منها لاحقاً، تأسيس الكثير من قصائده الشعرية على طبيعة ديفون وكائناتها من طيور وحيوانات. وقد حقق مجداً شعرياً باذخاً حتى عده النقاد من أهم شعراء انجلترا في القرن العشرين. وحين فاز بلقب شاعر البلاط في 1983 ظلت الأجراس تقرع في محطات القطار في ديفون وأكستر. وبعد وفاته عام 1998، في لندن، كان لابد لأسطورته أن تكتمل،

في أكستر، فجيء بجثمانه اليها ليحرق ويدفن رماده في ترابها الطريّ..

كانت مدينة أكستر تعج بالكثير من الأنشطة: كان مسرح الجامعة عامراً بالعروض المسرحية طوال العام، كما كان لمركز دراسات الخليج ندواته ومؤتمراته السياسية والثقافية التي كانت تعقد كل سنة. يضاف إلى ذلك ما كانت تقيمه كلية الآداب من ندوات متخصصة في الأدب والنقد والعلوم الإنسانية الأخرى.

خلال دراستي، في الجامعة، أقيم مؤتمران شاملان، عن العراق، في مركز دراسات الخليج، في سنتسن متتاليتين. قُدّم خلالهما، العديد من الفعاليات الثقافية والسياسية والفنية. ومن الأسماء أسهمت في تلك الملتقيات مجموعة من الباحثين في مقدمتهم حنا بطاطو، عبد الأمير الأنباري، صالح جواد الكاظم، وآخرون. كما شهدنا ليلة عراقية لا تنسى تألق فيها تراث العراق الشعري والغنائي، وسعدي الحديثي، وفرقة البصرة للفنون الشعبية.

ومن الأنشطة الأدبية المتميزة التي أقيمت في الجامعة قراءات شعرية قدمها الشاعر البريطاني تشارلس توملنسون. كانت القراءات ضمن ندوة عن الأدب وحس المكان، وقد توزعت على محاور عدة تتعلق بحس المكان: في الشعر، والرواية، والمسرح. وكان هناك معرض للكتاب على هامش المؤتمر. حين دخل الشاعر القاعة، كان هناك مجموعة كبيرة من طلبة الدراسات العليا، من قسم اللغة الإنجليزية تحديداً. بعضهم يحمل

نسخاً من دواوين توملنسون، وكانت أعماله الشعرية الكاملة بين أيدي عدد آخر من الطلبة. ذكر الشاعر، في البداية، عناوين القصائد الي سيقوم بقراءتها أمام الحاضرين. وبذلك كان يتاح للطالب أن يتابع، مع الشاعر، قراءة قصائده التي تجسد موضوعة المكان..

(6)

أشياء كثيرة في هذه المدينة لا يمكنني نسيانها. تلك العائلة الطيبة الصغيرة الهادئة، التي كانت أول عائلة يرسلني اليها معهد اللغة للإقامة معها. عائلة بريطانية بامتياز. زوجان وحيدان، مع أنهما كانا ما يزالان شابين تقريباً. كان كل منهما يمارس عملاً يجعل تماسّه مع الناس يومياً وواسعاً: ممرضة في أحد مستشفيات المدينة وموزع بريد. كانا ودودين جداً. ولم يكن يعيش معهما غير كلبين كبيرين كأنهما، لفرط حيويتهما، ذئبان رشيقان. وكانا يعاملان هذين الكلبين وكأنهما ولداهما اللذان لم يرزقا بهما بعد، أو حلمهما الذي لن يتحقق ذات يوم.

وكثيراً ما كان هذان الزوجان يخرجان بكلبيهما إلى فعاليات متنوعة، كمسابقات جمال الأجسام، أو التمشي في متنزهات المدينة، أو ضواحيها التي تمتدّ، حد الذوبان، في أحضان الريف. وفي الغالب، كانا يلحّان عليّ لأرافقهما، في إجازة نهاية الأسبوع، إلى إحدى المدن الساحلية المنتشرة في مقاطعة ديفون، مثل «أكسموث»، و«توركي»، و«سدموث».

وأذكر أننا خرجنا سوية ذات يوم إلى إحدى مدن الساحل. كان الطريق إلى المدينة ساحراً. كما أن البحر، بامتداده المشمس وغيومه البيضاء، يمنحني إحساساً لا ينسى بالاسترخاء والبهجة. وكان لي في تأمل الناس المستغرقين في مباهجهم، ما يبعث البشاشة والحيوية في النفس.

كانت السيدة الانجليزية الأنيقة تفيض حنوّا على الكلبين الضخمين، وتُعاملهما بلطفٍ جمٍّ، وأمومةٍ فائقة. وخلال الطريق الغارقة في المراعي الخضراء الكثيفة، كانت تسأل زوجها أن يوقف السيارة على جانب الطريق حتى يقضي الكلبان، أو أحدهما، حاجته التي تكررت، خلال الرحلة، أكثر من مرة. كانا يستمتعان بإطالة وقفتهما وكأنهما منتشيان بذلك الحضور الباهر للطبيعة، أما الزوجان فكانا يتأملانهما بصبر أبوين حنونين.

وذات صباح شديد البرودة، نزلْتُ من غرفتي في الطابق الثاني، إلى غرفة المعيشة حيث يفطر الجميع عادة. كان أحد الكلبين لا يزال ممدداً إلى جانب تلك السيدة، باسترخاء ومهابة، وما تزال عليه غشاوة ذابلة من النعاس. وفي تلك اللحظة تماماً لقيني الكلبُ الآخر على باب الغرفة، وهو يهم بالخروج بعد أن تناول فطوره كما يبدو. حين جلست على الكرسيّ كان المكان لا يزال دافئاً، رغم الثلج الذي كان يتساقط، أبيضَ وخفيفاً، وراء النافذة.

يالها من جلسةٍ عائليةٍ حانية، ويا له من دلالٍ لا يليق، ربما، إلاّ بطفلٍ مولود لأبوين ذاقا مرارة الحرمان طويلاً. هكذا قلت في داخلي تلك اللحظة، وأقولها اليوم بحرقة أشد، بينما شريط يبعث على الألم يمر في أعماق النفس. قد لا يجد بعض أطفالنا اليوم، بسبب ظروفهم الظالمة، جزءاً مما تحمله تلك السيدة الإنجليزية من أمومةٍ فياضة. مجتمعاتٌ لا تملك ما نملك من ثروات، لكنها تغدق كل ذلك الحنان حتى على الكلاب، بينما يتعذب أطفالنا، كل يوم، في مجتمعاتٍ لا تجود عليهم، رغم ثرائها، إلاّ باليتم والدمع والحرمان الوفير.

(7)

في السنة الثانية، وصلتني رسالة من مجلس الجامعة بالموافقة على اعتبار تسجيلي للدكتوراه بدل الماجستير، بناء على توصية من القسم معززة بتقرير من الأستاذ المشرف. كان عليّ أن أعيد النظر في تصوري لموضوع البحث المقترح وتوسيع قائمة المصادر. وهنا لا بد من تغيير العقد لدى الجهات الرسمية. ولتحقيق ذلك لابد من ركام من المشاق: المتابعات، الوساطات، النوايا وسوء التأويل. مشكلة كادت أن تعصف بمستقبلي الدراسي كله. في بغداد، وفي أجواء الحرب وتحولاتها الطاحنة، ليس سهلاً أن تحصل على من يصغي اليك في مطلب كهذا. ثمة ملاحظات كثيرة تنتظرك على الباب. فأنت، إذا حسُنَ فيك الظنُّ، واحد من البطرين، أو غير المبالين بعذابات البلد في تلك الظروف.

لم يكن الوصول إلى وزير التعليم العالي سهلاً، في تلك الأجواء الاستثنائية، لولا موقف طه ياسين العلي، الذي عرفته عن قرب حين كان وكيلاً لوزارة الثقافة والإعلام. في الموعد المحدد للقاء، كانت المسافة مرهقة بين باب غرفة الوزير ومكتب سكرتيره الخاص. استقبلني بحفاوة. غير أن إحساساً آخر داهمني قبل أن أبدأ الحديث عن دراستي. مسافة أخرى كانت تفصل بين لغتي وبين الوزير، تمثلت في ذلك المكتب الزجاجي البارد العريض.

لكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد شعرت بالارتياح حين ترك الوزير كرسيه الفخمَ الدوّار بعد دقائق. جلسنا على كرسيين متقابلين. لكن جلوسه قريباً مني لم يجعله أكثر تفاعلاً مع موضوع مقابلتي له، حتى بدا لي أن جلوسه بذلك القرب كان رسالةَ مودةٍ إلى الأستاذ طه ياسين العلي، فقد كانا يرتبطان، كما سمعت، بعلاقة تنظيمية قوية. وربما أراد منه، ضمناً، التعبير عن تلطفه حين يضحّي، من أجلي، برفاهة مكتبه لدقائق. وبعد أن صافحته مودعاً، شعرت بأنني أبتعد عن لغة رسمية مشوبة بالكثير من الدخان والوعود غير المطمئنة.

خرجت من مقابلتي وزير التعليم العالي وأنا أمام خيارين، لكل منهما المرارة ذاتها: أن أكتفي بالماجستير كما ينص العقد. أو اتابع دراسة الدكتوراه، حتى لو اضطررت إلى مخالفة ما كنت وقعت عليه، وما يترتب على ذلك من تبعات، كفقدان الوظيفة أو أن يكون انتمائي للبلد على المحك. غير أن جملة من عناصر المحبة والتشجيع حسمت الموقف

كله. بعض الأصدقاء رفعوا منسوب إيماني بما أنا مقبل عليه من قرارات. حتى أن بعضهم الآخر ذهب بعيداً في مساندةٍ تستعصي على النسيان.

في أكستر، كان رئيس القسم د. عبد الحيّ شعبان، يقف معي بأبوّةٍ خالصة، وكان القاصّ نجمان ياسين يرتفع في فضاء نادر من المحبة. وكان آنذاك يعمل مسؤولاً في الملحقية الثقافية بلندن. وما زلت أتذكر سؤاله المانع لكل التباس: أتريد مني رأي الصديق أم المسؤول؟ فوجئت به يتسامى بصداقته على أية صفة رسمية، ليقول: أكْمِلْ دراسة الدكتوراه حتى لو اعتبروك مخالفاً للعقد.

(8)

في منتصف تشرين الثاني من عام 1983، وفي صباح مفعم بالمطر كنت أجلس إلى الأساتذة: عبد الحي شعبان، وجرير أبو حيدر، وجاك سمارت، لمناقشة أطروحتي للدكتوراه. كانت لحظة بالغة التوتر: أنا في قاعة المناقشة، وزوجتي تنتظر في الخارج، وابنتاي في روضة الأطفال: كنا موزعين في الأمكنة، لكننا نتشارك تلك اللحظة الفريدة ذاتها. كان نقاش جرير أبو حيدر ينمّ عن معرفة ولطف شديدين، وينصبُّ على المنهج المتّبع في كتابة الرسالة، أكثر من المستويات الإجرائية. غير أنه، مع ذلك، كَان يرى أن كفة المقارنة بين البياتي وأدونيس، كانت ترجح، لصالح أدونيس في أكثر من مكان. سلمني، بعد انتهاء المناقشة، قائمة ببعض الكلمات الإنجليزية التي لم تسلم من الهفوات الإملائية.

كنت فرحـاً، حد النشوة، بنتيجة المناقشـة. غيـر أن حزنـاً شـفيفاً كـان يتسلل إلى روحي شيئـاً فشيئـاً: إنه العد التنازلي للرحيل عـن هـذا المكـان الحافل بالجمـال والشـباب والانفعـالات التي لا تنسـى. في تلـك اللحظـة كان آدم يهبط من جنته، وكنت أدشن عهـداً مـن التلـويح والتلفـت لا نهايـة له:

ذاكَ بارٌ قديـمٌ
يضيءُ كراسيَّهُ الليلُ، والساهرونْ..
تلكَ سيّدةٌ من حنينٍ وفَرْوٍ، وذاكَ فتىً
من أسىً، وجنونْ..

بعد أسبوعين تقريبـاً، كان القطار يبتعد بنـا عـن مدينة أكسـتر، مسرعـاً ذات فجـر بـارد. التفتـت ابنتـي وصـال في اتجـاه المدينـة لتودعهـا بلغـة إنجليزية باكية: Goodbye Exeter forever. هل كانت ابنة الثامنة، تحس بوعورة ذلك الحلم منذ البداية؟ لم تكـن وحـدها، بـل كنـا جميعـاً، نلـوّح لتلك المدينة التي لن نراها، مجتمعين، مرة أخرى:

أكسترْ
أكسترْ..
دفءُ حُلْمٍ مضى..
دفءُ وهمٍ سيمضي..
ويتركُني موحشـاً كالمطرْ..

(9)

عدت إلى مدينة إكستر ثلاث مرات: وأنا قادم، عام 1986، من كراكاس إلى لندن مع د. محسن الموسوي، حين كنا في زيارة إلى فينزويلا موفدين من اتحاد الأدباء. ومرة للمشاركة في مؤتمر الأدب العربي الذي نظمته جامعة أكستر عام 1994، حيث شاركت فيه ببحث عن تقنية القناع في شعر محمود درويش.

وكانت زيا رتي الثالثة، عام 2013، مع زوجتي. أقمنا أسبوعاً في سكن جامعي لطلبة الدراسات العليا، وأمضينا سهرة لا تنسى مع الدكتور رشيد العناني وأسرته. وكان لبيتنا السابق، في مدينة Crediton، سطوة قوية على النفس.. أحسست أن تلك الأعوام الثلاثين تخرج الآن من غيابها الكثيف. كانت الطريق الصاعدة إلى أعلى التل، حيث بيتنا القديم، ما تزال عامرة برائحة خطواتنا الأولى.

ولم تقتصر زيارتنا على موقع الجامعة، ومركز المدينة، وكاتدرائيتها المهيبة فقط، بل ذهبنا الى: فيشرمن كوت، منتجع صغير، كنا نطيل التردد عليه أيام الدراسة، قنطرة يتدافع من تحتها الماء بحيوية مثيرة، وغابة تنتشر فيها مجموعة من البيوت الخشبية المتباعدة، تابعة للمنتجع ذاته.

كان لهذا المكان نكهة شعرية خاصة صنعتها جملة من العناصر النفسية والجغرافية. فيه من الغرابة قدر ما فيهِ من البهجة. ولم يكفَّ هذا المكان، مذ زرته للمرة الأولى، عن إرسال نداءاته الوجدانية المتكررة

اليّ، حتى حضر بكل عنفه وطراوته في قصيدة «عاشقان». وقد وقف عندها د. كمال أبو ديب وقفة جميلة في إحدى دراساته المهمة عن أنهاج التصور والتشكيل في النص الأدبي:

النسيمُ خفيفًا يهبُّ على الفجرِ:
تحتَ الندى ترتخي الآن قنطرةٌ من حجَرْ..
قَدَحانِ تغطّيهِما رغوةُ الليلِ..
جمرٌ قديمٌ..
سريرٌ، عشيقانِ منطفِئانِ..
وحولَهما قُبَّةٌ من شظايا السهرْ..

السيدة العظيمة وموتها الذي لم يكتمل

(1)

بعد أن أتممنا إجراءات القدوم وسط أجواء متوجسة، خرجنا من قاعة شاحبة الضوء إلى ليل بغداديٍّ شديد العتمة. لم نشهد ما يشهده المسافرون عادة: لا لهفة المستقبلين ولا ارتباك المودعين أو تدافعهم. كانت بغداد غارقة في الظلام والمخاوف، ولم يكن هناك إلا المصابيح الخافتة، وأشرطة التعتيم الملصقة على زجاج النوافذ في كل مكان.

كنت قادما من لندن لزيارة الأهل في بغداد، وكان ذلك عام 1981 حين كانت الحرب بين العراق وإيران في ذروة احتدامها. أحسست لحظتها أن الموت قد وزّع رائحته في كل مكان: في الهواء والماء. في حفيف النخيل وعلى الأرصفة. في أحاديث الناس ونظراتهم وأغانيهم.

لم يكن يخطر في البال أبداً أن رحلتي تلك لن تكون مجرد انتقالة في المكان فقط: بين لندن وبغداد، أو بين مدن تحتشد بالضباب والبرد وصخب الحياة، ومدن يأكلها القصف والحرائق وتتعرى كل يوم من أبنائها الذاهبين إلى الجبهات. كنت مستغرقاً في رحلة كبرى بين شطرين من كل شيء حميم وعزيز عليَّ: بين شطرين من الروح، ومن الجسد، ومن الذاكرة.

كان ذلك الموت الشائع والملموس موتـاً عامـاً بمعنى من المعـاني، موتا مطلقا، ودون ملامح. بكلماتٍ أخرى، كان الناس جميعـاً يتحمّلـون حصتهم منه دون تمييز. وهكذا ما عاد ذلك المـوت موتـاً فرديّـاً، يخـصّ إنسانـاً بذاته دون سواه. ولم أكن أتوقـع أنني سـأكون ذلـك الإنسـان، وأنّ حصّتي، من ذلك الموت الشـامل، ستكون باهظـة وشخصيّة إلـى حـدّ لا يمكن تصوره.

(2)

كان الأهل والأصدقاء قد هيّأوا كـل شـيء لتبـدو الفجيعـة أقـل فداحة ممـا هـي حقّـاً، ولكـي أتلقّـى صـدمة المـوت، مـوت أمـي، بأقـلّ انكسـارٍ ممكن، وبأكبر قدر من الاحتمال. لقد استنفر كـلّ مـنهم ذاكرتـه، وأعـدّ مـا يمكن أن يقال في مناسبة شجيّة كهذه من أدبيات تخفيف الأسى، أو الحثّ على السلوان. كان البعض يذكّرني بـأن أجـد في هيمنـة المـوت وشـموليّته تخفيفـاً من فجيعتي الخاصّة، بينما يحثّني الـبعض الآخر علـى أن أصـلّي إلى الله شاكراً لأن أخي الأكبر، وكان في جبهات القتال آنذاك، ما زال على قيد الحياة حتى الآن.

غير أنّ ذلك كله لـم يصمد أمام ريح الفقدان التي كانت تعصـف بي، في تلك اللحظة، سوداء متأجّجة. حين أستقبلني المـرحبـون أو المعـزون لـم أكن أعبأ كثيراً بما كانوا يرددونه من عبارات جاهزة تقال لكل النـاس، وفي

كل مأتم، وعن كل فقيد. أحسست أنها مصنوعة، وجاهزة، ولا ترقى إلى ما كان يمزّق روحي من ألم نادر. تجاوزتهم جميعا، واتجهت كما اعتدت أن أفعل في السابق، إلى غرفتها المكتظة بالحنين ولهفة الانتظار. عندها فقط أدركت أنها قد رحلت حقا، بعد أن أخذت معها النصف الجميل من دنياي.

كان أساي عظيماً عظمة حبّي لتلك الأمّ المكافحة، وخاصاً خصوصيّة علاقتي بها. وقد ظلّ جرحي، إلى الآن، موحشا وعصيّاً على الاندمال، وسيظل عميقاً عمق الفراغ الذي تركته في وجودي كلّه. أسبوعان كاملان من العزلة الكبيرة والأسى المقيم. لم أشأ أن يفسدهما عليّ أحد مهما كان قريبا إلى نفسي: حتى ابنتاي وصال وخيال، وحتى زوجتي المفجوعة مثلي. كنت كمن يستلذ بهذا الحزن، وكأنني أتطهر به من خطيئة ما: سفري بعيداً عنها، أو جهلي بموتها حتى هذه اللحظة.

بعد رحيلها، انتابني إحساس أن علاقتي بكل من يحيطون بي هي علاقة واهية، وتفتقر إلى ذلك الحنوّ التلقائي، الحار، الذي كانت تبذله أمي دون مقابل. أحسست، مثلاً، أن بيت أخي لم يعد كما كان، وأن إخوتي كلهم ما عادوا نفس الإخوة، وأن هناك شيئاً ما، جوهرياً وفي الصميم من علاقتي بالآخرين، قد أخذته معها: ربما هو العاطفة المدهشة أو فداحة الانتظار، أو الإحساس، رغم البعد، بما ينتابني من مشاعر الضيق، وهو إحساس لا تملكه عادة إلا الأمهات العظيمات.

وممّا كان يجدّد حزني عليها، ويجعله ساطعاً على الدوام، أن الأهل قد أخفوا عني خبر وفاتها شهوراً عديدة مراعاة لظروف الدراسة والغربة معاً. ألا يكفيني أسىً أنها لم تمت بين يديَّ هاتين؟ ألا يعذبني الندم لأنّها لم ترني وأنا أشتبك مع الموت دفاعاً عنها في لحظاتها الأخيرة؟ ألا يشقيني أن حزني عليها جاء متأخّراً: لم تسمعه، ولم تره، ولم تعشه؟ ثم أليس من الطبيعي أن حزنا كهذا لا بد أن يظلّ حارا ومتجدّداً ما حييت؟

(3)

بعد عودتي من بريطانيا نهائياً، كان لا بد لي من زيارتها في مقبرة دار السلام في النجف، ليأخذ موتها شكله النهائيّ، فقد كان رحيلها، في داخلي، فكرة، أكثر منه واقعاً. كان موتاً منقوصاً، أو فجيعة لم تكتمل بعد: فأنا لم أدخل المقبرة التي دفنت فيها، ولم أزر لها ضريحاً، ولم أقرأ، بعينين دامعتين، اسمها على شاهدة قبرٍ ما.

حين دخلنا المقبرة، زوجتي وأنا، كان يأكلني هاجسٌ لم أكن أجرؤ على الإفصاح عنه. كنت أحاول التكتم عليه، وإخفاءه حتى عن زوجتي، فقد شاع بيننا، قبل عودتي من الخارج، أنّ بعض الطرق والممرات قد شُقّت داخل المقبرة لأغراضٍ أمنية، وأنّ من لم يحمل عظام موتاه إلى مكانٍ آمنٍ فقد لا يجد لها أثراً، بعد أن اختلطت، ربما، بأسفلت الطرقات الجديدة أو تفتتت، كالكحل، تحت أقدام المارة.

توغلنا بين القبور التي يحتضن بعضها بعضاً، وكان دليلنا في غابة الموت تلك رجلٌ، كان مسؤولاً عن مقبرة العائلة لسنواتٍ طويلة. أمضينا نصف النهار تقريباً في البحث. شواهد كثيرة كانت تناديني. كنت أعرف بعض أصحابها جيداً، وتربطني ببعضهم الآخر محبة خالصة، ولم يكن بينها قبر أمي. كان بعض تلك الشواهد مثلوماً، أو مهشماً، أو باهت اللون، أما بعضها الآخر فقد كان في وضع أفضل رغم الندوب والتجاعيد التي تركتها سنوات من الغبار والريح وتقلبات الجو، ولم يكن لديّ ما يكفي من الدمع أو الكدر لأفيهم حقهم جميعاً. وبعد أن كادت أفواهنا أن تمتلئ برائحة الموت وتراب المقبرة، وأوشكنا أن نستسلم لتلك الظهيرة المتوقدة، جاءني صوت الدّفان مثقلاً بالتعب كأنه يصعد شاحباً من أعماق الأرض:

- ها هو قبر السيدة.

وهكذا كان لقائي بأمي، في ذلك النهار العاري، لقاء الابن الضائع الذي يبحث بين فتيت العظام والتراب الكئيب، عن أمه التي أيبس قلبها الحنين وأنهكته الوحشة. ومن المفارقات أن قصيدتي «ضريح المليكة» كانت تجسيداً لرحلة البحث هذه قبل تحققها، وذلك بفعل الاستباق لا فعل التذكر:

تلمّسْتُ دربيَ..

لا العشبُ يعرفُ أين خباءُ المليكةِ

لا الرملُ يعرفُ أين أريكتُها..

....

ثمَّ تتسع المقبرةْ..
ترتّبُ أحجارها..
وتنادمُ آبارها المقفرةْ..
توسّعها تارةً، وتضيّقها تارةً
وعلى بعضها البعضِ تتّكئُ
ثمّ من طرف العمرِ تبتدئُ..

(4)

كان أثرها في حياتي، أو عليها، لا يُنسى. إنّ رائحة عباءتها أو ماء يديها ما يزال يفوح من صوتي وقصائدي وذاكرتي حتى الآن. لقد كانت وراء دخولي المدرسة. وكانت، بإلحاحها الودود على أبي، سبباً في إقناعه بالهجرة من ريف الكوت إلى بغداد، مع أنه كان، كشجرة راسخة، شديد التشبّث بالأرض والناس هناك.

لم تكن تعرف القراءة والكتابة، لكنّها كانت تقول الشعر الشعبي أحياناً، وتحفظ الكثير منه أيضاً، وما زلت أذكرها، في ليالي عاشوراء، وهي تقرأ قصائدها النضّاحة بالحزن وقد تجمّعت حولها نساء القرية وبناتها محلولات الشعر. وكم كنت أشعر باللذة الغامضة، في صغري، وأنا

أصغي إلى صوتها الشجي. كانت تبدو وكأنها تصنع للقرية حزناً خاصاً بها من خلال نبرتها المؤثرة وخزين ذاكرتها من قصائد الفجيعة.

كان لأمّي بنية ناعمة، وعينان مرهفتان: شخصيّة تتميّز بالحزن حيناً، وبالسخرية الذكيّة حيناً آخر، وبالجد البالغ أحيانا أخرى. وكان تعلّقها بوالدي وغيرتها عليه حديث النساء، ومحلّ تندّرهن أحيانا. وكم تحمّلت، وبحبّ عميق، خشونته، وتعدّد زوجاته، ومرضه المبكّر. لقد كانت أولى نسائه، وأصغرهنّ عمرا. لكنها كانت أكثرهنّ تشبّثاً به، وتحملاً لحياته الوعرة.

كثيرا ما كانت تروي لنا، وهي جذلة منتشية، كيف عبَّرت عن احتجاجها على زواجه الثالث: كان ذلك ليلة دخوله على زوجته الجديدة، وكان الليل في منتصفه تقريبا. أخذت معها، أولاً، ضرتها الثانية، بعد أن أقنعتها ببلاغة ريفية ذكية، بأن قلة الشركاء أجلب للنفع من كثرتهم؛ وبأن شراكة امرأتين في رجل واحد أرحم من شراكة ثلاث أو أربع.

ورغم أن زيجات أبي كانت تخلو، أو تكاد، مما يشيع عادة عن الرجل المزواج، من شغفٍ مربكٍ بالنساء، أو التطلع اليهن بشبقٍ حارق، فإن ما شاع عن زواجه تلك الليلة صار حديث القرية رجالاً ونساء:

أقطرةٌ من ذهبٍ
في قدحٍ من طينْ؟
بل رجلٌ وامرأتانِ..
بل ثلاثٌ..

جئنَ من آخر ما في العمرِ من بقيةٍ
أو جئن من بداية الحنينْ..

وهكذا اتحدت أمي وضرتها، في مواجهة ذلك الخطر الداهم، وجمعتا إليهما حشداً من نساء القرية المتعاطفات معهما، أو اللواتي مررن بكارثة مشابهة. تحركن جميعاً في موكب ليليّ غير منظم، واتجهن إلى بيت العريس، الذي خرج إليهن بهراوته الغليظة، وعيناه تقدحان شرراً. وقبل أن يصل إليهن، كان شملهن قد تفرق على مرأى من عجائز القرية، وتندر رجالها الشامتين.

(5)

لا أدري لماذا يرتبط الشعراء بأمّهاتهم إلى هذا الحدّ؟ لا نكاد نجد شاعراً حقيقيّاً إلا وللأمّ، في حياته وشعره، مكانة خاصّة. ويبدو لي أن الأم هي بابنا الأول إلى العالم كلّه: ينفصل الطفل عن جسدها طريّاً ودافئاً وصغيراً، ثمّ يمضي بعيداً عنها إلى امرأة أخرى، أو منزل آخر، أو شيخوخة تنتظره في نهاية الطريق. وعبر مسيرته كلّها يظل يتلفّت حنيناً إلى الرحم التي غادرها، أو تلهّفاً إلى رحم مماثلة. وقد نجده يبحث عنها في وجه كلّ امرأة يراها: المرأة التي يحب، والمرأة التي يتزوّج، والمرأة التي يتخذ منها زميلة له إن كان في مقدوره فعل ذلك: هاجس كان يطل برأسه في الكثير من كتاباتي، كما في قصيدة «امرأتان»:

جاءت امرأةٌ أوصلتني إلى الماءِ

وامرأةٌ أوصلتني إلى مائها..

كان في الرمل رائحةُ امرأتينْ..

تركتْ عند حرّاسها وردةً

وأتتْ دونما ورقٍ ممطرٍ

في اليدينْ..

وكما أن الأم تمثّل، بالنسبة للشاعر خاصة، منزله الأول أو حبيبته الأولى، فإنها تمثّل طريقه إلى النهاية أيضاً. لقد أحسست، بعد وفاتها، أنني في عراء مفتوح على عوامل الهلاك جميعاً: لا سقف يقيني، ولا سور يباعد بيني وبين الموت، ذلك القنّاص المحترف الذي يكمن لطرائده في الضوء أوفي الظلمة. كان وجودها يمنحني إحساساً عميقاً بأنّ الحياة ما تزال مديدةً وآمنة، وأن على الموت أن يتعب كثيراً، قبل أن يصلَ إليّ.

يصعب عليّ كثيراً أن أصدق أن امرأة أخرى يمكن أن تتحمّل ما تحمّلته أمي في شبابها المبكّر أو كهولتها المجروحة. لقد فجعت بوفاة أبي في السنة الأولى أو الثانية من هجرتنا إلى بغداد. وكان عليها أن تواجه، ببسالة، غربتها الباهظة وحزنها الفادح. كنّا أربعةَ أبناءٍ، ثلاثةَ أشقّاءٍ وأخاً من أمّ أخرى، وقد عُنيتْ أمي بتربيته كواحدٍ منا بعد وفاة أمه، وكان علينا أن نصغي، بعمقٍ، إلى حزنها البليغ.

كانت أنهار طفولتنا تتدفق، تحت الشمس، صاخبة متعثّرة. وكان علينا، بعد وفاة والدي، أن نغادر طفولتنا تلك دفعة واحدة صوب رجولة لم نكن مهيّئين لها. أن نبدو، أمام أمنا الأرملة، وكأننا رجال قادرون على التخفيف من إحساسها بالوحدة، أو مشاركتها خسارتها الكبرى.

لا يمكنني أن أنسى تلك الليلة التي تصدّينا فيها للريح والمطر. كانت الريح توشك أن تقتلع سقف بيتنا الطيني في منطقة العطيفية ببغداد، وكان المطر غزيراً غزارة الظلمة في تلك الليلة. بدأ السقف يرتفع ويهبط، وأخذت مياه المطر تتسلل من سقف البيت. لم يكن بيتاً، بل غرفة من الطين تتكدّس فيها أجساد خمسة وهموم لا نهاية لها.

أخذت أمي تضع إناءً هنا، وإناءً هناك ليتجمّع فيه الماء الذي كان يتسرّب إلى غرفتنا الوحيدة من سقفها المليء بالثقوب. وبعد أن اشتد عصف الريح، وهطول المطر، وتصاعد دويُّ الرعد، خرجنا، نحن الأربعة، في محاولة لتثبيت ذلك السقف المتداعي، حيث تعلّق كل واحد بطرف منه. كانت أجسادنا الصغيرة ترتفع وتهبط مع السقف في الريح والظلمة، وكان المطر يهطل على قلوبنا الصغيرة المرتجفة عاصفاً وثقيلاً. لم نترك السقف، عائدين إلى الغرفة، إلا بعد أن هدأت الريح، وتوقّف المطر، وبدت نجوم الليل لامعةً مبلّلة.

هل فعلنا ذلك تعبيراً عن إحساس مبكرٍ بالمسؤولية؟ أم تعبيراً عن لحظة فيها من الخجل قدر ما فيها من الإشفاق، ونحن نرى أمنا المكابرة

وهي تحاول أن توزع الأواني وصفائح التنك، هنا وهناك، ليتجمع فيها ماء المطر الذي كان يهطل علينا من شقوق السقف. كنت أحس أن ذلك الفعل، بالنسبة لي على الأقل، تعويضا لتلك الأم عن حزنها الأخرس المدّوي، وعن خسارتها الرجل الذي أحبته بعمق وأحبها بقسوة.

(6)

كانت أمّي أول من ربطني بالشعر دون أن تعلم. كنت مشدوداً إلى شفتيها الغائمتين باستمرار. أصغي إلى أحاديثها، وحكاياتها، وشكواها، وكنت أستمتع دائماً بنبرتها التي تدمي القلب. وكانت، منذ بداياتي في الكتابة، مبثوثة في معظم قصائدي، وظلّت خيطاً من الضوء واللوعة يسكن لغتي دائماً. كان حضورها فاجعاً في ديواني الثاني (وطن لطيور الماء)، تحديداً. حتى بدت أجواء بعض قصائد الديوان وكأنّها ندم على خسارات كبرى: كواكب يأكلها النسيان، أو فراديس لا تبارح الذاكرة. وربّما كانت أمّي، وستظل، أكثر هذه الخسارات تعذيباً للقلب.

في أواخر عام 1983، وفي صباحٍ ممطر وشديد البرودة، كنت أجلس أمام اللجنة المكلّفة بمناقشة أطروحتي للدكتوراه، بجامعة إكستر في بريطانيا: محمد عبد الحي شعبان، جرير أبو حيدر، وجاك سمارت. أثار انتباه المناقشين الثلاثة ذلك الإهداء الذي كان يتصدّر الأطروحة: كنت

قد أهديتها إلى أمي التي رحلت بعيداً بينما كنت مشغولاً عنها بكتابة ذلك العمل. علّق أحدهم على ذلك الإهداء متأثّراً: إنّه قصيدة أكثر منه إهداءً. وقال الآخر: كم أنا حزين من أجلك في هذه اللحظة. وغاب الثالث في صمتٍ عميق، بينما بدت الأشجار، من النافذة، أشدّ كآبة وأكثر انحناء.

مجلة الأقلام، وأدونيس، والوشـــاية

(1)

حين أصدرت مجلة الأقلام عددها الاحتفائي بأدونيس (العدد الثالث، كانون الأول، 2020)، كان استثنائياً لسببين: أولهما عام، باعتبار أدونيس مبدعاً أسس لشعرية مغايرة في الشعر العربيّ. والثاني خاصٌّ، لأن المجلة عادت بي شخصياً إلى أكثر من ثلاثين عاماً مضت. إلى لحظة أخذت مكانها القلق والمقلق في سجل الوشاية والنميمة الثقافية، بدلاً من الانتماء إلى المتن الثقافي وسجالاته المعافاة. لقد فتح باب الوشاية لحظتها على احتمالات كثيرة. ولولا أن إدارة الوزارة، كانت أرحب أفقاً من كاتب الوشاية لتجاوزت الخسارات حدودها المعقولة ربما، ولكنت أنا شخصياً في عداد تلك الخسارات. وبين عدد المجلة الجديد، احتفاءً بأدونيس وعددها القديم المتهم بمحاباته، أكثر من ثلاثين عاماً من تقلبات الذوق ومصائر الدول وتحول الولاءات والتكالب على المواقع الوظيفية. وهو مرآة لمسيرة مجلة أدبيّة حاولت، ضمن شروط موضوعية معروفة، أن تفعل ما يجعلها أهلاً لثقة النخبة القارئة قدر ما تستطيع..

(2)

كانت ذاكرتي مثقلة بذلك الحلم الهارب من الجنة، جنة المخيلة، أو

جنة الذاكرة حين تنوء بخزينها من تشهيات الشباب ونزوعه العاصف إلى القراءة والمحبة. كان لحلمي بمجلة عراقية، آباء وأمهات، عديدون وعديدات. وربما كانوا عرباً أكثر منهم عراقيين. كان حلماً بصحافة تترعرع في فضاء أنيق وممتع. من أين جاءني ذلك الحلم؟ كيف علق بمخيلتي مع أن ذاكرتي مبرأة منه؟ غير أن هذا الحلم لا يمت بصلة كبيرة إلى المجلات الي عرفناها أو شهدنا صدورها، أورأيناها ملقاة على الأكشاك في بغداد.

لابد للمجلة الثقافية من شروط محددة كي تنجح وتتطور. الهوية، الشغف، النبرة، الأفق، والرؤيا، ولابد من مجموعة قليلة ربما لكنها قلة هائلة. يكثّرها الطموح، تحيط هذه المجلة بالرعاية والإحساس بالانتماء الحار اليها. مجموعة تتقد حماساً ومحبةً للمطبوع، تتلذذ بمشاقه وتنتظر لحظة خروجه من المطبعة بلهفة. عيد صغير من الورق والفرح والنصوص يفاجيء الجميع، في كل شهر. هلال من أسماء جديدة تضاف إلى الذاكرة، وأسماء تجدد حضورها، وكأنها تولد أمامنا لأول مرة. لا تنجح مجلة دون هذا التوق الذي يخترق الذات ويمضي بها صوب حلمها الذي يتجدد كل شهر أو كل فصل.

قبل أن أدخل عالم الصحافة الأدبية، عشت حالة الموظف الحكومي عامين تقريباً. كانا من أشد الأعوام رعباً بالنسبة لي. كان العمل يتعلق بالحسابات والأرقام وكتابة الصكوك. حتى إن ذكريات العمل اليومي

وتفاصيله كانت ترافقني إلى ساعات النوم في الغالب. وللمفارقة كنت أُعزو الكثير من صرامة الشاعر الأمريكي إليوت، وشحة عاطفته الشعرية إلى عمله موظفاً في البنك، حيث الأرقام والقيم المادية للأشياء والذهنية المجردة.

وتلعب الصدفة لعبتها العجيبة. التقيت ذات صباح بالشاعر حميد سعيد. كان قد جاء لاستلام مكافأة له صادرة من إحدى المجلات أو الصحف اليومية. كان ذلك في عام 1969 كما أظن. كان في بداية صعوده في الحزب والدولة والشعر أيضاً. بدا مستغرباً من وجودي في عمل كهذا. خلال ذلك اللقاء طرح علي فكرة الانتقال إلى وزارة الثقافة، كانت تلك الخطوة الأولى، في الطريق إلى عمل طالما حلمت به: الصحافة الأدبية.

أحسست، بعد انتقالي إلى مجلة الأقلام، أن كابوس العمل الوظيفي قد ولى، لا سجل تواقيع، ولا أختام، ولا دفاتر حسابات. تعرفت في عملي الجديد على أسماء كبيرة. مثل عبد الوهاب البياتي، سعدي يوسف اللذين كانا عضوين في هيئتها الاستشارية. وكانت هيئة التحرير تتكون من عبد الجبار البصري رئيساً بينما كان عبد الرحمن الربيعي يعمل سكرتيراً للتحرير. ثم اتسعت هيئة التحرير. يوسف عبد المسيح ثروت، غالب هلسا، وخيري منصور، ومحمد عفيفي مطر من أهم الأسماء التي عملت في مجلة الأقلام، مازلت أتذكر غالب بدفئه الطفولي وثقافته المستنيرة،

وعينيه الحائرتين دائماً، كما لا يمكنني أن أنسى خيري منصور، فقد كان عالماً قائماً بذاته، كان شاعراً في كل شيء: سلوكه وكتاباته، وأحاديثه. كانت لغته، داخل نصوصه وخارجها، تنم عن ثقافة واسعة، وشديدة الحيوية، ولا تخلو من إيماءات حسية، ماكرة، على الدوام. أما محمد عفيفي مطر، فقد كان يبدو دائماً، وكأنه نسيم يتناهى إليك من أودية الماضي، وما فيها من خضرة وعمق. كان، رغم كثافة شعره المشتبك بالرؤى والإحالات، موغلاً في نبله وشفافية روحه.

(3)

في بداية 1984، أي بعد عودتي من بريطانيا، عينت رئيساً لتحرير مجلة «الأقلام»، وظللت، في هذا العمل أكثر من ست سنوات (1984-1990). كان العمل في المجلة، أقرب إلى مزاجي من أي عمل آخر، ومع ذلك، كنت راغباً في الانتقال إلى الجامعة، لكن وزير الثقافة آنذاك، طلب إليَّ تولي مسؤولية المجلة لسنتين أو ثلاث، ووعدني أن في إمكاني الذهاب إلى الجامعة بعد ذلك.

كان عليَّ، قبل كل شيء، أن أفيد من علاقاتي الطيبة بالكتاب العرب والعراقيين. لاحظت أن المجلة كانت تصغي، أكثر مما ينبغي، لإيقاع التعبئة السياسية والفكرية، وكان الحيّز الذي تفسحه لذلك كثيراً بفعل ضغوطٍ لم تكن تخفى على أحد. كانت تفتح صفحاتها في أحيان ليست

قليلة، لكتاب لا يحركهم إلا الهاجس الأيديولوجي لا الجمالي، ولا يجدون فرصتهم المثالية في النشر إلا في هذه الأجواء. وكانت نصوصهم، في الغالب، احتفاءً بالشأن السياسي دون أن يؤرقهم مستوى الأداء.

إضافة إلى ذلك كانت المجلة قد دأبت، قبل عملي فيها، على إصدار ملفات وأعداد خاصة تكاد أن تقتات على هذا المستوى المتواضع من الكتابات. وليس عيباً بطبيعة الحال أن يلامس النص الأدبي همّاً عاماً، فكرياً كان أم اجتماعياً، على أن لا يظلَّ الشاغل الأيديولوجي هو الدافع الوحيد لكتابته، وأن لا يضع الشاعر رهاناته كلها على هذا الاهتمام وحده.

كان معي في هيئة التحرير الناقد حاتم الصكر، الذي سعيت جاهداً إلى نقله من دار ثقافة الأطفال، التي كان يديرها الشاعر الراحل عبد الرزاق عبد الواحد، إلى المجلة. وكان الصكر عوناً حقيقياً لي لما له من ثقافة نقدية، وصبر على إدامة علاقاته بالآخرين، ومن هدوء كنت أغبطه عليه حقاً. وكان معنا في المجلة الشاعر خيري منصور، المثير للجدل دائماً، والقاص أحمد خلف الذي سعيت إلى انضمامه إلى هيئة التحرير بعد أن نقل من الإذاعة والتلفزيون، إضافة إلى القاصين عائد خصباك وحسب الله يحيى.

يمكنني، دون مبالغة، اختصار وضع مجلة الأقلام كالآتي: لم يكن الكادر كافياً، ولا إيمانه بالمجلة واحداً، كما أن المكان لم يكن لائقاً بمجلة أدبية. والى ذلك، لم تكن النظرة الرسمية إلى المجلات عموماً

وإلى مجلة الأقلام تحديداً، إيجابية. كان العقل الرسمي، في الغالب، لا ينظر إلى المجلة، أية مجلة، إلاّ باعتبارها قسماً إدارياً، وإلى كادرها التحريري بكونهم موظفين، لا كتاباً وشعراء، مهمتهم إصدار مطبوع ثقافي لا غير.

وظلت تبعية مجلة الأقلام، فترة طويلة، تتنقل بين مديريات عديدة وبتسميات مختلفة: الثقافة العامة، دار الجاحظ، دار الرشيد، إلى أن تم جمعها، مع مجلات أخرى، في دار واحدة. كان ذلك في منتصف الثمانينات تقريباً. اقترنت تلك الفترة بحدث ثقافي بارز هو وفاة شفيق الكمالي، الشاعر، الرسام، الوزير، القيادي في الحزب. كما اقترنت بعودة الدكتور محسن الموسوي، من كندا بعد حصوله على الدكتوراه. الذي تكشف لاحقاً، والحقُّ يقال، عن عقليةٍ أكاديميةٍ وإداريةٍ شديدة التميز. وهكذا تم تغيير اسم آفاق عربية إلى دائرة الشؤون الثقافية العامة وأسندت مهمة إدارتها إلى الدكتور الموسوي.

ورغم ذلك، لم يحدث تغيير جذري في وضع المجلات الثقافية التي ظلت، إلى حد ما، تدور في فضاء رسمي. مجلة تصدر عن إحدى مؤسسات الدولة. وهذا يعني ضمناً أن حقها في أن تحلم أو تجرب أو تجتهد أو تلامس الحدود الخطرة للخيال أو مباح القول حق غير محسوم أبداً. لا حق لها في التنزه خارج الأقفاص، أو الارتطام بجدار الممنوعات، حتى لو كان الدافع إلى ذلك طيبة القلب أو حسن النية، فهي مجلة دون أحلام مغرية أو مشاريع كبيرة.

كنت وزملائي حريصين على أن نوسع من الهامش الضيق المتاح لنا في المجلة، محاولين أن نجعل منه متناً قدر ما نستطيع، وأن نخرج بالمجلة من أقمطتها الرسمية إلى أفق أكثر رحابة. وأنا هنا أتحدث عن هامش الحرية تحديداً. ومع ذلك استطعنا أن ننعش هذا الهامش وأن نوقظ روحاً جديدة في نصوصه وسجالاته ودراساته، حتى باتت مجلة الأقلام، رغم ظروفها القاهرة وإمكاناتها المحدودة، مطلباً أدبياً لا غنى للكتّاب والمثقفين عنه.

(4)

لم تكن المهمة يسيرة. وقد أخذ يداخل متعة عملي في المجلة شيء غير قليل من العنت والتحسب للشروط التي تضعها الرقابة الفكرية أو الأمنية أحياناً. وفي لحظاتٍ تتعاظم فيها النواهي وتتكاثر الممنوعات يكتسي حتى المسموح به، والمتاح، ظلاً من الريبة. وقد عبر عن هذه الفكرة ذات يوم، فاضل البراك، أحد رجال الأمن العتاة في العراق حين قال: «كثرة الممنوعات تضيع علينا الممنوع المركزي». ومن الواضح أن عبارة كهذه لا تعبر إلّا عن لحظة أمنية شديدة التوتر، تتعارض تماماً مع حاجة المبدع إلى مخيلة حرة، والمجلة الأدبية إلى فضاء رحب تنمو فيه.

ثمة تحدٍّ آخرَ كان يشكل عبئاً على الكاتب والمحرر الأدبي في آن معاً. ولا يقع دائماً ضمن مجسات الدولة وأذرعها المبالغة في تحسسها

من كل شطحة في الخيال أو جموح في اللغة، بل، ويا للمفارقة، كان يتفشى في الوسط الثقافي تحديداً. لا أظن أن هناك وسطًا يحتفي بالنميمة، والتحاسد، والولاء القائم على الشللية أكثر من الوسط الثقافي في عالمنا العربي عامة، والعراقي بشكل خاص. بل لا أتردد في القول إن هذا الوسط يحفل، في كثير من الأحيان، بأناس ميالين إلى الإيذاء، والمنافسة غير الكريمة، وتعاطي التقارير الكيدية. وفي وسط كهذا لا ينتظر من مجلة ما أن تنمو وتزدهر إلاّ بصعوبة بالغة. وتكاد هذه الصعوبة أن تكون شديدة التعقيد إذا تعلق الأمر بمجلة أدبية أو ثقافية. فالتربة، والهواء، والأنهار وأفكار الدولة لا تربطها علاقة من الود أو التجانس الحقيقي مع أفكار الناس أو عواطفهم دائماً. وفي بعض المواقف قد نجد أن سلطة الدولة، مع بعدها عن الشاغل الثقافي، هي أرق قلباً من بعض الكتاب أو المحسوبين منهم على هذا الهم النبيل: الكتابة. ولديَّ من الأمثلة ما يترك ندوباً، لا تمَّحي، في القلب والذاكرة والقصيدة.

أذكر أننا خططنا لمجموعة من الملفات والأعداد الخاصة. كان لصدورها وقع طيب على المهتمين في العراق وخارجه، منها على سبيل المثال: القصيدة الجديدة في السعودية، النقد العراقي الجديد، الرواية العراقية، القصة القصيرة في العراق، الشاعر العربي الحديث ناقداً، محمود البريكان، عبدالأمير الحصيري. وكان إسهام المبدعين والكتاب العرب واضحاً في هذه الأعداد والملفات. وربما كان ذلك منهجاً اختطته المجلة قبل أن أتولى مسؤولية العمل فيها. وقد عملت بجد مع

زملائي على ألّا تكون مجلة الأقلام حكراً على أسماء معنية، لأنني لاحظت أن هناك عدداً من الكتاب العراقيين والعرب لا تسعى المجلة إلى التواصل معهم، وكأنهم في قائمة سوداء لا سبيل إلى انتهاكها، وربما كان أدونيس وكمال أبو ديب في مقدمة هذه الأسماء.

لقد نشر أبو ديب في الأقلام، خلال مسؤوليتي عنها، أكثر دراساته نضجاً وإثارة للاهتمام. وليس هناك إلا استثناء واحد ربما قبل ذلك. دراسة مهمة واحدة عن قصيدة البياتي (أولدُ وأحترقُ بحبي) وكان ذلك في عام. 980، كما أظن، أيام الناقد الراحل طراد الكبيسي. ولم يكن تفتّح المجلة على الحداثة في النظر إلى النصوص والتفاعل مع المقاربات النقدية الجديدة، موضع ترحيب من قبل البعض. أعني تحديداً أصحاب الرؤى التقليدية في طبيعة الأدب أو وظيفته، أو الطامحين إلى تولي المسؤولية في المجلة. كنت أدرك ذلك جيداً، غير أنني ما كنت أتصور أن يصل الأمر ببعضهم إلى حد استعداء وزير الثقافة علي شخصياً، وخاصة بعد صدور الملف الخاص (بالشاعر العربي الحديث ناقداً)، الذي صدر عام 1985.

دعاني الدكتور محسن الموسوي، ذات صباح، إلى مكتبه، وأطلعني على تقريرٍ مرفوعٍ ضدي إلى لطيف نصيف جاسم، الذي كان وزيراً للثَقافة والإعلام آنذاك. كان من أكثر التقارير إيذاءً، ومع أنه كان غفلاً من اسم كاتبه، إلا أن الخط كان مألوفاً لديّ. لحظة اكتشاف مؤلمة. كان خطاً جميلاً، غير أنه كان عارياً من حميميته القديمة، وبدا مشوباً هذه

المرة بشيء غير قليل من اللؤم. عرفت صاحب هذا الخط من أول كلمةٍ فيه. كان رفيقَ بداياتي الأولى، وزميلي في المجلة فترة طويلة. بل كان صديقي، أو ممن كنت أعتبرهم كذلك حتى الآن. يذهب هذا التقرير إلى أقصى حدود الاستعداء؛ يشير اليَّ باسمي صريحًا، وليس بالمسمى الوظيفي. ليكون النصل أكثر حدّة. إن علي جعفر العلاق، يفتح باب المجلة لكتابٍ معادين لفكر الحزب والثورة، ومرتبطين بدوائر الاستخبارات الغربية، كما أن كتبهم ممنوعةٌ من دخول البلد. ويذكر صاحب التقرير اسمين محددين من هؤلاء الكتاب: أدونيس وكمال أبو ديب.

لقد فاتَ كاتبَ التقرير، كما أشرتُ في ردّي عليه، أنَّ أدونيس وأبو ديب، كليهما، كانا يدعيان لحضور مهرجان المربد منذ منتصف الثمانينات، وكنت أعرف ذلك شخصيًا بحكم كوني عضواً في اللجنة العليا للمهرجان. وكانا يتذرعان، في كل مرة، بظروفهما الخاصة، إضافة إلى ذلك فإن كتاب (الرؤى المقنعة) لكمال أبو ديب كان قد فاز بالجائزة الأولى في معرض بغداد الدولي في تلك الفترة.

(5)

أتاح لي عملي في المجلة، الدخول إلى هواء الحياة الثقافية، بعمق، والارتباط بأفضل المواهب والأسماء فيها. كانت فترة، رغم توترها، ذات طعم خاص. لكنها كلفتني ثمنـًا مؤلمـًا: اكتشافي صداقاتٍ مغشوشة أو

فقداني صداقات حقيقية أحيانـاً. لـم أكن، يومـاً ما، ذا سلوك عـدوانيّ، غير أن مزاجي لا يسمح لي بالتهاون في أمـر النصـوص التي تنشـر في المجلـة. ولـم تسـعفني ليـاقتي في الحـوار أحيانـاً كـي أتحـدث بلغـة مداهنـة عـن نصوص لا تصلح للنشر.

مواقف تدفعني اليهـا جديـة صـارمة تتجـاوز الحـدود أحيانـا. مـا زلـت أذكر واحداً منها، بألمٍ حقيقيٍّ، مع الراحل الكبير الدكتور أحمد مطلـوب. كان أستاذي قبل أن يكون صديقـاً أعتز به. كتب مقالة عـن الشـاعر محمـد جميل شلش، وهو صديق عزيز عليّ أيضـاً. لـم أقتنـع بنشـر المقالـة حيـن أحسسـت وكأنهـا مكتوبـة بـدافع وحيـد: الوفـاء للصـداقة. كانـت دون المستوى الذي أعرفـه عـن كتابـات الـدكتور أحمـد مطلـوب علـى الأقـلّ. وكـم كنت سعيداً حين عادت علاقتي الجميلة به بعد سنوات، أما الصديق الشاعر محمد جميل شلش فلست أعرف، حتى هـذه اللحظـة، إن كـان مـا يزال يذكر تلك الواقعة أم لا.

ومن هذه المواقف التي ما أزال أسترجعها بخفقةٍ من مشـاعر الحـرج، موقفي من نصّ لكاتبة أحتفظ لها، مبدعة وإنسانة، بمودة كبيـرة. اختلفـت معها في قيمة ذلك النص، فلم أتساهل في نشره، مع أنني اقتنعت لاحقـاً أن الـنصّ يمكـن أن ينـدرج في سياق التنويـع والتجريـب لنـبرة الكاتبـة وهـي تحـرص علـى تطـوير قـدراتها الكتابيـة باسـتمرار. كـان إيقـاع العمـل، في المجلة، وتفاصيله ينسيني أحيانـاً أنني مشروط بمحيط معـين، لا يتسـامى كثيراً على ذاته. ولا يترفع عن حساباته الصغيرة، أو انحيازاته الضيقة. كان

عليّ أن أتحلى بقدر من المرونة، وهي تسمية مخففة ربما لموهبة النفاق أو المداهنة، التي تعي الواقع وتقلباته. وقد يكون في المقطع التالي من شهادةٍ للقاص الراحل عبد الستار ناصر، نشرها في جريدة القادسية بتاريخ 5-7- 1987، ما يضيء تلك اللحظة بالغة التوتر. كان يتحدث فيها بلغةٍ نضاحةٍ بالألم والسخرية المرة عن سلوكي في إدارة المجلة:

«رئيس تحرير أفضل مجلات العراق الأدبية، لكنه، حقا، لم يستثمر هذا (النعيم) كما يفعل آلاف رؤساء التحرير في نيكاراغوا وإسبانيا والقاهرة وباريس وبيروت وشارع جديد حسن باشا.. ومن هنا تراه مرشحا جاهزا، في ذهن الجميع وموافقة الجميع، لأي منصبٍ ثقافيٍّ أو إداريٍّ أو عاطفيّ.. ». ولا أشك، لحظة، في أن هذه المواقف دفعت البعض إلى أن يقف مني موقف المناوءة، محقاً أوغير محق، خاصة وأنني مجردً من أية صفة في السلوك، أو الانتماء الحزبي تعينني على تجاوز تلك الكمائن والمطبات.

(6)

حين يكون نظام الحكم، أيّ حكم، صارمًا إلى حد مبالغ فيه، فليس في المستطاع أن تتفتح، في الهواء الطلق، مجلة ذات منحى مستقل تمامًا في تطلعاتها الجمالية أو الفكرية مثل شعر أو الآداب أو مواقف أو الكرمل على سبيل المثال. حتى أن المرء لا ينسى تجربة مجلة الشعر 69، تلك

المجلة الطليعية التي لم تواصل الصدور أكثر من بضعة أعداد. لقد ضاقت بها، الذهنية الرسمية، والذائقة التقليدية على حد سواء.

ولم تكن مجلة الأقلام عرضة لوشايات بعض الكتاب فقط، بل لضغوط أمنية متكررة. أذكر أنني استدعيت، ذات مرة، من قبل مدير العلاقات في الأمن العامة لأمرٍ لم يتضح لي إلاّ بعد دخولي إلى مكتبه الواسع. كانت المجلة قد نشرت قصة قصيرة للراحل عبد الستار ناصر، وكانت على قدر من الجرأة في إيحاءاتها الجنسية. كان مدير العلاقات يظن أن القصة منشورة في مجلة المورد، ولم يكن يعرف أن المورد تعنى بالتراث، لا بالأدب الحديث، ولم يدرك أيضاً أنني مسؤول عن مجلة الأقلام لا مجلة المورد.

على أثر حواري معه أملى على سكرتيره الخاص جملة من التعليمات يمنع بموجبها عبد الستار ناصر من النشر أو الظهور في أي منبرٍ إعلاميّ. قال ذلك بنبرةٍ قاطعةٍ لا تخلو من غِلْظة. قلت له أن هذا الكاتب تحديداً غير محتاج أصلاً للنشر داخل العراق، لأن فرصة النشر متاحة أمامه في أماكن كثيرة في العالم العربي، خاصة بعد أن دخل السجن بسبب قصته القصيرة: سيدنا الخليفة. كما أن منع كاتبٍ ما من النشر ليس عقوبةً له، بل هو إغراءٌ لقرّائه ومتابعيه. وهكذا غيّر المسؤول الأمنيّ موقفه السابق وأمر سكرتيره الخاصّ بإلغاء تعليمات المنع بحق عبد الستار ناصر.

وذات مناسبةٍ تعبويةٍ، كنا مجموعة من الشعراء، نجلس في منتصف القاعة تقريباً. بينما كان وزير الثقافة، لطيف نصيف جاسم، يجلس، لتحسبات أمنية في الصف الذي وراءنا مباشرة. كان إلى جواره الشاعران عبدالأمير معله ويوسف الصائغ والدكتور محسن الموسوي. وفي اللحظة التي اتجهتُ فيها إلى المنصة كان الوزير قد خرج إلى غرفة جانبية للرد على مكالمة هاتفية من مكتب الرئاسة، كما عرفت لاحقاً. لم يطل الأمر به كثيراً فقد عاد إلى مكانه في اللحظة التي غادرت فيها المنصة. كان الوقت الذي استغرقته قراءتي للمقاطع الشعرية أقل من الوقت الذي استغرقته مكالمته الهاتفية القصيرة. لم يسمع الوزير ما قرأت طبعاً:

كلما انتشر الصبحُ بين القصبْ

فتحَ الهور قمصانَهُ للندى،

ومواقدَهُ لأنين الحطبْ..

قهوةٌ مرةٌ، ورمادٌ اليفٌ،

وشمْسٌ مبللةٌ بالذهبْ..

كان هذا هو المقطع الأول من قصيدة «زفاف علوان الحويزي» وكان يقع، كما هو واضح خارج موصفات القصيدة المهرجانية التي تندرج في سياق التعبئة والتحريض. أما المقطع الثاني فقد اقتطعته من قصيدة ثانية بعنوان «غيم القصيدة»:

غرفٌ لأحبابي القصيدةُ، والسريرُ لهم ردائيْ
أُدني لوحشتهم دَمِيْ، ولخيلهم قلقي ومائيْ
قمر الترابِ يضيءُ أوجههم
ويمزجُ بالدماءِ
لون القصائدِ والعصافيرِ القتيلةِ والنساءِ..

بدا لي، لحظتها، أن الوزير كان يريد الاطلاع على ما قرأت من مقاطع شعرية في غيابه. لاحظت أنه همس بذلك للشاعر عبد الأمير معله الذي طلب مني أن أريه القصائد التي قرأتها قبل دقائق. أحسست أنني في مأزق حقيقي فالمقاطع الشعرية كانت قصيرة جداً، وكنت أحفظ معظمها عن ظهر قلب، ولم يكن في الورقة إلاّ جزءٌ يسير منها. أعادها الوزير إلى عبدالأمير معله وكان الامتعاض واضحاً على ملامحه. ربطت، في تلك اللحظة، بين تجهم الوزير وبين استيائه من عزوفي عن المشاركة في المهرجانات الشعرية التعبوية، ذلك الاستياء الذي وصلني، أكثر من مرة، عن طريق د. محسن الموسوي.

بدأت الأجواء من حولي تزداد ضيقاً على أكثر من صعيد، وامتلأ الهواء بالكمائن والنوايا التي لا تسر. ذات يوم التقيت بصديق كان يعمل مديراً عاماً في الوزارة، ثم صار، لاحقاً، شخصية مرموقة في الدولة. نقل لي، في لحظة اعتراف نادرة، ما دار في اجتماع برئاسة الوزير. حين وصل

المجتمعون إلى فقرة تتعلق بترشيح من يمثل العراق في اجتماع لاتحاد الكتاب العرب في ليبيا، قال الوزير بنبرة حاسمة: رشحوا لهذا الإيفاد ياسين طه حافظ وعلي جعفر العلاق، فلكل منهما كتابه الأخضر أيضاً! لم يفسر الصديق ما كان يعنيه الوزير بالكتاب الأخضر، مع أنها إيماءة لا تخفى، وبداية علنية لما سوف يأتي، خاصة أنها قيلت أمام من بأيديهم الحل والربط، بعد الوزير مباشرة، من حيتان الوزارة.

كان أمر إقصائي من المجلة، كما يبدو، قد أخذ يتجاوز حدود الإيحاء أو النوايا، حتى أن المدير العام لدائرة الشؤون الثقافية قد فاتح، كم سمعت، عدداً من الكتاب لتولي رئاسة التحرير. وفي تلك الأجواء المحمومة زارني الصديق الناقد فاضل ثامر وسألني عما إذا كنت أعرف شيئاً عما يُحاك ضدي. لم تذهلني المفاجأة لكنها آلمتني بعمق. كنا في منتصف النهار تقريباً طلبت مقابلة الوزير غير أن مدير مكتبه، حاول أن يعتذر عن المقابلة بالنظر لارتباطات الوزير ومشاغله. وبعد أن رأى ما أنا فيه من توتر استجاب على مضض.

تحدثت مع الوزير بصراحة عما يدور في الأجواء. وقلت، بنبرة لا تخلو من اعتداد بالذات، إن حرصي على تطوير المجلة لم يكن انتظاراً لمكرمة ما، كما يفعل الكثيرون، بل لأن لي اسماً أعتز به ولا أريد له أن يقترن بمجلة هزيلة. ودفعني الانفعال إلى استذكار بيتٍ قديمٍ جرى تداوله

في الأدبيات التاريخية بين الخليفتين عثمان وعلي، يوم حوصر الأول في بيته من قبل المتمردين:

فإن كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ وإلّا فأدْركني، ولمّا أمزَّقِ

لا أدري إن كان الوزير قد أدرك تماما ما أنا فيه من غضب مكتوم في تلك الظهيرة الحامية، لكنه أحسّ أن هناك أمراً لا بد من تداركه. وفي اليوم الثاني دعانا الوزير إلى اجتماع يضم رؤساء تحرير المجلات ومعهم مدير عام الدائرة بالطبع. لم يتحدث الوزير عن مقابلتي له قبل يومٍ واحدٍ فقط، لكنه أكد بلغةٍ فضفاضةٍ عن رضاه عن المجلات الثقافية. أحسست لحظتها أن لغته المريبة تلك كانت تؤكد الموقف منّي أكثر مما تنفيه.

(7)

لم يطل الوقت كثيراً حتى بدأت الكأس تختنق بما فيها. كانت وزارة الإعلام تعمل على تنظيم واحد من مهرجاناتها الكثيرة. معرضٌ لكتب الرئيس العراقي المترجمة إلى مختلف اللغات. كان افتتاح المعرض مساءً وقد حضر الافتتاح، كالعادة، الكثير من موظفي الوزارة. لم أكن بين الحاضرين في ذلك الاحتفال، كما أن الشاعر ياسين طه حافظ، رئيس تحرَير مجلة الثقافة الأجنبية، لم يحضره أيضاً، وهذا ما عرفته لاحقاً.

وفي صباح اليوم التالي فوجئت بمجيء الدكتور محسن الموسوي إلى غرفتي. كان يحاول أن يمزج الجد بالمزاح، وأن يخفي حرجه بمرحه

المعهود. انتقلنا إلى الغرفة المقابلة حيث يجلس الشاعر ياسين طه حافظ. كان واضحاً أن الموسوي يعيش لحظة من أكثر لحظاته حرجاً أو إحساساً بالذنب ربما. أخبرنا أن الوزير أمر، بعد أن لاحظ تغيبنا عن المعرض بإعفائنا من رئاسة التحرير في مجلتي الأقلام والثقافة الأجنبية. كان الأمر الوزاري ينصّ على إحالة ياسين طه حافظ على التقاعد لأنه كان في سن تسمح بذلك، وعلى نقلي إلى دائرة الإعلام الخارجي التي كان يديرها الصديق د. ناجي الحديثي. ومن الذين تم إعفاؤهم من مواقعهم الصديق الناقد حاتم الصكر، وقد كان رئيساً لتحرير مجلة الطليعة الأدبية، غير أنه بقي في دار الشؤون الثقافية حتى هدأت الأمور ثم عين، لاحقاً، رئيساً لتحرير مجلة الأقلام.

لم يكن الأمر بالنسبة لي مفاجئاً، فقد كان الإعداد له جارياً، كما أعتقد، منذ فترة. رفضت الالتحاق بعملي الجديد طالباً نقلي إلى الجامعة أو إحالتي على التقاعد. ولم أحظ بالموافقة على إحالتي على التقاعد إلا بعد ثلاثة أشهر من المتابعة الشاقة، وبعد أن قابلت وزير الثقافة شخصياً.

(8)

دعيت، خلال هذه الفترة، للمشاركة في مهرجان الشعر العربي الإسباني، الذي عقد بصنعاء في تموز 1990. وقعت، هناك، عقد عمل مع جامعة صنعاء، بمبادرة من الصديق د. عبد الوهاب راوح عميد مركز

اللغات ومساعدة مشهودة من د. عبد العزيز المقالح. وبعد أن عدت إلى بغداد أتممت إجراءات التقاعد. لكنني لم أستطع مغادرة البلد إلا بعد نهاية الحرب، وبعد أن رفعت القيود عن سفر العراقيين في مايس 1991.

في اليوم الثاني لوصولي إلى عمان ذهبت لزيارة الدكتور خالد الكركي، وكان وزيراً للثقافة آنذاك. وجدت لديه مجموعة من الأصدقاء القادمين من بغداد، كان من بينهم الراحلان الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد والفنان المسرحي قاسم محمد. ومن مكتب الدكتور الكركي اتصلت بالدكتور عبد العزيز المقالح، الذي كان رئيساً لجامعة صنعاء في تلك الفترة، للسلام عليه وإبلاغه أنني في الطريق إلى صنعاء بعد يومين.

أطول ليلةٍ في التاريخ

(1)

عدت إلى البيت في منتصف الليل تماماً، بعد أن التقيت، في فندق بابل المطل على نهر دجلة، مجموعة من الشعراء العرب. كان أكثرهم أصدقاء تعود معرفتي بهم إلى سنوات مضت، حين شاركوا في مهرجان المربد أو في مهرجانات عربية أخرى. كانت زيارتهم جزءاً من تعاطف وجداني في تلك الفترة الحرجة. أحسست، وأنا أعبر الجسر المعلق أن مخلوقات غامضة، تكمن في ماء النهر، وتصدر خليطاً من الغمغمات كأنها بداية نواح مكتوم. لم يكن جريان النهر كما عهدناه، عامراً بالموج أو النشوة الحسية الطاغية، بل كان على عكس ذلك كله: فاتراً ومثيراً للشفقة إلى حدود بعيدة.

عقرب الساعة، في تلك اللحظة، كان مغموساً بالدم لا بالنوم، وكانت رائحة الهلاك والترقّب المرّ تقود أهل بغداد معها إلى الساعة الثانية والنصف من ليلة 17/ 1/ 1991. هل كان يدرك، ذلك الخيط المعدني النحيل، أن ليلتنا تلك ستطول إلى ما لا نهاية؟ وأنه سيغرق، بل سنغرق معاً، في ليل لم يسبق لبغداد أن رأته، ولم يسبق لأهلها أن شهدوا ليلاً مثله؟ لقد كان، حقاً، أطول ليالي التاريخ كلها: بدأ مرعباً ومدويّاً، كزلزال كونيّ، واستمرّ مهلكاً وكثيفاً، حتى هذه اللحظة.

كنّا، ومنذ ستة أشهر، أعني منذ بداية الحصار، معبّئين بالقلق والذبول اللذين أخذا طريقهما إلى بيوتنا، ونشرا ظلامهما على كل شيء. كنّا نهرع، وحسب تعليمات مديريّة الدفاع المدني، إلى إعداد أنفسنا لريح هوجاء قادمة. وكأن تلك التعليمات كانت تهيّئنا لانكسار مؤكد، أو نصر مشكوك فيه. وعلى مدى اليوم كله كنّا نتلقّى ما يرشدنا إلى ما نفعله حين تبدأ غربان الحديد المهلكة زحفها الكاسح. وهكذا كان على كل واحد منا أن يجيد التعامل مع صفّارات الإنذار، والشموع السوداء. وزجاج الشبابيك، والأشرطة اللاصقة، والزوايا الصلبة من الجدران.

(2)

إنها لمفارقة دامية حقاً. أنّ أجواء الموت تلك لم تكن جديدة علينا تماماً؛ فعلى مدى عشر سنوات، خلال الحرب مع إيران، كان الموت من الكائنات الأليفة: يشاركنّا نومنا، وأيامنا، وقصائدنا. كان صديقنا البغيض، أو ضيفنا المفروض علينا: لا نملك أن نطرده من نفوسنا المتوتّرة، وليس لنا أن نحس إزاءه بالمودّة.

وحين انتهت الحرب مع إيران (هل انتهت حقاً؟) أقبلنا على الحياة من جديد متوهّمين أن تلك الحرب هي آخر الحروب، وأن الوقت قد حان لأن يتوقّف نموُّ المقابر. كنّا نظن أنهم سيتركوننا نعانق الحياة بشغف حقيقي، حالمين بوطن حميم تزدهر فيه الأنهار لا السجون، والشعر لا

قسوة القلب، وكرامة الإنسان لا خشب التوابيت.

كان لقائي بأصدقائي من الأدباء العرب باهتًا ومفتقراً إلى البشاشة إلى حد لا يخفى. بدت لي بغداد، في تلك الليلة، شديدة التوتّر والبهاء: توتّر الواثق من انكساره دونما ندم، وبهاء المقبل عليه دونما تخاذل، وكان ليلها مشحونًا بالانتظار والمفاجآت. هشًا، ولكنه رغم ذلك كان عامراً بالشعر والسهر وتنهّدات الماء، وبخطب جلل أيضًا. حين وصلت البيت، وجدته، بل وجدت الحي كله غارقًا بالصمت. كان للظلام رائحة لزجة، والسكون يكاد يتشقّق عن صراخ وشيك. وكنت كمن ينزلق من حافة نعاسه العالية إلى ماء النوم أو التهلكة.

(3)

بعد أن اشتعلت بغداد، فجأة وكأنها أفق من البراكين الحمراء، سال علينا طوفان من طيور مشؤومة. يخرج إلينا من كل مكان: من الصحاري، وشقوق الليل، والمياه السوداء. جبروت العصور كلها دفعة واحدة. كانت الطائرات المغيرة وصواريخ كروز تهبّ من جهات العالم العشر مكتسحة في طريقها كل شيء: النوم، والجسور، ومنتزهات الأطفال. كانوا يحرثون العراق كله: سماءه، وحضاراته، ومياهه. ويصنعون، وبهمجيّة مخجلة، أطول ليالي التاريخ: تطايرت شظايا النهر، وتبعّثرت ضفّتاه كما تبعثر العراقيون لاحقًا تحت نجوم الله، وسال على الليل دم محترق ونعاسٌ بريء. السماء والأرض ترتجّان ارتجاجًا مخيفًا، والناس يهربون

مذعورين على صوت سماء تنهار، وأرض تتناثر، ووطن يخرج من أحلامه الكبيرة ليعود إلى رماده القديم مرة أخرى.

ما كنّا نصدّق أن ذلك الليل الممعن في عتمته وشراسته يمكن أن ينتهي. هل سنشهد، ثانية، بداية نهار جديد؟ ما كان لأحد منا أن يتذكّر ليلاً بهذا الطول. لقد استهدفت الموجة الأولى من القصف محطّات الطاقة الكهربائيّة، ومراكز الاتصالات، ومحطّات البثّ الإذاعي ومواقع التقوية لهذا البثّ. وهكذا كانت الظلمة محكمة على المستويات كافة: وضعوا البلد كله في بحر متلاطم من الظلمات، وأعادوه، حقاً، إلى ما قبل عصر الضوء.

فكّر البعض في ترك بغداد، حيث كثافة التدمير، والاتجاه إلى المدن الصغيرة أو القرى النائية، كانوا يظنّون أن أجنحة الموت لا تحوّم هناك. لكنّهم سرعان ما اكتشفوا أن الأمر لم يكن كذلك، فعادوا إلى أماكن سكناهم في بغداد مرة أخرى مخلّفين وراءهم قرىً مجرّحة، ونجوماً تنزف. بعد أن أدركوا أن كل شبر من العراق كان يتلقّى حصّته من الموت والضغينة.

(4)

من كان يظنّ أن ليل بغداد سيبلغ هذه الدرجة من السواد والدمويّة في يومٍ ما؟ كان الواحد منّا مختنقاً بالعتمة والذعر طوال الليل، ولم يكن في

إمكان أيّ منا أن يرى شيئاً مما يحيط به. ظلمة تحجب كل شيء: موتنا، وأجسادنا، وكمائن الطريق. وكان إحساسنا بالموت يبلغ منتهاه في ذلك الليل البهيم. وكأن الصواريخ والقنابل المدويّة لا تجد فرصتها في الإبادة إلا في الظلمة، وكثافة القلق والنعاس.

وخلال تلك الليالي المرّة كنّا، أو كان الكثير منا على الأقل، يوزّعون أطفالهم على الملاجئ، أو بيوت الأقرباء متوهّمين أن في استطاعتهم مراوغة ذلك الموت المخيّم على كل شيء، أو أنهم سيقلّلون حصّتهم من الهلاك. ولم يخطر ببال أحد منا أن تكنولوجيا الإبادة قد وصلت حدّاً من الهمجيّة لم تشهد البشريّة له مثيلاً.

كان ملجأ العامريّة واحداً من أكثر الأمثلة وحشيّة، حيث اختلطت أشلاء الأطفال والنساء بالحديد المصهور وكتل الإسمنت. كانت أجساد الكثيرين منهم، أو بقاياها، ما تزال عالقة بالجدران، والحجارة المهشّمة. لقد تحوّلت إلى بقع من الدم الأسود، والاستغاثات المكتومة التي ظلت مشتبكة بهواء الملجأ وذاكرة الناجين من المذبحة حتى هذه اللحظة. وما يزال بعضهم، إلى اليوم، مجهولي الاسم والملامح. لم يضمّهم قبر، أو تابوت. كما أن البعض الآخر حمل إلى قبرة مبتوراً، دون رأس، أو دون تشييع، أو دون يدين. كان الموت في تلك الليالي الدموية القاتمة مريعاً وشاملاً.

(5)

لماذا كان الموت، خلال تلك الليالي الهوجاء كالبراكين، لا يكمن لنا إلا في الظلمة؟ كان ليليّاً وغادراً إلى أبشع الحدود. وكنّا معرّضين له، في الليل، كالطرائد المنهكة: ليس لنا إلا نومنا الملطخ بالدم والشظايا. عاجزين عن فعل أيّ شيء إلا انتظار الهلاك، والنقمة على صنّاعة الآثمين.

ومع كلّ فجر، كان يهنئ بعضنا بعضاً بعودتنا سالمين إلى نهارٍ جديد، وكأننا نرى الحياة لأوّل مرّة، ونحن نهبط من أسرّتنا الموحشة كالآبار.

بعض من تلك الليالي المشحونة بالخوف والترقب، ظل عالقاً بقصيدتي «الملاذ الأخير»، والتي غناها لاحقاً الفنان علي عبد الله. كنا نسكن بيتين لا يفصل بينهما إلا بضعة أمتار من البرد والظلام، لكننا تشاركنا تلك الحقبة الطافحة بالدم، والخيلاء، وعويل السلالات الكامن في العروق:

أدخلي شجرَ النومِ..
مشتعلاً سوف أكمنُ للموتِ
أطردُهُ عن غزالِ السريرْ..
شجرُ النومِ تنهشُه الطائراتُ..
وتجرحُ عشبَ الفضاءِ الكبيرْ..
أين يأخذُنا الليلُ:

للنومِ؟ للريحِ؟
أم للملاذِ الأخيرْ..؟

(6)

وفي لحظات الهدوء المتقطّعة، أعني بين موجة قصف وأخرى، كانت بغداد، وهي في ظلامها المهيب، تبدو في غاية المكابرة. لم نكن نتصوّر، قبل ذلك الوقت، أن نجومها ساطعة وغزيرة إلى هذا الحدّ. كانت تبدو وكأنّها، بتوهّجها الدمويّ هذا، تضيء زوايا التاريخ كلّه. وفي تلك الليالي الشتويّة الملتهبة، كثيراً ما كان النهار يتكشف عن بيوت مغطاة بالأمطار الداكنة؛ كان الفضاء كلّه مشبعًا برائحة المتفجّرات، ورماد المباني، ودخان الطائرات المغيرة.

ولن أنسى كيف أمضينا، الفنان علي عبد الله والقاص أحمد خلف وأنا، تلك الليالي المخيفة. لقد كنّا، كما كان سوانا أيضًا، شهوداً على واقع لا مثيل لوحشيته. كان صديقي الفنان علي عبد الله يأتيني، كل ليلة تقريبًا، حاملاً عوده الشجي تحت عباءته. كأنه يتأبط قلبًا مذعوراً. وكنا نحاول، مع عوائلنا، أن نواجه ذلك القبح كله، بالفرح الصعب، والموسيقى، والشعر، والغناء الصاعد من أرواحنا كالندم.

4

كأنّني آخر النــاجين

(1)

اكتشفت، في صنعاء، وأنا أمضي ليلتي الأولى في دار الضيافة، في السكن الجامعي، أنني أسكن الغرفة المجاورة للشاعر الكبير سليمان العيسى. وبعد أن التقينا صباحاً وتناولنا إفطارنا، انطلقنا سوية إلى مكتب الدكتور عبد العزيز المقالح في رئاسة الجامعة. أدرك الشاعر العيسى ما أنا عليه من وضع نفسي مشتّت، فقال: أعلم جيداً ما أنت فيه، لكن عليك أن تهدأ قليلاً وأن تتعود على نسيان ما حدث لبغداد. كنت في منتهى القلق والتوتر: ذاتاً يمزقها التلفت، وذاكرة تتقاذفها أجراس من العويل والقرارات الكارثية. كنت، أبدو، كأنني آخر الناجين من المذبحة:

منحدراً من قصائدَ عاليةٍ

أتناثرُ، أبحثُ في الريحِ عنّيَ..

لا جسدي جسدي، لا الرمادُ رماديْ..

آتياً من دمٍ نائحٍ، آتياً

من بقايا بلادي..

وما إن جلسنا إلى الدكتور عبد العزيز المقالح حتى لامستُ، من جديد، دفء هذه الشخصية العظيمة التي طالما أسرتني في زياراتي السابقة.

(2)

تعود علاقتي بصنعاء إلى منتصف الثمانينات. زرتها للمرة الأولى عام 1985. وبدأ تآلفي معها منذ نزولي في مطارها الصغير، الملموم على نفسه بحميمية واضحة. كانت الطريق إلى فندق سبأ توحي، إلى حد بعيد، بطبيعة هذه المدينة التي كنت أراها لأول مرة: مدينة أهيئ لها، منذ تلك اللحظة، مكاناً على سرير وثير من التوقعات، كما كنت قد هيأت لها مكاناً، من قبل، في الذاكرة. لقد عاشت معي صنعاء قبل أن أراها، حلماً، أو هاجساً أووهماً.

كم كبير هو الشبه بين المدن والنساء: فالجميلات يملأن حواسنا في كل لحظة، لكننا لا نجد المتميزات منهنّ دائماً. وكذلك هي المدن. إن الكون مليء بالمدن الجميلة التي تنهض شامخة، وضاءة، كثيفة.. لكن هذه المدن تظل متشابهة في الغالب: غابات من الأسمنت والحديد الأصم، لا تقودك أي منها إلى روحها الخاصة أو جسدها المتفرد. إنها عمارات تجرح الغيم، وأضواء كأنها شرر يتطاير من فرن كوني، وكتل مخيفة من الضجيج الخانق الذي يبدو، في أحيان كثيرة، وكأنه نوع من الصخب الأخرس، أو لغة من لغات العزلة: لا توحد بين البشر، ولا تعينهم على الإفضاء إلى بعضهم بعضاً، ولا تؤرجح أجراس حناجرهم في هواء إنساني نظيف.

لهذا كله، فإنني أجد في صنعاء نموذجاً للمدينة الخاصة إلى أبعد الحدود، مدينة إنسانية قبل كل شيء. بشر مفعمون بالحياة والأسى والإرادة. ينضح ترابها بمكنونها الدافئ، وتكاد حجارتها تئنُّ تحت يديك الحانيتين. وعلى الرغم من أن صنعاء أخذت، منذ سنوات، تخلع عنها ثيابها الترابية، وتهجم على الحياة الجديدة بكل ما فيها من لين وتنوّع، إلا أن أحياءها القديمة لا تزال تحتفظ بخصائصها الأولى حيث يختلط الغبار بالضوء، والطيبة بالشراسة.

كنت قادماً بذاكرة مشحونة بالكثير من التفاصيل عنها. عن ماضيها المحفوف بالشعر والفروسية والنساء الملكات. وكان عليّ أن أصفّي حسابي مع مخزون الذاكرة أولاً، وأن أعيد التوازن بين حجارة الواقع وسيولة التوقعات. بين صنعاء الذاكرة، التي تسطع على عرش من فتوة الماضي وشهوات الروح، وصنعاء الخبرة الحسية الموجعة.

غير أن صلتي بهذه المدينة الساحرة أخذت منحى آخر منذ عام 1991، بعد أن عملت في جامعتها أستاذاً. ما كنت أظن أن مدينة واحدة يمكن أن تتجاور فيها الأزمنة المتباعدة بهذا التجانس الرهيب. حين ذهبت إلى صنعاء القديمة، كان الماضي المهيب والجدة الناعمة يتشابكان تشابكاً غريباً، لقد كانا يقيمان تحت حجر واحد، ويشربان من كأس واحدة، فليس هناك من فاصل مكاني بين قديم صنعاء وجديدها.

كان الشارع الملتهب بالأضواء والغبار يقذف بي إلى صنعاء القديمة:

طينٌ دافئ يلوّح لي بعطره القديم من البيوت القائمة، ونسيمٌ ذو ملمس خاص يتسرب إلى شقوق الروح فيغمرها بالبشاشة تارة ووحشة التأمل تارة أخرى. صنعاء القديمة ليست أبنيةً تعود إلى الماضي، أو تذكّر به، بل هي ماض ممتلئ، يكشف عن مكنوناته للنهارات الجديدة وصخبها المربك. وهي ليست ماضياً هاجعاً، هناك، دونما حركة أو إيماءة. بل هي، على العكس من ذلك كله، شحنة من عذوبة الماضي وحكمته وفوضاه، تندلع في تفاصيل الحياة اليومية مثلما النار، أو الماء، أو دبيب الرغبة.

أتذكر، منذ زيارتي الأولى لصنعاء، كيف كنت مأخوذاً بتلك النسائم التي تهبّ عليّ من بيوتها المتراصّة ونوافذها المفعمة بالبخور والحنين. مبهوراً، كنت، بمنظر السماء وهي تنحني على السطوح والأسوار وتلال الضواحي، وتمتزج بذلك النداء الروحي الذي يتصاعد مع تنهدات المآذن العالية.

كان مشهداً شديد الجلال والإثارة، خاصة حين ينتشر الأذان ممتزجاً بنسيم الفجر، وذائباً في ذلك الغبش الناعم. كانت ضجة المآذن الصنعانية تجردني من وشائجي الأرضية لتعيدني إلى نفسي مرة ثانية. وكان يعصف بي، وأنا أصغي إلى الأذان، تلهفٌ جارف إلى الاندغام بذلك الفجر الصنعانيّ فأحسني نقياً وخفيفاً. تحملني ريحٌ خضراء بعيداً عن جدران فندق سبأ ومرمره البارد. ولم أكن أعلم، قبل تلك الليلة التي كان ظلامها

يوشك على الذوبان، أن الصوت وحده يمكن أن يفعل بي كل ذلك. لا أبالغ إذا ما قلت إنني لا أعرف مدينةً، كصنعاء، جمعتْ بين شقوق حجارتها الماضي والحاضر معًا، وأخفتْ وراء بساطتها الظاهرية تعقيداً بالغ الثراء والفتنة. إنها مدينة محيرة حقًا، فهي تندفع إلى الحاضر بتلهفٍ لا يقاوم، لكنها تترك، وفي الوقت ذاته، جزءاً منها مغروسًا في الماضي حيث الشعر والأساطير وحكمة التراب.

(3)

كان في صنعاء، ثمة، شارعان تربطنا بهما، كأساتذةٍ، علاقةٌ يومية. الشارع الواصل بين السكن الجامعيّ والشارع الدائريّ المؤدي إلى المبنى الرئيس للجامعة. وفي ملتقى هذين الشارعين هناك نصبٌ يحمل عبارةً شديدة الدلالة: «الحكمةُ يمانية». كل يومٍ يمرُّ على وجودي في المدينة كان يقربني من شخصية الإنسان اليمني: دهاءٌ تلقائيٌّ، وبداهةٌ لا تخطيءُ هدفها في الفهم واختصار النقاش، أو كسبه إن شئت.

وهو، إلى ذلك، ذو انتماء أصيل لكل ما يلفّ العرب من ألم وتطلعات. وما زلت أتذكر ما قال لي شابٌ يمني في مقتبل شبابه. كنا معًا في إحدى سيارات النقل العام الصغيرة في شارع الزبيري والتي يسمونها دبّاب. حين علم أنني عراقي، علّق وبتلقائية صافية: عليّ أن أتوضأ قبل أن أذكر اسم العراق. كان تعاطف اليمنيين شديداً مع العراق، وإيمانهم كبيراً

بمواهب أبنائه العاملين في شتى التخصصات هناك.

وذات ظهيرةٍ ساطعةٍ، أدركتُ حكمةَ الإنسان اليمنيّ. اندلع شجارٌ بين شابين يمنيين، وكان كلاهما مسلحاً بجنبيّةٍ، وهي خنجر كبير معقوف. وسرعان ما احتدم ذلك الشجار وتطور إلى اشتباكٍ عنيفٍ بالأيدي، وبدأ الدم ينزف من وجهيهما.

حاولتُ، مع آخرين، الحيلولة بينهما، غير أن معظم محاولاتنا كادت أن تذهب هباءً. كنا أمام فتوّةٍ تتفجر بغضبٍ لا يبرد بسهولة. وكنا نخشى من تطور ذلك الاشتباك إلى استخدام الجنبيات. غير أن المفاجأة، بالنسبة لنا، أنَّ أيّاً من الشابين لم يسحب خنجره المعقوف. كانت الحكمةُ اليمانية ورباطةُ الجأش حاضرتين، رغم ذلك الدم كله، بطريقةٍ تثير الدهشة. تبين لنا لاحقاً أن الجنبية لا تُسحبُ من غمدها، في عرف اليمنيين، إلا بقصد القتل، قصداً لا رجوع عنه. لأنّ إرجاعَ اليمنيّ خنجره إلى غمده، صافياً برّاقاً لا يقطر دماً، وهو في مواجهةٍ حقيقيةٍ، أمرٌ لا يليقُ برجولته. فهل كان غضبُ الشابين، رغم اشتباكهما الدامي، لم يبلغ بهما قصد الإهلاك؟ ربما. ولذلك فإن الحكمة ردعت كلاً منهما عن سحب خنجره المميت حتى تلك اللحظة.

وللجنبية، في حياة اليمني، منزلة كبيرة، فهي ليست مجرد سلاح يحمله ليستعين به على الطريق أو قطّاعها. بل هي، أيضاً وأساساً أحياناً، منطلقٌ خصبٌ للكثير من الدلالات السيميائية. مؤشرٌ اجتماعيٌّ أودينيٌّ أوإثنيّ.

فقد يكون لحمل الجنبية دلالةٌ على الثراء حين تصنع بمقبض من العاج وتطعّم بالذهب والأحجار الكريمة فتكون غالية الثمن عادة. كما أن طريقة ارتدائها، في الوسط، أو مائلة إلى أحد الجانبين، قد تحدد دلالتها على الأرومة الكريمة وعلوّ النسب..

(4)

مازلت أذكر، حتى هذه اللحظة، أول يوم أرى فيه صنعاء منتصف الثمانينات. بدأت يومي ذاك بزيارة جامعتها حيث التقيت رئيسها الشاعر الكبير عبد العزيز المقالح لأول مرة. كان شخصيةً مؤثرة، يجتمع فيه، وبتجانسٍ عجيب، دفء الإنسان اليمني وذكاؤه، وتلقائيته. قارئ من طراز عميق، ومتابع لا نظير له لما يجري في الوطن العربي من تحولات ثقافية وسياسية، وما يظهر من أسماء، وما يستجد من إصدارات.

وعند الظهيرة أيقظني جرس «التلفون» من غفوةٍ لم تكتمل بعد؛ كان السائق ينتظرني في بهو الفندق ليأخذني إلى المقيل. لم تكن هذه الكلمة جديدة عليّ تماماً، فقد سمعتها من قبل، أو خيل إلي ذلك، ربما بسبب القرابة الاشتقاقية بينها وبين القيلولة، حيث اعتدنا، في العراق، النوم ساعة الظهيرة هربا من جحيمها القاسي.

بعد إقامتي في صنعاء صرت على ألفة بعالم المقيل، إلى حد ما، مع ان حضوري جلساته كان انتقائياً ومتقطعاً، إذ لم أجد في تناول القات ما

يغريني بالمداومة. ومع ذلك كنت أستمتع كثيراً بما يثار في المقيل من نقاشات. كانت متنوعة على الدوام، وعميقة في الغالب، وكأنها مرآة تعكس، بحيوية فائقة، وعي الإنسان اليمني ونباهته، وموقفه من الحياة والناس والسلطة وأحداث العالم.

(5)

تبدأ جلسة المقيل عادة حوالي الثالثة ظهراً وتنتهي في السابعة مساءً أو ما يقارب ذلك. غير أن الاستعداد للمقيل يبدأ منذ انتصاف النهار تقريباً، حيث يتقاطر الناس على أسواق القات المنتشرة في شوارع صنعاء وأحيائها. وتتشبع شوارع المدينة وأزقتها الضيقة برائحة ظهيرة خضراء. ويتفاوت القات في أنواعه، وأسعاره، ومناطق زراعته، وقوة تأثيره. ومن أكثر أنواعه شهرة: الشامي، والضلاعي، والأرحبي، وهناك من يعرفه جيداً بمجرد النظر إلى أوراقه.

ثمة برتوكولات للمقيل اليماني كان يجهلها بعضنا، نحن المقيمين في صنعاء، أحياناً. تبادل التحيات، مثلاً. يكتفي اليمنيون غالباً بالقول: السلام تحية. عبارة واحدة تختصر الترحيب كله، وتنوب عن المصافحة أو العناق. أما المصافحة فليس من المستحسن أن تخصّ بها بعض الحاضرين دون سواهم، إلا إذا كنت أو كانوا من الضيوف أو العائدين بعد غياب طويل، وباستثناء ذلك على القادم إلى المقيل أن يكمل

مصافحة الحاضرين جميعـاً. ولجلسة المقيل هيأة مخصوصـة يتبعهـا مـن يتناول القات، أومن يريد التخزين، وهي التسمية الشائعة. كنـت ألحظهـم يضعـون المتـاكيء تحـت الجانـب الأيسـر، تـاركين اليـد اليسـرى ممسـكة بغصن القات، أمـا اليمنـى فتظـل حـرة، يتم بهـا تنـاول الأوراق الخضـراء، وشرب الماء أو الكولا.

يشكل المقيل، بالنسبة للقادم إلى صنعاء، تجربة مدهشة: حيث يتقاطر رواد المقيل، وقد حمل كل منهم حزمته من أغصان القات مبتلـةً ملفوفـةً، لامعة. وما إن يأخذ مكانه في المجلس، ويضـع أمامـه حزمـة القـات حتى يبدأ بتناول أوراقها الطرية الخضراء بنشوة واضحة.

وعادة ما يكون الشاعر الدكتورعبد العزيز المقالح من أول الحاضرين إلى المقيل. وغالبـاً ما يكون من أول المغـادرين أيضـاً. وبمـا يمتلـك مـن فطنة وكاريزما شخصية، يعتبر المقـالح هـو المحـرك الوجداني والفكـري والأدبي لجلسة المقيـل. إن مجـرد حضـوره جلسـة المقيـل يضـفي عليهـا مذاقا وعمقـًا خاصين. كان يدخل حاملاً حزمة القات بيد، ومجموعة مـن الصحف والمجلات والكتب التي وصلته حديثـًا بيده الأخرى. وغالبـاً ما كـان يـوزع الكثيـر مـن حزمـة القـات التـي يحملهـا علـى الحاضـرين مـن الضيوف العرب بشكل خـاص. كـان أنيقـاً وهادئـاً، وكـان مقـلاً في تنـاول القـات وفي الحـديث أيضـاً رغـم عمقـه ونباهتـه.. وإضـافة إلـى الـدكتور المقالح، كان للمقيل أعمدة دائمة تتمثل في شخصيات لا تستقيم طقـوس

المقيل وأجواؤه من دون حضورهم الحيوي: خالد الرويشان، محمد عبد السلام منصور، حاتم الصكر، عبد الرضا علي، عبد الرزاق الربيعي، علي الحبوري، عبد الكريم الرازحي. وكان من بينهم ومن أبرزهم أيضاً الراحلون أحمد المروني، سليمان العيسى، شاكر خصباك، حسن اللوزي، زيد مطيع دماج، عبد اللطيف الربيع، أحمد قاسم دماج، إبراهيم الجرادي، كريم جثير، وعدنان أبو شادي. ومن البارزين أيضاً كمال أبو ديب قبل انتقاله إلى جامعة كولومبيا ثم جامعة لندن، وحسام الخطيب، كلما جاءنا من تعز حيث كان عميداً لكلية الآداب هناك..

أول ما يبدأ المقيل، عادة، مبعثراً وبسيطاً. ويأخذ، مع الوقت، بالاكتمال التدريجي، ثم يبلغ ذروة توهجه حين تلتقي أطرافه على موضوع واحد للنقاش، غالباً ما يقترحه الشاعر المقالح مما حمله إلى المقيل من كتب ومجلات. وكان للشعر حضوره اللافت دائماً، وسط جمهور عرف بفطرته الصافية وشغفه العالي بالشعر. وكنت أكلَّف، معظم الأحيان، بقراءة ما يتم اختياره من نصوص شعرية مميزة..

يحتدم النقاش، في بعض جلسات المقيل، حدّ التفاعل العالي، وربما حدّ التجافي بين بعض أطراف النقاش أحياناً. وما زلت أذكر إحدى الجلسات التي دار فيها الجدل بيني وبين أحد أصدقائي من الأساتذة العراقيين. ولا أدري لماذا ظللت، وسأظل، أذكر ذلك النقاش تحديداً. كان صديقي عارفاً بعروض الشعر العربي وتفعيلاته معرفة جيدة، ولكن

حين بدأت المناقشة، وأخذت اتجاهات شتى، تطرقنا إلى القصيدة الحديثة وضرورة النظر إلى عروضها نظرة جديدة. تعثر تدفق النقاش، وشحب صوت الصديق، وخالطه ما يشبه الدفاع عن الذات. بعد عام أوعامين، وكنا نعمل في قسم علميّ واحد، صدر لصاحبي كتاب في الشعر العربي. كان مليئاً بالشواهد الشعرية لكل من يعرف نظم الشعر: من كل العصور، وكل الاتجاهات، وكل الجنسيات، وكل الأعمار، باستثناء شاعر واحد، كان من أصدقائه ذات يوم.

وهناك خصائص وجدانية مشتركة لكل جلسات المقيل: تتصاعد، مع الوقت، رائحة الأحاديث ونكهة القات ودبيب المساء في امتزاج حي. إلى أن يختتم مدير الجلسة موضوع النقاش، فينساب المقيل، شيئاً فشيئاً، إلى نهايته. تنحصر الأحاديث، هامسة أولا تكاد تسمع، بين مجموعات صغيرة من المخزّنين، ثم تأخذ فضة الكلام بالذبول، ويبدأ الحاضرون بالتبخر واحداً بعد الآخر، دون ترتيب، أو تزاحم، بل ودون وداعٍ واضحٍ، من البعض، أحياناً:

في المقيلِ الذي لا يظلُّ مقيلاً..
أرى البعض يمعنُ في الصحوِ، أو يتمادى به سكرُهُ
غير أنّ هنالك مَن يتعالى على الحالتينْ
واضعاً في مهبِّ القصيدةِ
كلتا اليدينْ..

(6)

بدأت عملي في جامعة صنعاء في 1991، أستاذاً زائراً، ثم متعاقداً في السنة التالية. كان عدد غير قليل من الأساتذة العرب يعملون في الجامعة. لكن نسبتهم في قسم اللغة العربية بكلية الآداب كانت تتناقص، كل عام. أمر لم أفهمه، في البداية، ومع الأيام كانت الأمور تزداد جلاء.

أكثر من ست سنوات كانت من أكثر سنوات عملي في التدريس الجامعي حيوية وجمالاً. كان القسم يدار من د. طارق نجم عبد الله، الذي عرف دائماً بهدوئه وأناقته. شهدت تلك السنوات، بالنسبة لي، فسحة من الحرية لحضور المؤتمرات والندوات، واصدرت فيها عدداً من كتبي الشعرية والنقدية، كما التقيت خلالها بمجموعة من الشعراء والأساتذة الزائرين.

لم يكن، بين مجلسه في المقيل وبين مكتبه في الجامعة، زمن خاص بالدكتور عبد العزيز المقالح، فقد كان يتعرض إلى الاختراق والضغوط، من قبل المراجعين أو طالبي المساعدة، في أحيان كثيرة. وكان للمقالح دور تنويري شبيه بدور طه حسين، بعبارة لجابر عصفور في أحدى محاضراته في جامعة صنعاء. الدعوة إلى تحديث العقل، واللغة، والمخيلة ومناهج البحث والتدريس. كان المقالح أجدر الناس بتلك الألقاب الكثيرة التي أحاطت به. من ثقافة مستنيرة، ونزاهة في الضمير قلّ نظيرها.. ولم تكن تلك الألقاب مبعث رضا لبعض من كانوا يعملون

بمعيته، من اليمنيين، في الجامعة. كان ما في نفسه ومدى تخيلاته ورؤياه للجامعة أبعد وأجمل مما كان يتيحه له واقع أكاديمي في حاجة إلى التجديد في الكثير من جوانبه.

وكان بعض الأساتذة العرب، يدفعون ثمناً غير مرئي لانتمائهم إلى هذه الرؤيا الجديدة التي يسعى اليها المقالح شاعراً ومفكراً ومديراً للجامعة. فصداقة هذا الرمز الكبير أو القرب من فكره التنويري يقتضيان ثمناً كهذا. أول ما كنا نلاحظه أن قسم اللغة العربية بدأ يخلو، شيئاً فشيئاً، ممن يحسبون على الحداثة في الأدب والفكر والحياة. أنهيت عقود الكثيرين منهم، أو تم نقلهم إلى مركز اللغات، الذي صار نقطة تجمع للكثير من أساتذة الأدب واللغة مثل إبراهيم الجرادي، محسن أطيمش، علي جعفر العلاق، عبد الرضا علي، عباس توفيق، جبار اللامي، مزاحم البلداوي، جاسم الزبيدي.

(7)

قبل انتقاله من جامعة صنعاء، كان د. كمال أبو ديب، أحد الوجوه المثرية للمقيل الصنعاني، التقينا عام 1991، في جامعة صنعاء، لفصلٍ دراسيٍّ واحد. كان على وشك المغادرة للعمل في جامعة كولومبيا، ثم بعدها في جامعة لندن، بينما كنت قد التحقت بجامعة صنعاء حديثاً لأعمل أستاذاً زائراً فيها قبل أن أتعاقد للعمل بشكل دائم.

تعود صداقتنا إلى بداية الثمانينات. كنت، آنذاك، أعمل رئيساً لتحرير مجلة الأقلام بينما كان أبو ديب يعمل، قبل انتقاله إلى جامعة صنعاء، أستاذاً في جامعة اليرموك في الأردن. كتب في تلك الفترة أكثر دراساته البنيوية إثارةً للانتباه، وقد نشر بعضاً منها في مجلة الأقلام. سمعتُ باسمه، لأول مرة، من الراحل جبرا إبراهيم جبرا. كان يتحدث عنه بإعجابٍ. وكان ذلك إبُان صدور كتابه المثير للجدل: «في البنية الإيقاعية للشعر العربيّ: نحو بديلٍ جذريٍّ لعروض الخليل». وقد امتدت صداقتنا على المستويين الشخصيّ والعائليّ، حتى بعد التحاقه بجامعة لندن، حيث استضافني، هناك، أكثر من مرة، في شقته في لندن وفي أكسفورد. وثمة جانبٌ من المرح الراقي، لدى كمال أبو ديب، قد لا يعرفه من اكتفى بنتاجه النقديّ وحده، والذي اتسم دائماً بجديته العالية.

كان مقيل الدكتور عبد العزيز المقالح يعقد، أحياناً، في شقة أبو ديب نفسه، إذ كان يعيش وحده في صنعاء. وذات لحظةٍ من لحظات مرحه الجميل، سألني إن كان لي طفلةٌ أخرى عدا وصال وخيال. ولما أجبته بالنفي، قال، وعلامات الدهشة المفاجئة تضيء عينيه الفرحتين: وأنا كذلك. عندي ابنتان فقط: أميّة ورهام. وقبل أن أسأله عما يترتب على هذا الاكتشاف، قال إن لديه نظريةً يتأملها منذ فترة: كلّ مبدعٍ له ابنتان! لكن ذلك يحتاج إلى مزيدٍ من الإثباتات.

- قلت له، وكأنني أضيف له دليلاً جديداً: أدونيس له ابنتان.

- قال: والماغوط لديه ابنتان أيضاً.

- قلت: وممدوح عدوان كذلك.

وظللنا نتبادل الأدوار. كلما أضفت له اسماً جديداً، أضاف أبو ديب اسماً آخر. وهكذا كان يزداد فرحاً بنظريته مع كل اسمٍ يضاف إلى القائمة!

- قلت له، لأضاعف من غبطته: وفلان أيضاً.

وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد ذكرت له أحد الأسماء النقدية المعروفة، ولم أكن أعرف أن بينه وبين صاحب الاسم نفوراً بنيوياً متبادلاً. انطفأ كمال أبو ديب فجأة، وهدأت تلك البُحّة المميزة في صوته الغائم ليقول:

- خلاص، لقد ضاع كلُّ شيء، ضاعت النظرية.

قلت له، في محاولةٍ للعودة بالحديث إلى طابع الممازحة:

- إنه الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

- ضحك ضحكةً خافتةً، وهو يتمتم: نعم.. نعم.

وحين أخذ ينظر، من نافذة المقيل، إلى تلال الضواحي البعيدة، أدركتُ أنني لم أفلح، بعد، في إعادته إلى مرحه المعتاد..

الشاعر والعمل الوظيفيّ

(1)

سردية جميلة خاطفة بين شاعر، يعمل أستاذاً في إحدى الجامعات الغربية، وعصفور يوشك على الهلاك. كان الطائر الصغير يتشبث، بغصن مبتلٍّ تلعب به ريح خريفية نشطة: ينخفض مع الغصن حتى يصطدم بالنافذة، ويرتفع معه ثانية حتى يكاد يذوب في المطر. لم يحتمل الشاعر هذا المشهد، أيّةُ حرية وأيُّ كونٍ يزدهر خارج نافذته، بعيداً عن رائحة الطباشير، وهواء القاعة؟ وأيُّ طائرٍ حميم هذا الذي يدعوه للحاق به؟ لم يحتمل الشاعر، وهو بين طلابه، نداء عصفور في يوم عاصف وغزير المطر. جمع أوراقه وودع طلبته، وكان ذلك آخر عهده بالتدريس.

إن طائراً بحجم الكفّ استطاع أن يوقظ في وجدان هذا الشاعر حلمه الغافي منذ سنوات، وأن ينتزعه من قاعات الدرس وجفاف الأوراق الامتحانية. وإذا كان هذا الشاعر يضيق إلى هذا الحد بالعمل في واحدة من أرقى جامعات الغرب، وأكثرها إثارة للعقل واحتفاءً بمخيلة الإنسان وفكره. فهل يمكن تصوره موظفاً في دائرة حكومية، وفي دولة متعثرة من دول شرقنا الخامل على سبيل المثال؟

(2)

لا يمكنك، ربما، أن تتخيل شاعراً مثل الجواهري، أو نزار قباني، أو أدونيس، أو سعدي يوسف، أو الماغوط، أو سركون بولص، أو محمود درويش وهو يعمل موظفاً حكومياً. يحمل الأضابير من غرفة إلى أخرى أو يكتب على الآلة الطابعة، أو يغرق في غبار الملفات وزحمة المراجعين. ومن الصعب أن نتخيل أياً من هؤلاء وهو يصغي، مرتجفاً، إلى توبيخ مديره المباشر أو رئيسه الأعلى، لتأخره عن الدوام الرسمي مثلاً. أو نتخيلهم وهم يصطفون، صامتين، في طابور طويل للتوقيع في سجل الحضور والانصراف.

بعد سنة ربما من عودته للعراق، كتب الشاعر سعدي يوسف واحدة من أجمل قصائده «تنويعات استوائية». كان نادماً ندماً شديداً على عودته، وفي تلك القصيدة المركبة والحافلة بتدافع الزمان واشتباك الأمكنة، كان ثمة شريط يمر، فينهش أعماق الشاعر، أثناء وقوفه أمام مصعد الدائرة كل صباح:

ما الذي قد صنعت بنفسك؟

كانت بلاد الجزائر واسعةً.. مثل أفريقيا

كان في كل مزرعة غابةٌ مثل... أفريقيا

كان في كل مفترق نخلةٌ مثل أفريقيا

وكما في الكثير من قصائده، يصنع سعدي، من تشظيات حياته عجينة شعرية حارة ميزت قصيدته غالباً. ثمة قسوة، في هذه القصيدة، على الذات. تقليم لأظافر الأنا، ودعكٌ لجراحها بالملح. كان نادماً، في قصيدته تلك، على تركه جنة التشرد والعودة إلى بداية التراب:

وها أنت منهزمٌ: تدخل المصعد الساعة الثامنةْ

تهبط المصعد الساعة الثانية

أيهذا العدوُّ الذي ظل يطردني، ويطاردني في البلاد البعيدةْ

أيهذا العدوُّ الذي كنت ألمحه في الشجرْ

والذي كنت أقتاته في سطور الجريدةْ

وسقوط الثمرْ

وكانت القصيدة تتمزق تحت وابل من النداءات:

أيهذا الأنين الذي كنت أسميته وطناً

وادّعيت له، واجتزأت حماقاته،

واجترأت على ما رأيت انتساباً لهُ

أيها الوطنُ الأولُ

إننا نذبلُ

يدرك الشيبُ أبناءنا..

أيها الوطنُ المقبلُ..

(3)

الشعر والعمل الوظيفي. أيُّ تضاد فادح بين دلالتين. الوظيفة، في الغالب، لا تعني إلا الضرورة أو الاضطرار في حده الأقصى: تسحبك حيث الحاجة، وقوت الجسد. أما الشعر، هذه المفردة السحرية، فلا مجال لها إلا هناك: في الجانب البعيد والمشحون بالإيحاء، حيث الداخل البشري في احتدامه وتلظّيه، وحيث الحلم في هبوبه الحرّ كالريح أو المخيلة في عبثها بالمنطق الصارم والأشياء واللغة وعادات التلقّي.

ونحن نتحدث عن هذه الصلة المتوترة دائماً، أو المسترخية في النادر، بين الشعر والوظيفة نتذكر الكثير من الكتاب الذين خبروا هذا الجحيم اليومي وتذوقوا مرارته. وكانت نتيجة هذا الصراع في صالح الشعر والكتابة أحياناً، حين يتمرد الشاعر على جبروت الوظيفة فيتركها، أو يقاتل ببسالة ضد التكيف معها أو الإدمان عليها. لكنّ هناك عدداً غير قليل من الكتاب تحولت الوظيفة لديهم إلى عبودية مشتهاة حتى حجب استمتاعهم المغشوش هذا ما تمثله الوظيفة عادةً من ذبولٍ يومي للجسد وهرس للروح في كل لحظة.

ولا بدّ من القول، إن المشكلة لا تكمن دائماً في الوظيفة، في حد ذاتها، فهي ليست سبّة أو خيانة للإبداع على الدوام. المشكلة في علاقة المبدع بالوظيفة، وفي طبيعة إحساسه بها. أعني في المسافة التي تفصله عنها، وتمنع تصالحه معها. أو بكلمات أخرى في رفضه للانتماء القطيعي إليها.

ألم يكن ت. س. إليوت قد أمضى شطراً من حياته موظفاً كبيراً في بنك؟ ورغم أن هذا المثال وسواه لا يخفف من إحساسنا بالتضاد القاسي بين الإبداع والعمل اليومي، فإن في تكوين إليوت، ربما، ما يجعله أكثر الأدباء صرامة في انضباطه الكتابي، والفكري على حد سواء: ألم يقل إنه كلاسيكيّ في الأدب وملكيّ في السياسة وكاثوليكيّ في الدين؟

ومع ذلك تظل، في أعماق المبدع، لوثةٌ رامبوية مستعصية على الشفاء، في معظم الأحيان. تجعله عصياً على التكيف مع الطبيعة القهرية للعمل اليومي، ليظل ناظراً، باستمرار، من نافذته. إلى طائر مبتّل لا وجود له.

(4)

كانت سنة 1967 شديدة المرارة بالنسبة لي، فقد جربت فيها العمل الوظيفي للمرة الأولى، بعد أن تركت الجامعة بسبب ضائقة مالية طاحنة مرت بها أسرتي آنذاك. كنت وقتها طالباً في قسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب في جامعة بغداد. وما زلت أذكر أن الدكتور عبد الواحد لؤلؤه كان رئيسا لقسم اللغة الإنجليزية في تلك الفترة، كما كانت زوجته السيدة مريم عبد الباقي أستاذةً في القسم.

لقد كان كلاهما في منتهى العذوبة وكرم النفس في تعاملهما معي. لم ينظرا إليَّ على أنني مجرد طالب من طلابهما، فقد كانا يعرفان، عن طريق المبدع الكبير جبرا إبراهيم جبرا، أنني أكتب الشعر وأن لي محاولات

نقدية جادة. كان الأستاذ جبرا على دراية بما كنت فيه. وقد اتصل بالدكتور لؤلؤه طالباً منه معاونتي على تجاوز ذلك الظرف. بذل الدكتور لؤلؤه جهداً لا نظير له للحيلولة دون تركي الدراسة، ويبدو أن الوضع لم يعد مشكلة مادية فقط، بل تحول إلى حالة نفسية عكرت مزاجي وجعلت استمراري في الدراسة أمراً مستحيلاً.

كان عملي في مدينة بعقوبة، يضعني في سباق يومي مع بداية النهار. الذهاب إلى هناك والعودة إلى بغداد يومياً. والأدهى من كل ذلك أنه عمل يتعلق بالحسابات، وتحرير الصكوك. كنت أختنق في كل لحظة، وكان إحساسي بالغربة عن الوظيفة، ومحيط العمل يبلغ حد الكراهية لكل شيء. كنت أشعر بالفزع من كل تفصيل يرتبط بذلك العمل أو يذكرني به: دفتر الصكوك، سجل الحسابات، أختام الدائرة. بل بدأت أحسّ بالنفور حتى من المراجعين أحياناً. وقد بلغ بيّ الندم على تركي الدراسة حداً لا يصدق. ولولا تعرفي على بعض الشباب الموهوبين، من أهل المدينة، ما كان لي، ربما، أن أتحمل كابوس العمل أبداً.

بعد سنة واحدة تقريباً، وإثر محاولات لا تحصى، انتقلت إلى بغداد ولكن لممارسة العمل نفسه في الخزينة المركزية. عمل لا يفتقر إلى الجاذبية كثيراً، لكنه يخفف عني مشقة الجمع بين العمل نهاراً والدراسة، مساء، في الجامعة المستنصرية. كنا مجموعة ممن يكتبون الشعر: حميد سعيد، الذي كان له دور لا أنساه في خلاصي من كابوس العمل في

الحسابات وانتقالي إلى وزارة الثقافة، محسن أطيمش، شاكر السماوي، حسين العلاق، علي الياسري، حسين الرفاعي، صبري مسلم، عبد الرضا علي، عبد الإله الصائغ وآخرون...

(5)

فوجئت، في عام 1976، بتنسيبي للعمل في المؤسسة العامة للسينما والمسرح مديراً للمسارح والفنون الشعبية، أمضيت في تلك المؤسسة، التي كان يديرها الشاعر عبد الأمير معلة، سنتين تقريباً، قرأت خلالهما الكثير من النصوص المسرحية، محلية وعربية وعالمية. كان العمل مرهقاً بسبب تفاصيله الكثيرة، لكنه لا يخلو من متعة، خاصة حين يتعلق الأمر بحضور تدريبات الممثلين على حفظ أدوارهم، قراءة المسرحية قراءة جماعية، التدريب على الحركة، ثم اكتمال العمل في شكله النهائي. رحلة شيقة يتحرك فيها النص من اللغة إلى الخشبة. كان الشاعران عبد الأمير معلة ورشيد ياسين من أقرب زملائي في ذلك العمل. وكنت على صلة جميلة، أيضاً، بمجموعة مميزة من كبار المخرجين العراقيين: يحيى حقي، جاسم العبودي، إبراهيم جلال، سامي عبد الحميد، بدري حسون فريد، قاسم محمد سعدون العبيدي، وسليم الجزائري.

كان الشاعر عبد الأمير معلة شاعراً ستينياً لم يجد مكانه بين الستينيين كما يبدو، ولم يحقق ما يصبو اليه من مكانة شعرية. لكنه كان إنساناً،

كما عايشته عن قرب، ذا طبيعة صافية. يمارس عمله بشغف منقطع النظير وكأنه يرى فيه عوضاً عن قصيدته الضائعة. وكان يعيش آنذاك أفضل سنوات عمره: النجاح الإداري، والحزبي، وأضواء الشهرة التي واتته حين اختاره الرئيس العراقي السابق صدام حسين ليكتب رواية عن حياته الحافلة بالخطر والتحديات بعنوان «الأيام الطويلة» التي تحولت، بعد ذلك، إلى فيلم سينمائي معروف.

وبعد خلاف معه، في أمور ذات صلة بالعمل، عدت إلى مجلة الأقلام، ثم عملت لفترة قصيرة في مجلة الثقافة الأجنبية، التي تقرر إصدارها للمرة الأولى. وكان الصديق الشاعر ياسين طه حافظ وأنا، نعمل معاً لتهيئة عددها الأول. لم يطل بي المقام كثيراً في هذا المكان، فقد سافرت إلى لندن لإكمال الدراسة، وتولى ياسين طه حافظ رئاسة التحرير بكفاءة عالية..

أبنــاء المــاء والنــار والغيــاب

(1)

حين ترتفع الشمس ناصعةً أيام الشتاء المعتدلة، وتدب أشعتها الدافئة، تدريجياً، في ثنايا الهواء البارد. تتكشف بيوتنا البسيطة عن أكثر أجزائها دفئاً. وهي الجدران التي تواجه الشمس، لكنها لا تقابل حركة الريح. وكأنها منطقة يتجمع فيها الدفء. ويسمى هذا المكان عادة: «الكوْسَرْ». هناك، في ذلك المكان، غالباً، ما يجمعنا والدي في أيام الشتاء تلك.

كان أباً حنوناً وصارماً في ذات الوقت. جمعتنا البداية ذاتها: تعلم معظمنا القراءة والكتابة على يديه. ثم اختلفت مصائر كل منا ذهنياً ونفسياً واجتماعياً. كان شقيقنا الأكبر أقربنا إلى التمرد على أوامر الحفظ والتلقين. لذلك كانت القبيلة، ثم الانتماء الحزبي لاحقاً، قد أخذاه بعيداً حتى عن ذاته. كنت أسرع من أشقائي إفصاحاً عن ميولٍ أدبيةٍ، واضحةٍ إلى حد ما، استحوذت على مسارات حياتي جميعاً بداية ومصيراً.

وكان التأمل والقراءات الدينية أكثر اهتمامات شقيقي الأصغر في الحياة والموت أيضاً. أما أخونا من زوجة أبي الثانية فلم يتعلم القراءة جيداً بسبب حنوّ والدته عليه حنواً مبالغاً فيه أحياناً. كانت لا تتردد في أخذه من بيننا لتحرره من قسوة الدرس ومتطلباته. وهكذا لم نكن

متشابهين، نحن الأخوة، تشابهاً عميقاً، في شيء أساسي، إلا في كوننا من أب واحد ومن أمّيّن اثنتين تقيم إحداهما في بيت بعيداً عنا قريباً من اخوتها، مع ما بينهما من علاقة طيبة يشهد بها الجميع. غير أننا اختلفنا في مآلاتنا إلى حدود بعيدة: كنا أبناء الماء بامتياز، وكنا لا حقاً هدفاً للنار، حين التهمت بعضاً منا. وفي النهايات، كنا أبناء الغياب.

(2)

كان من أجمل المشتركات بيننا، وأكثرها حزناً ربما، أن لنا اختاً واحدة ووحيدة. كبرت بيننا، وتقاسمنا محبتها. وطالما أسرتنا، كما أسرت كل من حولها، ببراءتها وما تتحلى به من بياض وأمومة، حتى قبل أن تغدو زوجة أوأماً ورغم حياتها التي لم تكن راضية بها تمام الرضا. التحقت بنا في بغداد مع أسرتها، وسكنت على مقربة منا. وذات يوم، أو ذات كآبةٍ ربما، اختارت أن ترحل عنا بطريقتها الخاصة، تاركة فيّ أثراً لم يكن محوه يسيراً، ولن يكون:

أذهلتنا طريقتُها

في الغيابْ:

لم تودّعْ أخاً..

لم تودّعْ حبيباً، أوابناً..

وما فتحتْ للمغيثينَ بابْ..

أخذتها النار منا في ضحى يوم لا أنساه. كنت في السنة الثالثة من المرحلة المتوسطة. حين علمت بما حدث، بعد أن عدت إلى البيت ذات ظهيرة، كانت أيامي قد بدأت تخلو من تلك الأخت المباركة. وقبل أن أفتح باب غرفتها في المستشفى داهمتني رائحة شديدة النقاء والقسوة، لحمٌ بشريٌّ محروقٌ مازال ينزُّ دمًا، وكانت فردة الباب الموارب مشدودة إلى أول كلمة في همهمة مقبلة، كانت بداية قصيدة تتخبط في نقيع من الدم واللحم المشوي. وظلت رائحة تلك الفجيعة تتصاعد من روحي كلما تذكرت حادثة الموت تلك. نشرت القصيدة، بعد ذلك، في مجلة الأديب البيروتية في أحد أعدادها الصادرة في أوائل الستينات.

وكثيراً ما يحضر، في ذهني، حديث باشلار المدهش عن النار وقدرتها التطهيرية. بعد أن تأتي على كل شيء تقوم بحرقه، وتنحيته عن الوجود. غير أنني حين أمسك بالخيط الرابط بين ما فعلته النار، تلك اللحظة، في أيام ذلك الصبيّ الذي كنته، فإنني أغرق في استرجاع تلك الحادثة المرعبة ثانية. لابد أن النار ذاتها صارت أكثر نقاءً وأشد نبلاً، حين تحررت من بعدها الشرّير والجهنّمي، بعد أن لامستْ جسداً بتلك الطهرانية وروحًا بذلك البهاء الجليل..

يتكرر أمامي هذا المشهد مراتٍ ومرات. فيعودني ما مضى بلهبٍ أشدّ، ورائحةٍ أكثر مرارة: أزيح الكلمة الأولى من القصيدة ذاتها، فأدخل إلى النصّ كاملاً. تهبّ علي ذاتُ الرائحة. ذاتُ اللحظة. بل الحدثُ ذاته، بعد كل تلك السنوات الطوال:

حضنتْ نارها فجأةً
ومضتْ تأكلُ اللهبَ المرَّ
حتى رأتْ بعضَ أحشائها في الإناءْ..
أمَةُ اللهِ تلكَ، تشدُّ إلى قدميها البراري
وتمضي إلى حتفها حرّةً
كالهواءْ..

(3)

وقفت أمام الموت الثاني، وقفةً هي مزيج من حيرة وخوف كانا ينموان مع كل يوم. لم يكن هناك موتٌ فعليّ، لكنه موتٌ من نمط مختلف. مع وقف التنفيذ. إن جاز لي قول ذلك. وكان بطله أو ضحيته، لا فرق، شقيقي الأصغر. كان يصغرني بسنوات ثلاث أو أقل. لكنه يكبرني بموتين أو أكثر. فارقني منذ نهاية الدراسة الإعدادية. بعد أن خلط قراءاته الدينية ببعض من التراث الأدبي، ومازج بين نسيج الجغرافيا كما يمازج لاعب الشطرنج بين مكونات اللعبة، لا عن دهاءٍ ولا عن سوءٍ في الطوية. بل عما فيه من زهد الدرويش، أو هشاشة المبتدئ في المران على الغياب الطويل. من بغداد، كركوك، السليمانية، إلى مانهايم في المانيا. ثم يضيق الحبل ويتسع الصمت بين مجاهيل لا بدايات لها ولا خواتيم. كان يأخذه غياب الخائف، أو المحتاط، أو مستبق الوقائع. ثم يظهر ثانية بعد أن تجود علينا

به يد الدولة. كان يثير ريبتها بسهولة. حين يسول له حسن النية أن يضع نفسه موضع الشبهات.

كان بيننا من الشبه قدر ما بيننا من التباين، والإمعان في الشتات. نتوق إلى اللقيا ونعرض عنها بدافع قدر عارض أو صدفة حمقاء:

كم انكسرنا..

كم تأبّطنا عصا الأخطاءِ دونَ رحمةٍ..

فأيّنا احتاطَ لمحنةِ الغيابِ؟

أيّنا انتبهْ؟

كم كانَ فظاً بيننا الشَّبَهْ!

وقبل أن أغادر إلى صنعاء بعد حرب الكويت عام 1991، غاب غيبته الكبرى، كما يقال في السرديات الدينية ذائعة الصيت. أكثر من ثلاثين عامـًا. وبعد أن تهدّمت البلاد على أهلها، وعمّت الفتنة، ودفن تحت الأرض كثير من البشر، وخرج من تحتها كثيرون أيضـًا، ذهب الأهل يطالبون بعظام موتاهم. غير أن كلكامش بحث عن عظام أخيه الصغير فلم يجدها بين الموتى، ولم يجدها بين الأحياء، فعاد يحمل صُرّته خاوية.

في عام 2014 تحديداً، مجرة صغيرة من ضوء لا يصدقه أحد، تنفجر فجأة في أرجاء روحي. شقيقي يظهر على الأرض ثانية بعد موته الطويل. باحثـًا عما بقي من وطنه، وعمن ظلّ من أهله وأصدقائه. يحاول لملمة ما

تطاير من كيانه بفعل الخديعة. كان صوته يرجعني إلى طفولتنا المشتركة، لكنّه، مع ذلك، يوقظ فيَّ عتباً مُرّاً كان يأكل من صبري ومن لغتي طوال سنوات الصمت:

عشرينَ قرناً أغنّي في العراءِ..
ألمْ يصلْكَ من لغتي بعضُ الرذاذِ؟
أما رأيتَ في النومِ طيراً ذابلاً؟
بلداً لا زرعَ فيهِ؟
بقايا صاحبٍ ثملٍ
يبكي على كلّ قبرٍ يلتقيه..؟

(4)

كانت أزمنة الغياب وأمكنته تتجمع، وتشف، وتضيق، وتختصر وتذهب إلى ما يشبه العدم. ثم تتركز أحاديثنا كلها، بعد ذلك، على زمن بذاته: موعد وصوله إلى الإمارات، حيث أقيم. كنت أحس، أن وراء صوته الشاحب، خيبة أمل تمتد مثل قافلة طويلة. خيبة بمن خذلوه وبمن عاد من أجلهم. كان يرى أمامه من اختطفوه من أيامه بالأمس، ومن باعوه الكثير من الأوهام التي ظنها، يوما ما، بديلاً عن وطنٍ أرضيّ، بكل أنهاره وسماواته ومواهبه.

كان يراهم، وهو الزاهد، البريء، المغلوب على أمره، يملؤون هواء البلاد بالجهل والضغينة. يتاجرون، حتى اليوم، بالأوهام ذاتها، ويكذبون على الله في كل لحظة. وبينما كنت أتلفت حولي، في انتظار مجيئه، كان هناك، في الجهة الثانية من الحياة، في البعيد الذي لن يكون قريباً بعد الآن، ثمة سجدة لم يكملها، وثمة شيءٌ من الندم على سجادة الصلاة. ليس لي، إذاً، إلا أن أبكيه، مرة أخرى، بكاء النساء الندابات.

مدينة ولدتْ من حفيفِ نخلتين

(1)

كان ثمة ظلامٌ خفيفٌ يبتعد عن مطار العين شيئًا فشيئًا، حاملاً معه حفنةً من نجوم الليلة الماضية، فاتحًا الطريقَ لفجرٍ صغيرٍ، يتجمع على مقربةٍ من المطار، ويتقدم شفافًا دافئًا، في اتجاه صالة المسافرين. لم يكن ذلك الفجر قد اكتمل، تمامًا، في تلك اللحظة، بل كان في بداياته الأولى، خليطًا من ظلامٍ يبتعد وفجرٍ دافئ في بداية تكوينه. ويتصاعد، خلال إحدى قصائدي، بثٌّ روحيٌّ مع هذه المدينة، طافحٌ بكل ما تهجس به الروح من مجهولٍ قادم:

ربّتما ستكونينَ حزني الذي لن يجفَّ
حنيني الذي لن يخفَّ
التفاتي الذي لن يكفَّ
تكونينَ أغنيةً تتقاذفني
بين كَرْخٍ وشامْ..
ثم تبلغ القصيدة نهايتها الحائرة:
وها أنذا بعد عشرينَ كارثةً..
أتعثّرُ بالضوءِ من حيرةٍ
ثم أرمي بعُكّازتي

في الظلامْ..

لم يكن مطار العين كبيراً. لكنه كان متوهجاً، وملموماً على ذاته. يذكرني، إلى حد ما، بمطار صنعاء، الذي اعتدت السفر منه وإليه طوال سنواتٍ ستٍ عملتُ خلالها أستاذاً في الجامعة هناك. ومع أن مطار العين كان أكثر حداثة، إلاّ أن المطارين، كليهما، يوحيان بحميميةٍ واضحة. لم يكن لي خيارٌ آخر غير الحجز على تلك الرحلة المبكرة لطيران الإمارات المقبلة من عمان، فقد كنت في طريقي إلى العين للعمل أستاذاً في جامعة الإمارات.

وصلنا، نحن المتعاقدين مع الجامعة، في ساعات الفجر الأولى من اليوم الأول من سبتمبر 1997. كانت أقامتنا في هيلتون المدينة، وكان علينا أن نكتفي بفترة خفيفة من النوم، فثمة أعمال كثيرة في انتظارنا. في ذلك الصباح كان البهو والمطعم يضجان بالأساتذة الجدد وموظفي الجامعة، القادمين لاصطحابنا. وكان ثمة خارج الفندق، سماءٌ من اللهب والزرقة الصافية، أما في الداخل فقد كان مقتل الأميرة ديانا سيد الأخبار جميعاً في ذلك الصباح الحار.

(2)

وَما زلت أذكر، بالتذاذ ومحبة، يوم وصولي هذه المدينة قبل شهور لغرض المقابلة. في ظهيرة ذلك اليوم كنت على موعد مع صديقي د. إبراهيم السعافين، الذي كان وما يزال من أكثر الناس نبلاً وأكثر

صداقاتي قرباً إلى نفسي. كان في آخر أيامه رئيساً لقسم اللغة العربية بعد أن قدم استقالته من الجامعة. كان برفقتنا د. خالد سليمان فليفل الذي كان أستاذا في القسم. بعد أن تناولنا طعام الغداء، اتفقنا، د. السعافين وأنا، على اللقاء في المكان المحدد للمقابلة، على أن نلتقي بعدها، في منزل الدكتور خالد فليفل للعشاء.

وقبل أن نفترق ذكر لي الدكتور السعافين ملاحظة أربكت مزاجي إلى حد كبير، مع أنه قالها بلطفه الجم وابتسامته المعهودة: عرفت أن المنافسة مع مرشحَين آخرَين، على وظيفةٍ للتدريس في الانتساب المُوَجّه. كنت أسمع عن هذه الوظيفة. وكنت أجدها عملاً مجهداً، ويفتقر إلى الجاذبية ربما. كما أن من يتولاها لا يحسب، عادة، على كادر الجامعة المقيمين في العين. بل يتحتم عليه الانتقال بين مراكز الانتساب الموجه في المدن الأخرى، في إمارة أبوظبي، لتدريس الطلاب، ممن فاتهم إكمال دراساتهم الجامعية فالتحقوا للعمل في مؤسسات الدولة.

أحزنتني كثيراً هذه المعلومة المتأخرة، والتي نزلت عليَّ كالصاعقة. نظرت إلى د. إبراهيم السعافين نظرة فيها من عتب الصداقة قدر ما فيها من الندم على المجيء، وكشفتُ بعبارةٍ صريحةٍ عما كنت أفكر فيه:

«لو علمت بطبيعة الوظيفة لما تكلفت كل هذا العناء».

أدرك د. السعافين ما أنا فيه تلك اللحظة، فهوّن علي الأمر بنبله وخفة روحه. ذهبنا إلى المقابلة، وقد تركت في فندق الجامعة مجموعاتي الشعرية وكتبي ومزاجي الذي قد يكسبني تعاطف اللجنة وتفاعلها.

(3)

كانت اللجنة تتكون من أهم القيادات الأكاديمية والإدارية في الجامعة. هادف الظاهري، مدير الجامعة، وعلي النعيمي، نائبه، وشبيب المرزوقي، الأمين العام للجامعة، ومحمد يوسف، نائب المدير للشؤون العلمية، وعبد الوهاب أحمد عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وإبراهيم السعافين، رئيس قسم اللغة العربية.

كان سؤال اللجنة مفاجئًا بكل المعاني:

- «لماذا قررت أن تترك جامعة صنعاء؟»

كان عليّ أن أعبّر بوجدان حيٍّ عما يربطني باليمن من أواصر ثقافية وأكاديمية وإنسانية، وعما كنت أحظى به من مكانة في جامعة صنعاء، طلبة وأساتذة ومسؤولين، طوال عملي فيها لستّ سنوات. أنا هنا من أجل خبرة أكاديمية مضافة، وبيئة علمية مختلفة. ويبدو لي أن إجابتي تلك كانت بداية موفقة للحديث. وهكذا سارت المقابلة بسلاسة وأريحية، أفصحت اللجنة فيهما عن نبل وتفاعل واضحين. خاصة وأنني من أوائل الأساتذة العراقيين الذين يلتحقون بجامعة الإمارات، بعد قطيعة خليجية شاملة مع العراق منذ دخوله الكويت. بدت المقابلة، في بعض مقاطعها، وكأنها ندوة ثقافية وشعرية وإنسانية. تخللها الشاهد الجميل، والدفء الشخصي، وكان الحديث عن منجزاتي، شاعراً وناقداً وأكاديمياً، شديد الحضور.

في المساء كنت في بيت الدكتور خالد سليمان في انتظار الدكتور السعافين. لم يكن فضولي كبيراً لأعرف انطباع اللجنة عن المقابلة، فما أزال، حتى تلك اللحظة، رهين مزاجٍ عكرٍ لم أبرأ منه تماماً. دخل الدكتور السعافين بوجهه البشوش، وهو يرسم بإبهامه علامة الإعجاب:

- «تركتَ فيهم انطباعا مدهشاً».

لم تفتح هذه العبارة أساريري كما ينبغي، فطبيعة الوظيفة لم تكن، بالنسبة لي، على قدر كافٍ من الإثارة. أدرك د. السعافين حراجة اللحظة التي أغرق فيها. وهنا، فاجأني بعبارته التي قلبت مزاجي كله:

- «لقد قررت لجنة المقابلة، بالإجماع، استقطابك لتبقى في الجامعة، وسيتم اختيار مرشحٍ آخر للانتساب الموجه»، ثم أكمل بعبارةٍ لا أدري إن كان يقولها عن نفسه، أم عن لجنة المقابلة:
- «فليس من السهل دائماً أن تجتمع الأكاديميَّةُ والشاعرية في إنسانٍ واحد».

(4)

ومنذ ذلك اليوم، بدأت علاقتي الحميمة بمدينة العين، هذه المدينة المدهشة وجامعتها الفتية. تلك العلاقة التي يمكن إجمالها، مجردةً من مبالغات الخيال، بأنها أكثر سنوات العمر توهجاً شعرياً وأكاديمياً وإنسانياً.

كان مدير الجامعة، في تلك الفترة، د. هادف الظاهري. كان إنساناً ومسؤولاً وأكاديمياً، في منتهى النبل والتواضع الذي يبعث على الحرج أحياناً. وما زلت أذكر ذلك اللقاء الجميل الذي جمعني به صدفة ذات يوم. كنت قد انتهيت من محاضرتي، واتجهت إلى مكتبي في القسم. كان الفصل الصيفي في ذروته، حرارة وأعباء تدريسية. كأن الشمس، في ذلك اليوم، تتوقد بطريقة استثنائية. فجأة كنت وجهاً إلى وجه مع د. هادف الظاهري. وقفنا في تلك الظهيرة. وهو يرفع مظلة من كلام، لا يراه أحدٌ سوانا، يثني فيه على شعري، وعن ترقيتي إلى الأستاذية.

وقبل أن نفترق، قال لي:

- لم أقرأ لك شعراً جديداً منذ فترة.

وأردف ممازحاً:

- هل يرهقونك بالجدول الدراسي؟ سأعاقبهم على فعلتهم هذه!

كانت لمسة شديدة الدلالة ما أزال أذكرها حتى هذه اللحظة. وكانت إشارة بليغة على ما كان يتحلى به د. الظاهري من رفعةٍ في الخلق وتلقائيةٍ محببةٍ في السلوك. لكنها كانت، أيضاً، تتجاوز روح المجاملة المجردة، لتكشف عن متابعته الممتازة لأساتذة الجامعة وتفاعله الراقي مع المميزين منهم في مجالات الإبداع والبحث والتدريس..

وكان الدكتور عبد الوهاب أحمد، وهو أكاديميٌّ سودانيٌّ مرموق، عميداً لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. كان حازماً، وحيوياً، وشديد التهذيب. لم يكن مستسلماً لما يصله من توجيهات، بل كان يتمتع بعقلية

جدلية، تناقش، وتقترح، وتقدم ما تراه البديل الأفضل. وكثيراً ما كان يتحدث، بلطف بالغ، عن دور الكفاءات العراقية في التأسيس الأكاديمي لجامعة الإمارات. أما قسم اللغة العربية فقد كان خلية متفاعلة وشديدة التناغم، وكان د. محمد الأمين الخضري يقوده بكفاءة أكاديمية وإنسانية كبيرة.

ولا أبالغ إذ ما قلت أن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بعد أن ترك عمادتها الدكتور عبد الوهاب أحمد، لم تعد إلى حيويتها الأولى. وربما ينطبق هذا القول، إلى حد كبير، على رئاسة الدكتور الخضري لقسم اللغة العربية، كانت تلك المرحلة من أكثر فترات القسم حيوية وتنظيماً. وأقترن وجود هاتين الشخصيتين المؤثرتين، بازدهار الكلية والقسم معاً، أما لاحقاً فقد خفّ الاهتمام بقسم اللغة العربية، الذي أخذ يتآكل تدريجياً، حتى أن فكرة إلغائه، أو دمجه مع قسم آخر، لم تكن بعيدة تماماً عن طاولة النقاش.

(5)

فتنةٌ لا افتعال فيها، وألفةٌ تغمر القلب بالطمأنينة. هكذا يحلو لي دائماً أن أصف مدينة العين. استمدت، منذ البدء، سحراً إضافياً، من سيرة الشيخ زايد، هذا البدوي والشاعر والحكيم، ففيها كانت ولادته ونشأته وتمرسه بأمور الحكم وتصريفها بدراية ورحمة..

كان «جبل حفيت»، بعزلته وكبريائه المحببتين، واحداً من فضاءاتنا المبهجة دائماً. وفي المساءات كان الطريق الصاعد إليه يتلوى كنهرٍ من الذهب المشتعل متّجهاً إلى آخر الليل. وقبل الوصول إلى ذلك الجبل، وفندقه الجميل المطل على المدينة عن بعد، تواجهنا «المبزرة» بمياهها المعدنية الحارة، وتلالها التي تم تصميمها وانشاؤها ثم زراعتها لاحقاً.

هكذا هم الناس في هذه البلاد، يغيرون تضاريس الأرض كي يزيدوها جمالاً ولطفاً: ينشئون التلال والبحيرات والمراعي، ويربون الأشجار كما يربون الأطفال تماماً. يدفنون البحر لتتسع المدينة وتسترخي، ويصنعون البحيرات كي يخففوا من توحش الإسمنت وصلابته. منازلةٌ باسلة بين الإنسان والطبيعة لتكون في خدمة البشر، مشهدٌ كان يبعث النشوة في كياني كله. غير أنني أصحو أحياناً كالملدوغ، فأجدني فريسةً لتساؤلاتٍ لا جواب عليها: أيّ مدنٍ تنهض من أعماق الصخر وكثبان الرمل فتيةً مزدهرة، وأيّ بلادٍ عريقةٍ تلك التي أضاعها الجهلة واللصوص وأعداء الحياة.

وفجأة يحدث، وأنا في هذه المدينة الشبيهة بالجنة، ما يفوق أشد الكوابيس ضراوةً. ثمة دبابتان كانتا تدوسان على حلمي، وتعبران نهر دجلة متجهتين إلى قلب بغداد. كانتا بداية الزلزال، وشارة على ضياع البلاد وشتات أهلها. كانتا مزهوّتين بباطلٍ تمَّ الإعداد له بعناية. وكان ذلك في عام 2003.

لم أكن قادراً حينها على التماسك، لولا هذه المدينة التي أعانتني على ما أنا فيه. بدا لي العالم وكأنه يتكالب كله على بغداد لإطفائها، وإلى الأبد. وبدا لي أن الإنسان، هناك، في بلادي التي كانت تسمى بلاداً، يطرد من جنته مرة أخرى.

(6)

كانت مدينة «العين» تريني، وأنا في محنتي تلك، أجمل ما يمكن تخيله من المباهج، فتحتْ لي قلبها الفياض بالشباب والفتنة والجمال، وأعانتني على أن أندفع في فضاءاتٍ شتّى: الشعر، والتدريس، والنشر، والمحبة، والمشاركة في الحياة الثقافية العامة. فزتُ، وأنافي السنة الأولى من عملي في الجامعة، بجائزة أفضل كتاب في الإبداع الأدبي في معرض الشارقة الدولي للكتاب، عن كتابي «الشعر والتلقّي». وكان ذلك الفوز عربون محبة، لهٰذه المدينة، يتعمق مع السنوات، وفألاً حسناً سيشمل ما أقوم به من أنشطة أكاديمية وشعرية ونقدية.

أشرفت لسنوات على اللجنة الأدبية في نادي الإبداع في الجامعة، الذي أسهم في رفد المشهد الثقافي، في الإمارات، بعدد من الأسماء المهمة في مجالي الشعر والسرد، كما توليت رئاسة تحرير مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، في مرحلة مهمة من تطورها، قبل أن تغلق بتأثير الرؤى التي طبقت في الجامعة وأثرت سلباً على بعض جوانب البحث واللغة.

كانت شهيتي للعمل لا تعرف الارتواء. مندفعاً، مع مجموعة من زملائي. نذهب بطلبتنا إلى ذائقةٍ جديدة، تصغي إلى الشعر وتفكك أغطيته اللغوية بمحبة، وترى الحياة نصاً يمور بالرموز والدلالات. كنت أجد في القصيدة وفي قاعات الدرس ملاذاً مما أنا فيه من تصدع. عشرون عاماً تقريباً، كانت زمناً فردوسياً، شديد الغنى متوتراً وحميماً، كأنه الأسطورة تفيض شباباً، أو النهر الشرس لا يمكن الإمساك به.

وإذا كانت الجغرافيا قد حرمت مدينة العين من أيّ جوار مائيٍّ ينعم عليها بالبلل وهدير الموج، فإنها قد اختارت قدرها الجميل بثقة: أن تقف بعيداً عن غابات الإسمنت، وأن تحتضن الجامعة الكبرى في البلد. ربما لم تكن هذه المدينة في طفولتها غير واحةٍ منعزلة، لا يحيط بها إلاّ الرمل اليابس والريح التي تجوب البراري، غير أنها اليوم من أجمل المدن وأكثرها بهاء.

ربما ولدتْ من حفيف نخلتين وحيدتين، أو بئرٍ مسيجةٍ بالعزلة. لكنها تقف اليوم ريانةً، مشرقة. يتهدل فيها الشجر على الأسيجة، ويصغي العشب، جذلان، إلى خطوات المارة. مدينةٌ تقتحم الحياة العصرية بوعيٍ ورشاقة: تختار حداثتها التي تبقيها وفيةً لتراثها الجميل من جهة، ومَنفتحةً، من جهةٍ أخرى، على العالم وتحولاته التي تبهرنا كل يوم.

نداء الصداقات

(1)

ذات يوم من أيام التسعينات، وكنت في مطار عمّان عائداً إلى صنعاء. التقيت أحد أصدقائي بعد سنوات من الغياب. كان يمر على كابينات الهاتف العمومي، في المطار، ويجري سلسلة من الاتصالات التلفونية مع مجموعة من أصدقائه. خصلة من خصاله الجميلة حقـًا، أغبطه عليها. كان صديقي يدرك أن علاقاته بالناس تحتاج إلى السقيا وبث الحياة في مفاصلها بين فترة وأخرى. نوع من تجديد المودات والعهود والإيميلات، خاصة وأن مهرجان جرش، وغيره من الملتقيات العربية، على الأبواب.

هناك مهاراتَ عدة تقتضيها الصداقات. مهارة اكتسابها، والاحتفاظ بها، ومهارة التنمية والإدامة. ويؤلمني جداً أنني كسول إلى حد واضح في ما يتعلق بالإدامة، ويحدث ذلك لنقص في الوقت لا لنقص في المودة. أحبّ الصديق بعمق لكنني أعاني من الكسل في متابعة بعض التفاصيل. البعض يتمتع بموهبة الاعتناء بالصداقة، ومثلها موهبة التعبير الودود المبالغ فيه، وكأنه يسحب صكوكـًا من العواطف دون رصيد حقيقي. مع أن كلتا الحالتين لا تعني بالضرورة، قوة تلك الصداقة أو توهجها..

طالما كرر الراحل نجيب المانع هذه المقولة الثمينة: «كثرة الخلطاء تقود إلى الحضيض»، وفي هذا القول ما في الحكمة البعيدة من رنين موجعًا. إن الارتفاع بالمخالطة إلى مستوى الصداقة تضييعٌ لمعايير الصداقة التي بلغت درجة الغليان الوجداني، وإبقاؤها في حدود العلاقة النيئة مهما طال بها العمر. وربما لذلك ظللت أكثر ميلاً للصداقات التي أنتقيها بعناية، وأتبادل فيها الحرص، والنبل، وقبول الاعتذار، قدر ما نستطيع.

غير أن للصداقات أحياناً أزمنة للصلاحية، فقد تنتهي صداقة ما، كما يتعطل جهاز ما، هكذا دون سبب محسوس، تتراخى حبال المودة بين الطرفين، برود يدب في الأوصال كالقشعريرة، أو حمىً خفيفة لا تعمر طويلاً، لكن أثرها لا يزول. وقد تنتهي الصداقة بعد نقاش ينتهي بوداع فاتر، هو مقدمة لكل ما سيأتي.

وأسوأ تلك النهايات ربما حينما يكون سببها عامّاً، يعود إلى ما يتفشى في البلاد من أوبئة سياسية، وانتماءات صغيرة، فيجافي أطراف تلك الصداقة بعضهم بعضاَ، وكلٌّ يتلمس، وهو يمضي بعيداً، ندوباً في الضمير لا شفاء لها:

آه يا صاحبي..
كيف موسمُ ذاك الحنينِ انتهى
ثم صارَ لكلٍّ هوىً، ولكلٍّ طريقْ

ومضينا وحيدينِ، مختلفينِ..

نغني:

أيا شجرَ الليلِ كيف انتهينا

وعُدْنا بلا نجمةٍ

أو صديقْ..؟

(2)

في لحظة بعيدة وشديدة التوتر من حياتي، رأيتُ مدينة «بعقوبة» العراقية لأول مرة. كان ذلك عام 1967. حين وصلت اليها كان الفصل شتاء، وكنتُ في الثانية والعشرين من عمري، وفي غاية الحزن، بعد أن تركتُ الدراسة الجامعية، بسبب ظروفٍ اجتماعيةٍ قاهرة، وانتقلتُ إلى الدراسة المسائية والعمل الوظيفيّ صباحاً.

كان الطريق من بغداد إلى بعقوبة لقاء يومياً مع شمس الصباح التي ترتفع شيئاً فشيئاً في سماء بغداد، صغيرة مدوره بيضاء، ومحاطة بهالة من الغيوم الباردة.. وفي الظهيرة كان الباص يحاول اللحاق بالشمس المتجهة إلى بغداد. ومع ذلك كان ثمة إحساس بالضيق والندم يملأ روحي حتى حافاتها الأخيرة. فقد كان تركي الجامعة قد أورثني ندماً لم يفارقني لحظة واحدة، كما أنني لم أكن راضياً عن طبيعة العمل الذي كنت أزاوله. كنت على تضاد يوميّ معه، يعكر عليّ كل لحظة من النهار، فلم أكن أتصور

نفسي موظفاً يعمل في كتابة الصكوك وأنا الذي تركت الجامعة بدافع الحاجة!

وحدث ذات صباح ما لم أكن قادراً على تصوره. غيّر مزاجي تماماً، وأرشدني إلى روحي التائهة مرة أخرى. وكأنه دمعة من الحبر، وقعت فجأة على كلمة كانت في انتظارها حتى تكتمل. وهكذا عادت إلى نفسي ثقتها التي أوشكت أن تنساها تماماً.

كان ثمة طرق خفيف على القلب، ثم دخل علينا بعد ذلك ثلاثة شبانٍ أنيقين وشديدي التهذيب. كانوا مقاربين لي في العمر. توجهوا بالكلام إلى موظف آخر كان يشاركني الغرفة ذاتها، وكان الأقرب إلى الباب. ويا لها من مفاجأة. كانوا يسألون عن إنسان أعرفه جيداً، مع أنني كدت أنسى اسمه تماماً: علي جعفر العلاق. أحسست أنني أسمع اسمي للمرة الأولى، في هذا المكان الذي بدا لي وكأنه وادٍ لا زرع فيه.

دهشتي لا حدود لها، حين اتضح أنهم يعرفونني شاعراً، وأنهم مهمومون، أيضاً، بكتابة الشعر والقصة: سفيان الخزرجي، خالد الداحي، ومحسن الكيلاني، ثم انضمّ إلى المجموعة لاحقاً الشاعر خليل المعاضيدي. كانوا متابعين لما أنشر في مجلات عربية مثل «الأديب» اللبنانية، و«الشعر» المصرية، ومجلات عراقية مثل «الأقلام»، و«العاملون في النفط»، وبعض الجرائد العراقية. ومنذ لحظة اللقاء تلك سرى في عروقي دفءٌ جديد، عاودني الحنين مرة أخرى إلى كتابة

القصيدة. وأحسست للمرة الأولى كم كانت ريانة ومستفزة رائحة البرتقال. لم يدم عملي في بعقوبة أكثر من عام واحد تقريباً، إذ انتقلت إلى بغداد، ثم أكملت دراستي الجامعية هناك.

(3)

بعد سنوات، عمت البلاد والعباد تحولات كثيرة، فتفرقت بنا السبل، واختلفت بنا المصائر، وأخذ كل منا حصته مما أصابنا من خير أو شر. أغتيل الشاعر خليل المعاضيدي في فترة مبكرة من شبابه الشعري. ولم أعد أسمع شيئاً، مذ غادرت العراق في أول التسعينات، عن محسن الكيلاني، الذي كان بداية مبشرة في كتابة القصة القصيرة، وكان، إلى ذلك، ذا شخصية فياضة بالنبل والمرح الجميل. غير أن خالد الداحي، ذلك الشاب الوسيم، الرسام، المفتون بالصيد والمغامرة، واصل طريقه شاعراً عمودياً، ذا أسلوب خاص، يجمع بين رصانة اللغة، وعمق الصورة وشراستها.

أما سفيان الخزرجي فقد كان أصدقنا حدساً بما ستؤول اليه أيامنا المقبلة، فغادرنا مسرعاً إلى غربته المجهولة. لم يمكث عند كتابة القصيدة طويلاً، مع أنه ظلّ حتى الآن يختزن إحساساً عالياً بالجمال ورهافة الذوق. واستطاع أن يكرس نفسه شاعراً شديد الأناقة في مجال آخر. عرف منذ البداية أن موهبته الحقيقية تكمن في مكان آخر، في لغة

اللون والظل والضوء، حتى وصل إلى أن يكون، وعبر سنوات طويلة، أكثر مصوري الفوتغراف شهرة في السويد.

(4)

حين هبطت بي الطائرة، بعد ثلاثين عامًا من الغياب، في مطار استكهولم دهشت لصغره مقارنة بمطارات أوروبا أو مطار أمستردام، الذي جئت منه مباشرة، على الأقل. كان صغيراً جداً إلاّ أنه مريح إلى درجة كبيرة، أو هكذا بدا لي في تلك اللحظة. وما إن خرجت إلى قاعة المستقبلين حتى تفجّرت أولى انفعالات الروح: مزيج من المرح العاصف والشجن العميق وأنا أرى، في استقبالي، صديقي الفنان سفيان الخزرجي، الذي بدأ شاعراً، ثم كرّس نفسه، بعد ذلك، فنانـًا فوتوغرافيّـًا يعتمد شعريّة الضوء عوضـًا عن شعريّة الكلمة.

فاجأني سفيان، الذي كنت على تواصل دائم معه عبر الهاتف، بأريحية عراقية لن أنساها، حين استضافني في بيته الجميل طوال زيارتي تلك. كما فوجئت بذلك الكم المدهش من تفاصيل صداقتنا السابقة وأيامها البعيدة. كل شيء كان حاضراً في ذاكرته بقوة وشاعرية: تعارفنا الأول، لقاءاتنا، أصدقاؤنا المشتركون، بداياتنا الشعرية. وكان يتحدث، عن كل شيء، بكيانه كله. كان كتلة من المشاعر، وكأن سنوات الغربة الطويلة لم تصل إلى روحه ولم تغير منها شيئـًا.

كان سفيان الخزرجي من أوائل من تلقفتهم أيام المنفى، وذهبت بهم بعيداً في الحنين والتشظي. وقد أهديت اليه، في بداية التسعينات، قصيدة «طللية» وفيها بعضٌ من ذلك الحنين القاسي:

نمضي؟ إلى أينَ نمضي؟
ها هنا قمرٌ من الحنينِ يغطّينا..
هناكَ بقايا حُلْمنا، أينَ نمضي؟
أيُّ أسئلةٍ وحشيّةٍ تعترينا؟ أيُّ قرطبةٍ
تضيئنا، تختفي، تدنو، نطاردُها، تغيبُ عنّا..
ألا تنأى؟ ألا نصلُ؟
حتى متى نبتني حُلْماً
فيكسِرنا كالغصنِ؟
حتى متى الأيّامُ خاملةٌ؟
ويأسُنا ساطعاً ينمو ويكتملُ..؟

(5)

في صباح مبكر غادرنا، بسيارة سفيان، إلى مدينة مالمو. كان الشاعر شاكر السماوي قد جاء من هناك، قبل يومين، إلى ستوكهولم لحضور أمسيتي الشعرية، رغم بعد المسافة بين المدينتين. ثمة خطأٌ في عنوان المكان حال دون لقائنا في تلك الليلة.

عــاد شــاكر إلى مدينتــه البعيــدة، وهــو فــي غايــة الاســتياء، وكـان لا بـد لنا مـن الذهاب اليه.

كان شاكر السماوي حقيقياً في رضاه وفي عتبه. يكتب قصيدته العامية بالكثير من الوعي والثقافة والعمل الدؤوب، حتى يكـاد أن يجـرح أحيانـاً ما فيها من لحظاتٍ تلقائيةٍ مدهشة. كان سجالياً لا يملّ الحديث في الشعر والسياسة والثقافة. وكان لـه، إضـافة إلـى ذلـك، عاداتـه الخاصـة في بعـض أمور الحياة والكتابة، يعرفهـا الكثيـر مـن أصـدقائه المقـربين: كـان مثلاً لا يضـع خـاتم الـزواج في مكانـه المعتـاد مـن اليـد اليسـرى، بـل يضـعه، كمـا أتذكر، في البنصر من يده اليمنى. ومن عاداتـه في كتابـة مسـودات قصـائده، أنه كان يحكُّ الكلمة غير المرغوب فيها بالموس، بدل شـطبها أو محوهـا باستخدام الكوريكتر.

في مالمو، وفي منتصف النهار تقريباً، كنا عند المقهى الذي اتفقنا على اللقاء فيه. أخذنا ننظر إلى الزبائن من وراء الجدار الزجاجي للمقهى. هيأ سفيان الخزرجي آلة التصـوير، ليقتنص شـاكر السـماوي في أكثر تجلياتـه صدقاً. لـم نكن قد حددنا مكان جلوسه بعد. كان ثمة رجل يعطينا ظهـره، لـم نستطع تمييزه تمامـاً. كان المقهى مزدحمـاً جداً، وكان بعض الداخلين أو الخارجين من المقهى يشوشون نقاء المشهد على سفيان. لكن شيئـاً ما لاح أمامنا فجأة. تململ الرجل قليلاً في كرسيه. أخـرج مـن مغلـفٍ صـغيرٍ

موسىً شديدة اللمعان. وها هو ينحني على مسودة قصيدته، كما كان يفعل، في بغداد، قبل ثلاثين عاماً من الغياب..

(6)

فاجأتني ستوكهولم بالغابات، والشعر، والأصدقاء. كنت مدعوّاً من نادي تموز الثقافي العراقي، في المدينة، لإقامة أمسية شعرية. كان قد سبقني إلى المشاركة في أنشطة هذا النادي عدد من الشعراء والكتّاب منهم مظفر النوّاب، محمد سعيد الصكّار، وليلى العثمان. وكان من المقرّر أن يشاركني أمسيتي هذه الشاعر عزيز السماوي، غير أن الموت كان في انتظاره في لندن، قبل موعد الأمسية بأيام. كانت تلك الأمسية من أكثر الأماسي التي أقمتها قرباً إلى نفسي، مناخ يضج بعذاب القلب: طفولة تتناثر في الرماد، وأيام بيضاء توغل في غياب لا نهاية له، ووطن يُحال بينه وبين مستقبل يليق به. كان جمهور الأمسية، في غالبيّته، جمهوراً هذّبت ذائقته سنوات الغربة، وأرهفت روحه وطأة الحنين إلى ينابيعه الأولى.

أدهشني في ستوكهولم ليلها الأبيض الجميل؛ إن شمسها، إن كنت ترقبها وأنت على البحر، لا تسقط في الماء تماماً قبل العاشرة والنصف مساء تقريباً، وربّما ظل شيء من رذاذها الدامي بعد هذا الوقت. كما أن فضة الفجر تأخذ في الانتشار في ساعة مبكّرة جداً.

بيوت غائبة في نهارات رماديّة، أو غارقة في الغابات والعزلة والبحيرات. أناس منعّمون حد الضجر، وآخرون يهربون من غربة إلى غربة أشد. جمال خانق ومباهج فائضة عن الحاجة. سيارات لا تغمض مصابيحها نهاراً، وكأنها تخشى تقلّبات الجوّ ومفاجآته. نهاراتٌ تلتهم جزءاً كبيراً من الليل، وليلٌ قد يتكشّف عن نهار مفاجئ بين لحظة وأخرى.

(7)

كنت أمضي، معظم أيام تلك الزيارة، مع سفيان الخزرجي، الفنان والصديق القديم، في الاستمتاع بما أخذ من لقطات آسرة، أوما اختار من أماكن ذات جمال خارق للعادة. كنا معاً نتلذذ بفتح تلك الذخيرة من أيامنا الثمينة رغم ما كان يتخللها من ضجر الشباب، وكنت كأنني أكتفي بتلك البهجة عوضاً عن أية مسرةٍ أخرى.

وكم كان جميلاً أن ألتقي، هناك، بجزء من تاريخي الشخصي، شعراء وقصاصين شاركوني تفتّح الستينات، وجنونها وادعاءاتها، شاكر السماوي، الأب يوسف سعيد، برهان الخطيب، إبراهيم أحمد، عبد الغني الخليلي، سفيان الخزرجي، كاظم السماوي. وكم كان عظيماً أن أدرك أن ثراء نفوسهم أقوى من رياح الغربة، وأشد شراسة منها. كانوا مسكونين بالشعر دائماً، وكانوا يصغون بصدقٍ، إلى جذورهم البعيدة.

وكما أن للغياب فداحته، فإن للصداقات عذاباتها أيضاً. إن ذاكرتي ما تزال مفعمة برائحة الغابات، والسحب البيضاء، والبحيرات المتناثرة. وما تزال مفعمة أيضاً بنكهة الشعر والفجيعة؛ حيث أعادتني قصائد علي الكناني، وإبراهيم عبد الملك، وجاسم ولائي، إلى حضارة الألم، ونداءات الأنهار الأولى. ساعات لا تنسى. سفينة ضخمة تبحر بنا، في ساعات الصباح الأولى، من ستوكهولم إلى هلسنكي. لنعود من هناك مساء في سفينة أخرى. كنا جزءاً من عالم مائيّ كامل، يتحرك في بحر شديد الرحابة. كانت القصائد، والذكريات، والجولات، الأسواق الحرة، الكافيهات، والمطاعم. عالم فسيح من الماء. لا يتخلله إلا بضع جزر متباعدة، وبالغة الصغر أحياناً. لا تتسع ربما لأكثر من بيتين أو ثلاثة، يملكها بعضٌ من أكثر البشر حظاً في هذا العالم.

الشاعر، والوقت، والجامعة

(1)

كنت ما أزال في البيت، حينما اتصلت بي الدكتورة مريم خلفان السويدي، ذات صباح.. كانت آنذاك رئيسة لقسم اللغة العربية بجامعة الإمارات. لم أستطع في البداية أن أتبين، بالضبط، موضوع حديثها. عباراتها تتدافع، ويصادم بعضها بعضًا، لتتساقط بين يديَّ مفككة، وعلى استحياء.

عرفتُ منها، بعد أن هدأت قليلاً، أن تلك السنة الأكاديمية، 2015، ستكون سنتي الأخيرة في الجامعة لبلوغي السن القانونية. لا أدري إن كانت قد فوجئت بموقفي في تلك اللحظة أم لا. هدوء مشوب بالارتياح التام. هكذا كنت، لحظتها. أحسنت الجامعة صنعًا، فقد اتخذت قراراً كنت أوشك على اتخاذه، أكثر من مرة، ثم أتراجع أمام ضغوط العائلة.

ولم أكن الأستاذ الوحيد الذي أنهي عقده، ذلك العام، فقد كان معي مجموعة من الأساتذة منهم: عبد الله الدباغ، وعلاء نورس، ورشيد بوشعير. ثم مددت الجامعة بقاء الأستاذين نورس وبوشعير، سنة أخرى، بناء على طلبهما وبسبب ظروفهما الخاصة.

علمت من د. مريم السويدي، لاحقًا، أنها كانت تعرف بهذا القرار منذ

فترة، ولكنها أخفته عني لأنها كانت تبذل جهداً مع رئاسة الجامعة لإلغاء القرار أو الاتفاق معي للعمل فيها أستاذاً زائراً. شكرت لها موقفها بعمق، لكنني رفضت بشدة ما كانت تسعى اليه. لا أريد البقاء في الجامعة، بعذر كهذا. فلم أكن، في حياتي كلها، من الساعين إلى موقع ما، أو المتشبثين به، على حساب كرامتي. وكان يهمني جداً أن أجنب زميلتي الكريمة الحرج: كيف أقبل منها محاولاتها النبيلة تلك، مع إدارة الجامعة، وأنا رافض لمبدأ البقاء بإصرار تعرفه د. مريم جيداً.

(2)

بعد أسبوع أو أسبوعين ربما، دعتني د. مريم خلفان إلى عشاء وداعي، في فندق جبل حفيت، حضره معظم أساتذة القسم. وعلى مشهد ومسمع من الليل والحاضرين، وبناء على رغبة منهم، قرأت بعضاً من قصائدي، ثم شكرتهم على ما تحدثوا به عني من مشاعر وانطباعات ووعود بالتواصل، دعوات لقراءات شعرية ومحاضرات قادمة. كنت أدرك، وربما عبرت عن ذلك بلغة مباشرة، كما أدرك من سبقني من أساتذة أنهيت عقودهم قبلي، أن الكثير من ذلك الكلام الجميل قد لا يعدو كونه رغوة من كلام الليل الذي لا يصمد طويلاً.

وللحقيقة، لابد من القول إنّ د. مريم خلفان، بما عرف عنها من خلق رفيع، كانت الوحيدة من بين أساتذة القسم، ومعها د. علي شحاذة،

الأستاذ المتميز في قسم اللغويات الإنجليزية، اللذين ظلا حريصين على تجديد التواصل في فضاء من المودة والسجايا الأكاديمية العالية.

ومذ تركت العمل في الجامعة وحتى هذه اللحظة، كان لي وفرة من المشاركات العربية والدولية، أحسست معها أنني في الصميم، ربما، من فضاء الثقافة، والشعر، والنقد، وتحكيم الجوائز الشعرية والنقدية. وفي مقدمتها: جائزة الملك فيصل العالمية، وجائزة الشيخ زايد للكتاب، وجائزة الشعر العربي، وجائزة الشارقة، وجائزة محمد عفيفي مطر. وقد يكون حصولي على جائزة العويس الثقافية، فرع الشعر، عام 2019، من أهم الأحداث الأدبية بالنسبة لي. كانت تثمينًا رفيعًا لمسيرة شعرية تحدثت لجنة التحكيم عن خصائصها الجمالية والدلالية بكثير من الوعي والحرفية.

(3)

ارتبطت حياتي بفضاءات ثلاثة شديدة التداخل: القصيدة، والدراسة النقدية، والمقالة، أما التدريس الجامعي فيشكل فضاء رابعًا، يكمل الفضاءات السابقة ويكتمل بها. إنه إحدى متعي الكبرى. اعتدت أن أجد في محاضراتي المبكرة، ما أجده في مطرٍ صباحيٍّ يتنزه في مدينةٍ نظيفة. ولأنني أختار الصباح دائمًا وقتًا لتلك المحاضرات، فإن هذا التشبيه لا

مبالغة فيه. كنت ألتقي، كل يوم، ببدايات نهارٍ يندفع أمامي مشوباً برائحة الحبر وهواء القاعة، أنا والتفاصيل التي تتكرر باستمتاع لا ينفد.

إصبع الطباشير تتآكل، دون مللٍ، في كل لحظة. جيلٌ متلهفٌ، يتشكل أمامي كل يوم. بينما تتنقل عيناي الغائمتان بين همهمةٍ ممتعة، وسماءٍ ترتفع وتتسع آخذةً معها بعضاً من صخب الناس أو غبارهم الخفيف. وأنا منصرف بحماسة وفرح إلى الكتابة، وما تقتضيه من احتشاد وطقوس لا يمكن للكاتب العيش، متناغماً مع ذاته، بدونها.

كنت أعايش يومياً، نهاراً يبني ملامحه، وطلبةً يعيدون إليّ شيئاً من ماضٍ ما زلتُ أحنّ اليه. لحظةٌ بهيجةٌ أو شجية، تعيدها إليّ، لمسةٌ من المرح أو اللامبالاة، أو قدحةٌ من الفطنة الغضة. ربما فرحتي الأولى وأنا أصغي، بحرجٍ مشوبٍ بالغرور، إلى ثناء أستاذي على قصيدتي التي قرأتها في أمسية البارحة، أو نشرتها في جريدة اليوم.

قرابة عشرين عاماً من الصحبة الحميمة، الطيبة، مع كائنات هذا العالم الذي يأخذ طريقه الآن إلى الذاكرة؛ خزينٌ وفيرٌ من المواقف والعواطف والأفكار والدأب على الكتابة، سيمدّني، دون شك، بالكثير من الشجن أو البشاشة، وسأتذكر تفاصيلها بشغف محبب.

ولأول مرة، في حياتي الجامعية، تمدّد إجازة الصيف، في عام 2015 وتتسع، وتتراخى. أكثرُ من شهورٍ أربعةٍ وأنا أتنقلُ بين أربع مدنٍ تحتلّ منزلةً شديدة الخصوصية في نفسي: مدينة العين التي، كما قلت في مكان

آخر، ولدت من حفيف نخلتين في صحراء شاحبة. وعمان المسترخية، كحسناء مستبدةٍ، على تلالها السبعة. ومدينة بولو التركية المحفوفة بالجبال ونداءات القرويين القادمين من الأعالي.. وأخيراً، بغداد التي لم تعد، راجياً ألا يكون ذلك إلى الأبد، في عداد المدن التي تصلح للفرح والمحبة.

هكذا أنا الآن، لا شيء من نداءات العمل، أو ضغوطه المعززة برغبات الداخل تارة والمجردة منها تارة أخرى. وبينما أنا أتذكر ذلك كله، أراني أصغي، في اللحظة ذاتها وبعمق خاص، إلى صوت ت. س. إليوت ينتشر صافياً ملء العظام: لا بدّ للشاعر من قدْر من الكسل الضروريّ.

والكسل، هنا، ليس كسل الناس المعتاد بطبيعة الحال. وليس البطالةَ الذهنية، أو الخروجَ من دائرة الفعل، بل ذلك الكسل الذي نحتاجه، نغترفه من جرار الوقت بمقدارٍ محسوب. المقدار الذي تحن اليه الروح كي تستمتع بتموّج زمنها الخاص، ويهفو إليه القلب ليغرق في لذةٍ حرةٍ يصغي فيها إلى نبضه وهو يتجدد، ويتشهاه الجسد ليظل مشدوداً، دون إرهاقٍ، إلى لحظة المبادرة، ولأن هذا الكسل ضروريٌّ فهو كسلٌ بالمعنى الجميل والمعافى للكلمة.

هكذا تماما، صار في مقدوري أن أزيح الستائر جميعاً وفي آنٍ معا لأطل، وكأني أفعل ذلك للمرة الأولى، على جنةٍ ريانة ومحروسةٍ بعناية. لي الآن أن آخذ حصتي، كاملة منها بعد أن صارت على مرمى وردةٍ مني؟

جملةٌ من الممكنات كانت هناك، وكنتُ على وشك الوصول اليها لولا إيقاع العمل اليوميّ وشعائره القسرية. كانت هناك دائماً، على مقربة من أصابعي الموغلة في السهر والكتابة وانتظار يوم قادم. لا يمكنني أن أنسى قصيدتي «لك أن تهدأ الآن» لقد كانت شحنةً حارةً من الفرح، وانفلاتاً من قبضة الساحرات الجميلات، أوهي حاجة الطائر إلى ريشه الدافئ. كتبتها، ذات لحظة، كنت فيها في دوامة اتخاذ القرار الأخير، الذي لم أفلح، للأسف الشديد، في الوصول إليه في وقته الضروري.

(4)

لي أن أجرّب اليوم، وللمرة الأولى منذ سنوات، لذة الإصغاء إلى بذرةٍ تتأوّه في لحظةِ طلقٍ نادرة. أن أحتسي قدح الشاي، على مهلٍ. أن أتأمّل وجهاً قادماً من أقاصي الروح، ولي أن أطيل بهجة السهر، في حوارٍ لا يهدأ، مع قصيدةٍ لا تلين، أو فكرةٍ أحاول يائساً استدراجها إلى قفصٍ أعددتُهُ بإحكامٍ: وعليّ، أخيراً، أن أعتذر إلى تلك القصيدة عن خذلاني لها ذات يوم، غطى فيه سحر القاعة وصخبها البهيج على أنين القصيدة الخافت:

لكَ أن تهـدأَ الآنَ..
أن تتلمّسَ بدءَ النهاراتِ مسترخيـًا..
شرفةٌ مثلُ كأسٍ إلهيةٍ:
تتذوقُ رائحةَ الفجرِ، أو يقظةَ الثمرةْ..
تتمسّحُ فيكَ القصيدةُ ريّانـةً مثلَ أنثى..
تنادي النجومَ التي صدِئتْ من ضجيجِ النيوناتِ..
ذاك الهلال الذي لم ترَهْ
منذ عَقـديـنِ، سوف ترافقـهُ في غـــدٍ
حـافيًا يصعـدُ التلّ، أو لابسـًا
عـزلـةَ الشجرةْ..

(5)

وجدت في الجامعة تفاوتـًا لا يمكن إخفاؤه بين العقليات التي تتصدى للبحث أو التدريس. حقل بالغ السعة وغير متجانس حدّ إدماء القدمين أحيانـًا: أستاذ يتحدث عن قصيدة التفعيلة ويظن أنها قصيدة نثر، وآخر يشفق على الطلبة من وعورة قصيدة عذبة كأنشودة المطر للسياب، وآخر لا يخرج، في معظم ما يكتب، عن الشائع والمقدور عليه من الكلام. وبين هؤلاء جميعـًا أستاذ آخر قد يخوض، وهو في مقتبل شبابه الكتابي، في نهر شديد الضيق، مسترسلاً في نشيد نقدي لا ينتهي، عن شاعر واحد. وربما

ينسى هذا الناقد المثابر، أن منازلة قصيدة أكثر وعورة هي فرصة كبرى، تدفعه إلى مزيد من النضج، وتوسع من قدراته على ابتكار الحلول، وتجاوز مفاجآت التطبيق أكثر مما تفعل قصيدة واضحة الحمولة وسهلة المآخذ.

وفي أحيان كثيرة، قد يجد الطلبة متعة في متابعة مساقاتهم التخصصية أو العامة، مع أستاذ شاعر أو كاتب أو فنان، تتجلى لديه، غالباً، قدرة شفاهية أكثر تأثيراً من الأكاديمي المحترف. الذي لم يسبق له، كما في حالة الشاعر أو الأديب أو الفنان، أن انطلق في فضاءات رحبة، إنشاد القصيدة، الحديث بلغة جسدية عامرة بالانفعالات وإيحاءات الصوت، وتموجاته. يدخل الأكاديمي المبدع قاعة الدرس وقد خبر قبل هذا اليوم لحظة التلقي، ومراوغة النص بشتى الوسائل للوصول به إلى حواس الطالب. كما أنه أقدر ربما على اختيار النص الشعري، القريب من مدارك الطالب وحاجاته النفسية والوجدانية، والثقافية.

(6)

وكلامي هنا غير قابل للتعميم دائماً، فلا حدود كونكريتية تفصل بين الأكاديمي المحترف والأكاديمي المبدع، الذي يقبل من فضاء جمالي رحب، حيث الخروقات، وتجاوز المألوف في فعل الكتابة أو توصيف هذا الفعل. وقد يكون الإحساس هو الفيصل القاسي بينهما، والشاعرية

ليست نصية على الدوام، فقد تكون خاصية داخلية، أو خميرة تمارس حضورها في الذات الكاتبة، تسبق النص وتسهم في تحققه، في التأجيج، ودرجة الدفء، وحضور الجسد.

وتتجلى تمايزات أخرى ربما، في الكتابة النقدية للأكاديمي المبدع، أو الناقد ذي الرأسين، كما يسميه الكاتب الأرجنتيني إنريك إمبرت. إنه ناقد تخفف إلى أقصى حد من القشور الأكاديمية التي لا جدوى منها، لكنه احتفظ بالروح المرنة، للأكاديمية المرهفة، اليقظة، التي تتذوّق صعوبات النص، وتدرك مشاق الصنعة، وعبور الملفوظ من الوجود الهلامي إلى التحقق الصادم.

وتظل لغة هذا الأكاديمي النوعي على مقربة من اجتراح المغامرة. تناور، وتحار، وتتساءل، ولا تمتلك اليقين العصيّ على الدحض دائماً، لكنها تزدهر في فضاء من التجليات وصنع البهجة الرفيعة، وهذا بعض من صلة القربى التي تجمعها بأدبية القول أو شعريته. فهي لغة ترتجل حريتها في طريقة هي أقرب إلى الأدب وخروقاته للثوابت.

ولغة الأكاديمي المبدع، قد تنجز مهمتها النقدية مبرأة من التهيب إلى حد واضح. تتعالى على الشكليات وباروكات الهوامش، والإحالات الفائضة عن الحاجة، والتي لا تسمن من جوع معرفي جمالي. والكتابة، عنده، تحترم المرجع لكنها لا تتعبد في محرابه. تأنس به ولا تستغيث به بين جملة وأخرى، وكأنها مطالبَةٌ دائماً بإثبات براءتها من نقيصة ما، فلا براهين تثبت جدوى الكتابة غير الكتابة ذاتها.

5

من الذي أغرى ذئاب الريح؟

(1)

ذات فجر بارد، وشديد القسوة، ضاق الحبل الغليظ على الرقبة. واختلطت نكهة العيد بالدم النافر من عنق التمثال. قبل تلك اللحظة بسنوات، وفي فجر دموي آخر من عام 2003. عبرت الجسر دبابتان متجهمتان متجهتين إلى جانب الرصافة إيذاناً بانهيارالبلاد على أهلها، وكانتا تقصدان ساحة الأندلس تحديداً. ثمة تمثال طويل القامة، صارم القسمات، يتوسط تلك الساحة الشهيرة. قبل تلك اللحظة كان مرأى ذلك التمثال، مجرد مرآه، يبعث الرهبة في قلوب الكثيرين. لكنه، وفي اللحظة ذاتها، كان يبعث مشاعر الانتماء إلى البلد في نفوس الكثيرين أيضاً.

(2)

حين أدخلوني عليه، ذات مساء، في منتصف السبعينات، أذهلني حضوره المربك الوسيم، عن كلمات كنت هيأتها للدفاع عما جئت من أجله. كان في تلك الفترة يحتكر تسمية خاصة به: السيد النائب، وهي تسمية تبدو للكثيرين أقل من ظله الممتد على البلاد جميعاً. غير أنه كان يضفي على كل منصب يشغله ما يجعله ساحراً ومخيفاً في الآن نفسه..

كنت قد اتصلت به تلفونيًا، قبل ثلاثة أيام، فقد كان رقم هاتفه متاحًا للناس، في دليل الهاتف العام. كان ردّه، شخصيًا، على التلفون مفاجأة لها وقع الصدمة لا المفاجأة. وحين عرفته بنفسي، أكد لي معرفته بالاسم. مع أن إحساسي يقول لي غير ذلك. فعبارته تلك قد لا تنتمي للحقيقة قدر انتمائها للذكاء ودهاء السلطة. حدد لي موعداً للحضور إلى مكتبه في المجلس الوطني، وطلب مني تليخص قضيتي بسطرين أو ثلاثة.

كنت مضطراً إلى ذلك اللقاء، بعد أن صدر حكم قضائي جائر بإخراجي من البيت الذي كنت استأجره في حي القادسية ببغداد. كان صاحب البيت ضابطًا كبيراً، سبق له أن شغل العديد من المواقع الخطيرة، وتربطه برئيس الدولة قرابة عائلية، وقد تقاعد مؤخراً. كان يدّعي كتابة الشعر، وكثيراً ما ورد اسمه مقرونًا بأحد شعراء العراق الكبار، كان يمكنني كسب الدعوى لولا انحياز القاضي بدافع الخوف أو خراب الضمير. كانت لحظة لقائي السيد النائب عصية على النسيان، حتى في خضم اختلاطها بتاريخه الموغل في الإنجازات والانهيارات على حد سواء..

ارتقى منصة الإعدام، بعد أن اختار الهيئة التي يواجه بها لحظة الموت كما يريد، فبدلاً من ملابس السجن المعتادة، في مثل هذه اللحظات، ارتدى معطفًا أسود، وابتسامة خفيفة مشوبة بشيء من الغموض أو السخرية، وهو ينظر في وجه الرجل المكلف بتنفيذ عملية الشنق. كان

الحبل الذي تم اختياره غليظاً وخشناً، وكانت عملية التنفيذ على درجة واضحة من الارتباك والعجلة. حين ارتقى المنصة، بدا وكأنه يصعد من أنقاض بلد مهدم، غير أن قدراً من الصلابة، أو التماسك الشخصيّ ما يزال واضحاً للعيان، حتى وهو مثقل بالقيود والاتهامات.

سألني، وهو يقرأ اسمي، عن الموطن الأصلي للعائلة: «العمارة، الحلة، أم النجف؟».

عجبتُ من معلوماته التي تتصل بالقبائل والعوائل العراقية ومناطق سكناها. وما أثار استغرابي أيضاً، من خلال نقاشه مع المواطنين، أنه، على العكس من ولعه بالأحاديث المسهبة، لا يحب الإطالة في الكلام أو الكتابة، ولا يُخدع بالبلاغة التي تطفو على السطوح. التفتَ اليَّ وقال بنبرة صارمة: «إن هذا الرجل»، ويعني الضابط الكبير الذي هددني بصلته العائلية بالرئيس، «لا يعرف من القيادة أحداً». ثم أردف، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح أمامه: «ستستمر أنت في سكنى البيت الحالي وبإيجاره الراهن حتى تتركه بمحض إرادتك». ثم دون هذه العبارة بخط أحمر، مختومة بتوقيعه. وفعلاً تركت البيت، وبمحض إرادتي، بعد أربع سنوات أو خمس حين سافرت إلى بريطانيا لإكمال دراستي العليا.

في تلك اللحظة التفتُّ ناحيته. كان ما يزال منشغلاً بكتابة هامشه الذي لا أنساه. ومع التفاتتي رفع رأسه فجأة كمن فوجئ بنظرتي اليه، كأنه أحس بارتباك حركة الهواء المحيط به، كان شديد الحذر، ولكنه شديد التعاطف أيضاً. شعرت لحظتها بالخوف على قصيدتي منه. خشيت أن تضيق

المسافة بينها وبينه، أو بيني وبين هذا الإنسان الجبار الذي ينتصر لقضيتي، في هذه اللحظة، بطريقة لم تخطر لي على بال.

بعد يومين، وفي ساعات الصباح الأولى تماماً، رنّ جرس الهاتف في غرفتي بالمجلة. كان معي على الخط مكتب مدير العلاقات في دائرة الأمن العامة. بعد أقل من ساعة كنت في الزمان والمكان المحددين. كان الضابط الكبير المتقاعد قد سبقني إلى هناك. في وضع مرتبك، وهو يقف أمام ضابط شاب حاد الملامح واللغة معا:

- سأعتبر مرورك في الشارع أو المنطقة تهديداً لحياة الأستاذ علي.

قال ضابط الأمن الشاب عبارته تلك بنبرة شديدة الانحياز إلى قضيتي. لم تصدر عن الضابط الكبير المتقاعد ردة فعل غير ما بدا عليه من العجز وقلة الحيلة. واضح أن ضابط الأمن كان يتحدث بقوة السيد النائب، وسلطته الماحقة، ولم يكن أمام الضابط الكبير سوى الاستسلام المطلق لتلك السلطة وتداعياتها الخطيرة:

- أما إيجار الدار فسيلتزم المستأجر بإيصاله اليك في الوقت المحدد وبالطريقة التي يختارها.

أخذتني الدهشة تماماً. أيّ قوة هذه؟ جملةٌ واحدة، يكتبها الحاكم القوي، فتنتشر، كالنار، في المفاصل السرية للحكومة، ويتم العمل بها من قِبَلَ الأجهزة المعنية في منتهى الصرامة، خلال أربع وعشرين ساعة أو أقل ربما.

(3)

وقبل أن يكمل ترديد الشهادة الثانية، هوى جسد الرئيس الوسيم والحاكم المطلق إلى الهوة المظلمة، وانزلق معه، منذ تلك اللحظة، بلد بأكمله إلى هاوية التفكك، والفوضى، والجهل، والرشوة، واندلعت حقبة سوداء من الفتن والتخلف لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. غير أنني كنت في خضمّ حوارٍ لا يرحم، يمتدُّ صاعداً من أقاصي تخوم الحيرة وقرارات التهلكة، ومن صميم لحظةٍ تخلى فيها التاريخ عن حكمته، ليستجيب لنداء الغريزة التي لن يخمد لهيبها إلى قرون قادمة ربما:

هكذا عدتَ وحدك..

لا مركباتُ الغنائمِ لا مطرُ العازفينَ..

فأينَ خيولُ الفجيعةِ، أو عشبةُ الوهمِ

أين هي العربةْ؟

هل حملتَ إلينا الندى؟

أم نشيداً من القشِّ، والجثَثِ المتربةْ؟

هل حملتَ البيارقَ، أم أنهراً خَرِبَةْ؟

(4)

في لندن عام 2009، وفي أمسية شعرية أقامها منتدى الكوفة، وقدمني فيها الشاعر الصديق فوزي كريم، سألني أحد الحاضرين، وهو شاعر،

كما كان يبدو من لغته، عن تصوري لما جرى ويجري منذ 2003. لم يكن ما جرى في بغداد تغييراً لنظام مستبد. هكذا أجبته. ثمة آلةٌ كونيةٌ شديدة اللؤم اقتلعت البلد كله، وزرعت، بدلاً عنه، غابة من غرائز الانحطاط والعودة إلى ماضٍ غاطس في آبار الدم. كل شيء كان هدفاً لتدمير مبرمج: الشجر والحجر، وكل ما يربط الإنسان بالإنسان من ألفة ومحبة.

كان في سؤال الشاعر الكثير من المرارة، وفي إجابتي مرارة أشد. في صوته مرارة العراقيّ المنفيّ عن بلدٍ لم ير منه إلا ما تقدمه له الذاكرة. وكان لي لغتي المرضوضة تحت فداحة اليوميّ، وتراجيديا الخبرة التي تكرر نفسها على مدى عقود وأجيال. كان لنا، نحن الذين بقينا في الداخل، القليل من الوطن، والكثير من الحرمان والخوف والهلاك. أما السائل فبينه وبين الزمن العراقي بون شاسع. وثمة فلاتر كثيرة، كانت تصفّي وتنقّي وتصقل وتختار ما يصل اليه.

كان يصدر، أو كأنه يفعل ذلك، عن فكرة جاهزة عن نظم شمولية لم يعشها. يلعنها وهو في ذروة استرخائه في الحانات، وفضاءات المتع التي هي، بالنسبة للعراقيّ البعيد، بهجة محرمة، لا يمتلك حتى حرية تخيلها. كان في متناوله، كاتباً وإنساناً، كل ما حُرّم على العراقيّ، بصفتيه هاتين أيضاً، من متع سائبة، وأخرى عالية القيمة، من ممكنات هي طوع حواسه، وفي متناول لغته وتشهياته: متعة البار، وبهجة البصر، وفتنة

السرير، والوجبة المشتهاة، ونعمة الأمان، والشيخوخة الكريمة. كل ذلك وكثير غيره: حرية الحلم، والعيش والموت، والسفر، والخيار في تفاصيل الحياة ومفاصلها الكثيرة. وكان له ذلك الممكن الجميل: القصيدة حين يتلقاها القارئ، حرة، ومتاحة للنشر والترحل عبر الأمكنة والأزمنة واللغات.

في تلك الفترة العصيبة التي تلت 2003 تحول الوطن كله من كون إلى كون آخر، في تضاد صارخ بينهما لا يصدق: من بلد عاشَ فائض القوة حد التخمة، إلى كيانٍ مهلهل كالخرقة. لم يعرف إلا التآكل والانحدار، حتى صارت أكثر القيم المبجلة في الخيال الجمعي، عرضة لنداءات الباعة ومساوماتهم الرخيصة: الأخلاق، العدالة، التخصّص، إدارة الدولة، الضمير السياسي، الورع الديني، الانتماء للوطن.

(5)

كنت أرى العجلة الجهنمية تطحن، دونما رحمة أو تمييز. كلَّ من وكلَّ ما، يقع أمامها. وجد العراقيون أنفسهم في بلد تتم صناعته بفعل فاعل. بمعزل عنهم، ووفق مواصفات في منتهى الكيد والبشاعة. ثمة عراقيون يسهمون في صناعة ذلك الدمار، وآخرون يستفيدون إلى أقصى حد من هذا الوضع المشين. دستور يبعث على الضحك والبكاء في آن معًا. بلد يستهلك كل شيء ولا يصنع أو يزرع شيئًا. جامعات تحول

الكثير منها إلى تكايا للنعرات التي تفرق. موت يصنع بوفرة مخيفة وبشكل يومي وبأصناف شتّى. مدن تقطّع أوصالها، إلى مناطق ذات صبغة تبعث الريبة والوحشة في قلوب أخرى. وصار للأسماء سيميائية مهلكة، وإيماءات عرقية، أو طائفية، أو مناطقية.

كان عبث الأبجدية، في 2006-2008، واضحاً كفضيحة لا تخفى على أحد. تمرّ سيارة محملة بالركاب أمام نقطة للتفتيش، يتم التحديق بالأسماء، وتتحدد مصائر الموجودين حسب أسمائهم وإيحاءاتها المذهبية. أحسست لحظتها باحتدام داخلي، ريح حارة تصعد من أحشاء محروقة. قصيدة تندفع بقوة ما: اسم يريب، أو يؤدي إلى التهلكة وآخر يحظى بالتبجيل. كنت أتجنب تلك اللحظة الشبيهة بالهاجس، حتى لا تتجاوز الإحساس إلى اليقين، أو التوهم إلى الواقعة. لكن القصيدة تتمرد عليَّ لتسجل تلك اللحظة الرجراجة، الملطخة بدم القتلى أو ذعر المنتظرين نهاياتهم المؤجلة، إلى موعد متروك لليل والصدف العمياء:

ما الذي صيّر اليوم أسماءَنا مكمناً للهلاكْ؟

ربما يكمنُ الموتُ ما بين حرفين في اسمكَ،

أو ربما بين نبضينِ أو خطوتينْ..

أمصادفةٌ تلكَ أم أنه عبث الأبجديةِ؟

كيف يكون لموتك رنّةُ حزنٍ سماويةٍ هاهنا..

ولموتيَ مغزىً قديمٌ هناكْ؟

كل شيء صار عرضة للموت، والاغتصاب، والخطف، والتهجير، والمصادرة. مخطط كان ينفذ بعناية فائقة للإجهاز على البلد ومقوماته. فتنة طائفية بلغت مديات لم يشهد العراقيون لها مثيلاً. وطن يأكل ذاته، وتستبيح مكوناته بعضها بعضا. صار الاستثناء والطارئ والشاذ ثقافة تحكم الناس وتشكل معايير سلوكهم: سرقة المال العام، وانتهاك معايير الفضيلة في السلوك السوي. وطن أعزل في عراء وحشي، صارخ. ترى الظلم ولا تملك له رداً. ليس أمامك إلا أن تحتج، في السر، وأنت رهين عجزك وإحساسك بالامتهان.

الرايات، والصهيل، وأنين الحجارة

(1)

تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها الماضي، وجهاً لوجه، وهو ينضح من الجدران، والنباتات المتشابكة. المرة الأولى التي أشم فيها رائحة أيامنا الأندلسيّة وقد انتفضت أمامي فجأة وهي تتكشف عن غنىً وجداني شديد التوتّر.

كان ذلك في عام 1982. كنت قادماً من لندن للالتقاء بالشاعر الراحل عبد الوهاب البياتي الذي كان يعمل آنذاك مستشاراً في السفارة العراقية بمدريد، وكنت وقتها في المراحل الأخيرة من دراستي للدكتوراه في جامعة إكستر البريطانية. كنت أمضي معظم وقتي مع البيّاتي، وصلاح فضل الذي تعرّفت عليه هناك، حيث كان يعمل مديراً للمركز الثقافي المصري.

كم كنت محتاجاً إلى زيارة كتلك: تعيدني إلى مناخ الشعر ثانية بعد سنوات ثلاث من الانغمار في البحث والدراسة. كان الوقت يمضي ممتعاً وسريعاً مع البياتي: في بيته حيث عائلته وكتبه، أو في مقهاه حيث أصدقاؤه المعجبون به، وحيث نرجسيته وقدرته الفائقة على النميمة المحببة. وكان لا بد لقصائد البياتي وأجوائه أن تدفع بي جنوباً: إلى الأندلس، ذلك الجنوب الحافل بالإثارة والجمال.

(2)

كان الباص السياحي ينحدر بنا، جنوباً، وهو معبأ بأريج خاص يهبُّ على أرواحنا من تلك الطبيعة الإسبانية الغنية بتموجّها الجغرافي: سهول ممتدّة، ووديان عميقة، وجبال تلفّ قممها العالية بالأناشيد البيضاء. حوار سرّي ومكتوم. لكنه، مع ذلك، مرئي إلى حدود بعيدة.

لم أشهد قبل ذلك طبيعة بهيجة ومتنوّعة كهذه؛ فأنت تجد، في الكثير من بلدان العالم، طبيعة تتوهج بجبالها وغاباتها ومراعيها، لكنك قد لا تجد دائماً مثل هذا الحوار المرهف والمتغير الذي يدور بين عناصر الطبيعة الإسبانية. طبيعة تستفز الحواس دائماً. تكسر إيقاعها، وتغيّر نبرتها الخضراء.

كانت حقول العنب الكثيفة، وعناقيدها المسكرة، تضفي على جانبي الطريق إيقاعاً خاصاً يصعب نسيانه. ولم تكن تلك الحقول تستمر معنا طويلاً حتى حدود الضجر، بل تُخْلي مكانها، بعد فترة، لمساحات شاسعة من القمح، أو أشجار الرمّان، والزيتون والتفّاح وغيرها من الفاكهة. وهكذا كنت أتنقّل بين فضاءات من الإيقاع المتنوع: تتنامى، وتشتبك، حتى تملأ الهواء بغبار الذهب الكثيف تارة، ورائحة النبيذ تارة أخرى، وطعم الرمّان الحاد تارة ثالثة.

كلّما أوغل بنا الباص في طريقنا إلى الأندلس، وجدت نفسي مسكوناً بذلك الشجن القديم يفوح من مدن إشبيليا وقرطبة وغرناطة ورونده. كانت نفسي تفقد شيئاً من محدوديّتها لتذوب، تدريجياً، في ذلك الفضاء

الوجداني المحتدم بالترقّب. فضاءٌ لا أعلم بدايته بالضبط، كما لم أكن أدري نهايته تمامًا. كل ما كنت أحسّه أن جوارحي كلّها كانت ترتجف في مهب ريح محزنة. تنتزعني من صلادة الحاضر، وبرودته، وانكساراته، لتلقي بي في الماضي: حيث تتأجّج نار التاريخ، وتتعالى شراستها المجيدة.

لم أكن قد رأيت حجراً يتأوّه أو جداراً تخنقه العبرات قبل تلك اللحظة. كان التاريخ يتخلّى عن نياشينه وبيارقه، وينزع عن خيوله أرسانها لتنطلق في براري الذاكرة. والكتابة العربية على جدران الجامع تجسيدٌ لحقيقة تبعث على الأسى: أيها التاريخ الحكيم، الشاعر، الطافح بالحياة، ماذا تبقّى منك؟

نعم، ما الذي تبقّى من فتنته، وبسالته، وفوضاه؟ لم يكن هناك إلا التراب المعذّب، وطيور المآذن. لم يكن هناك سواي، وأنا ألوذ بالماضي ممتلئًا بوحشة كونيّة. وإحساس باليتم لا يُطاق.

كنت أمام زمنين يقتتلان بضراوة: ماضٍ مهيب ينعش الذاكرة بالكتب والرايات والصهيل المخبوء بين الحجارة، وحاضر لا ضوء فيه: دبابات تقتحم مكتبات بيروت وتنهشُ كرامتها، وخليل حاوي يلوذ بالموت هربًا من عارٍ عربيّ لا تملك القصيدة له دفعًا، وفلسطينيون يُدفعون إلى البحر ليذهب بهم إلى الموت أو المنافي مرة أخرى.

(3)

كل شيء في غرناطة يبعث في الروح إحساساً خاصاً: طرقاتها المرصوفة بالحصى، وشرفاتها المغمورة بالسهر والأزهار وعيون النساء الجميلات. كان حصى الأزقّة صقيلاً كالمرايا، ومتراصّاً كحب الرمّان. وكان أبو عبد الله الصغير قد غادرها توّاً. بحثت عنه دون جدوى: لا سيف يقطر دماً، ولا فرس جامحة. ليس هناك إلا أفواج السوّاح وهم يتزاحمون متوجّهين إلى قصر الحمراء وجنة العريف. ليس هناك إلا مفاتيح غرناطة، تتألق في يد إيزابيلا وهي على جوادها المطهّم بالضوء والذهب والتشفّي.

واندفعت مع السوّاح إلى قصر الحمراء. كانت أكثر اللغات حيويّة تتهاوى دون عمارته المذهلة، لوحة يبلغ فيها الخيال أقصى مدياته. إنّها العبقرية التي أنطقت الحجر بالحنين، وعقدت حواراً ساطعاً بين صلابة المادة ومتاهات التجريد، بين النسبي العابر والمطلق الذي لا نهاية له.

(4)

ما كنت أتصوّر أن الماضي يمكن تجسيده إلى هذا الحدّ. إن كتب التاريخ كلها لا تستطيع أن تفصح عمّا فيه من عذاب أو زهوٍ كما تفعل بيوت غرناطة وشُرفاتها، أو جامع قرطبة، أو قصر الحمراء. إنه التاريخ، مرئيّاً، يهجم على الحواس دفعة واحدة: الحجر البليغ، والتراب الصادح، الشرس، الأصم. وهو، أخيراً، الهواء المعبّأ بعبق القباب،

وهتاف الذاهبين إلى الفتوحات.

كأن غرناطة وقرطبة تفتحان جرحاً في الروح والذاكرة لا ينطفئ. سَرَتْ في كياني كلّه رعدة من الفرح المنكسر. فأحسست أن في داخلي أنهاراً تتدافع ونيراناً تعلو. وهكذا لم تكن قصيدتاي «فاكهة الماضي» و«مرثية جديدة إلى قرطبة» إلا بداية لكل ما فعلته بي، بعد ذلك، هاتان المدينتان الآسرتان. لقد أخذتا بمخيّلتي، ثانية، إلى ذلك الكمون الناري الذي كاد البحث الأكاديمي أن يفصلني عنه بركام من الثلج، والأوراق الباردة، والجذاذات. وهكذا كانت مدينة قرطبة على مرمى حجرٍ يتأوّه:

ودخَلْنا أزقّتَها:
الشرفاتُ أنينٌ وورِدٌ
ومسجدُها سيّدٌ غارقٌ في مهابتِهِ..
حين بادرتُهُ بالسلامْ
انحنى، وتلألأَ في شفتَيْهِ غبارُ الكلامْ..
ثم ضجَّ أنينُ الحجارةِ، واتّسعَتْ ظُلمةٌ
وتسامى عمودٌ من الضَوْءِ ينحلُّ
في طَرَفِ الأرضِ..

وفي مدينة غرناطة كان الماضي أشدّ إثارةً للمخيلة، وأكثر استفزازاً لقراءاتنا المنسية. الماضي كله، ودفعة واحدة، يجلس، على مقربة من نومنا الذي تخفق فيه الرايات المجروحة، ويتجدد فيه رفيف الدمع مع كل

إشارة تردنا من هناك. ملاذٌ صغير، بالغ الكرم ربما، لكنه عابرٌ، مثل صلح مؤقت مع عوامل التصدع والشتات:

ألمحُها في فجرِ كلِّ يومْ

تنسَلُّ من نُعاسِها ساعةَ يحلو النومْ..

ساعةَ يغدو الضَوْءُ والظلمةُ

توأمينِ، والندى سريرْ،

تجلسُ عندَ آخرِ الليلِ، على بساطِهِ الأخيرْ..

أهتفُ: غرناطةُ يا فاكهةَ الماضي،

نسيمٌ واحدٌ يلفُّنا، غبارُنا من الزمانِ واحدٌ..

أوراقُنا واحدةٌ..

نحنُ بقايا طلَلٍ مباركٍ..

نحنُ شَظايا حُلْمِنا الأخيرْ..

اللجـوء منه أم اللجـوء إليه؟

(1)

خرجت مسرعـًا تحت مساءٍ لندنيٍّ كثيف، ومطرٍ أشد كثافة، إلى موقف الباص الذي يقع تحت شقتي تقريبـًا. طالمـا ربطني بالبـاص الأحمر ذي الطـابقين تحديـداً، حنـين خـاصٌ، يشـدني إلـى أول أيـامي في بغـداد الخمسينات قادمـًا مـن محافظـة واسـط. كنـت، في ذلـك المسـاء اللنـدني البارد على موعد مع اثنين من أكثر أصـدقائي لطفـًا. عـلاء بشـير وفـاروق يوسف. حين نزلت من الباص، وجـدتهما ينتظـران، مـع زوجتيهمـا، علـى الرصيف الزلـق، إذ كـان الثلج قـد بـدأ يهطـل بغـزارة علـى الليـل وأنفـاس المـارة. وفي المطعـم، المعـروف بأطعمتـه الشـرقية، انتـابني إحسـاس مضاعف بلذة الدفء، فبرد الخارج يضاعف الإحساس بالدفء، عادة، في تفاصيل المكان الذي نحل فيه.

كانت لقاءاتي بفـاروق يوسـف وزوجتـه سـناء لا تنقطـع، منـذ وصـولي لندن. حيث يستقبلاني، في شقتهما، بكرم وأريحية. وكانا يـدركان صـعوبة العيش بعيـداً عـن أسـرتي، وأنـا المعـروف بانشـدادي إلـى تفاصـيل الحيـاة البيتيـة. معجبـًا كنـت بلغـة فـاروق يوسـف التـي لا أجـد فيهـا حـدوداً بـين الشعر وسواه. فما يكتبه، في أي موضوع كان، يضعني في حضرة الشعر منذ السطر الأول، وبذلك، وعلى مر السنوات، استطاع أن يربي لغة خاصة به،

لا تمتُّ بصلةٍ إلى أيّ من أبناء جيله. ورغم أن كتاباته تتوزع على الفن التشكيلي، والنقد، والشعر، والسياسة، إلا أنها كانت تغترف من الشعر أجمل ما فيه: الصورة، والإيحاء، وانزياحات التعبير.

في الجلوس إلى علاء بشير، سحر خاص، يتدفق من هذا الجمع المثير للاهتمام بين حقلين متباعدين: الطب، وما يتطلبه من يقظةٍ ذهنية عاليةٍ، والرسم والنحت، ومناخاتهما العامرة بشطحات الحلم والخيال. إن المتأمل لرسومه ومنحوتاته الحادة والغرائبية والكابوسية الصادمة لا يصدق أنها نتاج هذا الطبيب وجراح التجميل المرموق، أوهذه الشخصية المتسمة، إلى حد بعيد، بالهدوء والشاعرية. كنت أجد فيه دائماً العالم والفنان والعراقي الصميم في عجينة شديدة التجانس وبالغة الندرة. كان يأتي إلى لندن من مدينة نوتنكهام، للقاء أصدقائه، وغالباً ما يكون ذلك في فندق هلتون ميترو بول في منطقة أجور رود.

(2)

خمسة وعشرونَ عاماً أمضيتها بمدينة العين في الإمارات، فترة من الحيوية الاستثنائية في الكتابة والنشر والتدريس الجامعي. كان التواصل نشيطاً ونوعياً مع مباهج شتى: نهارات تنهمر ساطعة فتملأ قاعات الدرس، نقاشات تجدد إيقاعات الروح، قلوب تحلم وتضيء من وراء العباءات، وعقول تتصاعد إلى آخر ما في رؤوسهنّ من أحلام.

ورغم ذلك، فإن هذه الهالة من النجاحات، في كل شيء تقريباً، لم تدفعني، إلى لحظة واحدة من النسيان. بل كان يؤرقني إحساس دائم أن هناك، وراء هذا السطوع كله، بلداً يتساقط من ذاكرة العالم ذاهباً إلى المجهول. حصارات تعتصر شعباً بأكمله، تعب الناس وافتقارهم المهين إلى أبسط مستلزمات العيش. وبسبب ذلك، لم أشعر يوماً بهناءة الاستقرار أو لذة الإقامة في المكان. لهذا كثيراً ما كانت تأتيني القصيدة مثل ندم على ما فات:

- ربما فاتني أن أهاجرَ، أو فاتني أن أقيمْ..

ربما فاتني أن يكون الندى حصتي

لا الهشيمْ..

أو على شكل قدر إلهيٍّ محتوم لا رادَّ له:

- حين ناولني سلّة الخُوصِ ريّانةً

قال ليْ: لك هذا العذابُ، وهذا التشهّي..

لكَ اسْمٌ شبيهٌ بأوّل هذي البلادِ وآخرِها،

لك هذي الإقامةُ: أعني السّفَرْ..

وربما كنت أنتظر حصيلةً مؤكدة من اللا جدوى:

- أكنتُ كمَنْ مضى وعادْ،

أضاعَ الحُسْنيين معاً..

لم يلقَّ منفاهُ في المنفى

ولا وطنهْ..؟

وفي لحظةٍ، كنت فيها خلْواً من الحكمة، ربما، وجدتني، اتخذ قراراً متعجلاً، فأتجرع إحدى المرارتين: اللجوء إلى الوطن أم اللجوء منه؟ وظللت من جراء ذلك، أتأرجح بين قوسين من الانتظار واللا جدوى..

وفي لندن، كان علاء بشير وفاروق يوسف أكثر أصدقائي قرباً من هذا العذاب. لم يتبقَّ لسيزيف طاقة للانتظار حتى نهاية الألم. هل كان يدرك، كما يدرك صديقاه تماماً، أن هذا الصعود جاء متأخراً؟ كان يريد الهرب من رحيله الدائم بين المدن، فقد صار جزءاً من حقيبة السفر، أو مدمناً للإقامات المؤقتة، ثمة خلل كان يكمن في صعوده وحيداً إلى ذلك الوهم، تاركاً وراءه، على الأرض، نصف صبره ونصف تحمله: امرأة في عمر شديد الحرج. كنت قد حاولت بكل وسيلة ممكنة أن نجيء سوية إلى لندن. كان الأمر مستحيلاً. لذا كانت المنازلة خاسرة منذ بدايتها. كذابون أنيقون. وأصدقاء يتساقطون تباعاً على حافة الذاكرة. أمنية عصية على النسيان وعلى النوال معاً. ومدينة ممعنة في جمالها حد القسوة. هكذا كنتِ وهكذا كانت لندن وما تزال.

(3)

في النصف الثاني من 2017، انكببت على الكتابة بهوس غريب. واصلت نشر مقالتي الأسبوعية في جريدة العرب. كنت أعرف أنها لا تلبي تماماً حاجة جريدة يومية، تسعى إلى التخفف من لغة الأدب وأدواته المقصودة لذاتها في أحيان كثيرة. كان الأصدقاء نوري الجراح وهيثم الزبيدي وفاروق يوسف وكرم نعمة قد تركوا لي الخيار مفتوحاً في الكتابة للجريدة. فترة من السخاء أحاطوني بها جميعاً.

توقفت علاقتي بالجريدة في لحظة انفعال، قد يكون عابراً، لكنه ذو دلالة. كان يوسف الصائغ سبباً في توقفي عن الكتابة. ربما لم يكن الأمر مقصوداً، وربما بسبب حساسيتي الزائدة عن حدودها أحياناً. اختفت مقالتي لثلاثة أسابيع متتالية، وحين سألت الشاعر الصديق نوري الجراح عن السبب، توارت إجابته وراء ستارة من الحرج الشفيف. وصادف أن المقالة كانت عن أمسية شعرية بعيدة ليوسف الصائغ، وعن أسلوبه في إنشاد الشعر، ذلك الأسلوب الحافل بالرنين الكنسي. كتبت رسالة عاتبة إلى د. هيثم الزبيدي، اعتذرت فيها عن عدم الاستمرار في الكتابة للجريدة، معتبراً موقفها ذاك إساءة لذكرى هذا الشاعر المميز.

وفي لندن، كتبت مجموعة من القصائد، نشر الشاعر نوري الجراح جزءاً منها في مجلة الجديد اللندنية، ثم ضممتها بعد ذلك إلى ديواني: طائرٌ يتعثّر بالضوء. الذي صدر عام 2018. عنوان ينهض من قرارة بئر من

الضجر البارد الذي لم أجد غير الكتابة مهرباً منه. وشهد العام نفسه صدور كتابي النثري: الحلم والوعي والقصيدة: مقالات عن الشعر وما يجاوره. اخترتها مما كنت أنشره، في جريدة العرب، من مقالات.

وكانت المشاركة في البرامج الثقافية أيضاً. أجرى معي الشاعر جمال أبو طالب حواراً ساخناً، لمحطة ميادين الفضائية، عن الشعر العراقي وجيل الستينات تحديداً. وقامت أسرة برنامج ديوان العرب بإعداد حلقة معي، للبرنامج. أعدت أسئلتها، وأشرفت على تصوير مفرداتها الشاعرة نسرين طرابلسي. قام المخرج يوسف الجندي بتصوير المشاهد الخارجية في عدد من المواقع في لندن، مثل نهر لتل فينيس، والمتنزّه القريب من محطة رويالْ أوْكْ لقطار الأنفاق، وبعض المواقع الأخرى. وقد تم الاعداد لتلك الحلقة برهافة متناهية. غير أن مزاج اللحظة جرفني بعيداً، فلم ألمس من ذلك الغيم الأنيق إلا إيحاءاته المطلة على الغياب وانتظار المجهول..

كنت، في المنتزه الجميل والصغير، مع عشب الأرض وخشب المصطبة. كلاهما كان رطباً وبارداً. وكان الشتاء على مقربة مني، ينشر برده اللاسع، وغيومه الخفيضة في المكان بكثافة. الريح الرمادية لم تتوقِف عن العبث بكتبي ودواويني، التي وزعها المخرج يوسف الجندي في اماكن منتقاة من المنتزه، بين الريح والأوراق الذابلة وهياكل الشجر التي تخلت عن خضرتها الغزيرة فبدت عظامها ناتئة متغضنة.

وقفت متكئاً على حافة قنطرة حديدية فوق نهر لتل فينيس. ينهض طائر أبيض بجناحين طويلين، كأنهما مجدافان، فيختلط بياضه، وهو يمر إلى نقطة بعيدة بين الغيم، بقصيدةٍ كنت أقرؤها بنبرة شديدة التبرم. الغزاة يمرون من ثقوب ذاكرتي إلى جدارية جواد سليم وأزقة بغداد فيملؤون شرايينها بالمهانة. وصال وخيال تطلان عليّ من زمن بعيد وهما تتعلقان بأمهما في يوم بغدادي من أيام السبعينات. وكان ثقل اللحظة الراهنة يغطي على إيقاع ما كنت أحاول عمله في البرنامج. كان ثمة امرأة، على امتداد حلقة البرنامج، تنظر اليَّ بعينين عاتبتين، إنها اليوم تتعثر بكل شيء، بالنعاس أو بقطرة الماء. تماماً كالطائر يتعثر بالضوء على مقربة مني.

وهكذا تملكني هاجس، كنت أتحدث عنه، بوجل شديد، مع الكثير من أصدقائي. أن غيابي عنها سيكون طويلاً، وربما لن يجد أحدنا الآخر في نهاية المطاف. وقد بدأت قصيدتي ما زال في الليل ما نشتهيه، تتشكل في أجواء هذا الهاجس:

لا تقومي إلى النومِ..

ما زالَ في الليلِ ما نشتهيهِ..

وما زالَ في القلبِ ما لمْ نقُلْهُ..

لنا قمرٌ يترقّبُ جلستنا كلّما مرَّ..

حتى يُتِمَّ نميمتَهُ للرعاةِ

الوحيدينَ..

كان ذلك يتكرر مع كل نوم جديد. سردية لا نهاية لها كما يبدو، أو امتنان يقال متأخراً لسيدة كانت تقدم الكثير، كعادتها، دون مقابل. وكأنها كانت تهذب سجية الأنثى، الكامنة ربما في الكثير من إناث الأرض، إلى أقصى حد ممكن:

كم ودِدْتُ لو أنّيَ
بُحْتُ اليكِ بما لمْ يقلْهُ أحدْ..
غيرَ أنكِ عوَّدْتني أن تقولي
الذي لم أقلْهُ..
وكنتِ البليغةَ في الحُلْمِ واليقَظةْ..
كم مددْتِ يديكِ إلى ليلنا الوثنيِّ
وقطَّرْتِهِ في أباريقَ
من فضَّةٍ، وابتكرتِ الوسائدَ
مشغولةٌ بالشذى عارياً
وحفيف القصبْ..

(4)

كان اللقاء بفوزي كريم وأمجد ناصر يمثل أحد الأشياء المهمة، وجدانياً وشعرياً. وتظل زيارة لندن منقوصة بدونهما. وتلبسني ما يشبه النذير أن لندن، هذه المرة، ستكون مختلفة بدءاً من تلك اللحظة،

لأسباب عديدة، سيكون أهمها ربما لقائي المتعجل بفوزي كريم وتعذر لقائي بأمجد ناصر بسبب حالته الصحية التي لا تبشر بشفاء قريب أو ممكن..

كان فوزي كريم أحد الشعراء القليلين، الذين لا نستطيع فك ارتباطهم بمدينة لندن. كانت هذه المدينة العريقة نقطة تحول هائلة في حياته وثقافته وعقليته المتأملة. كان يكنُّ لها محبة أصيلة، ويتحدث عنها بسخاء ومباهاة لا حدود لهما. التقيته، هذه المرة، في مطعم وليس في شقته الأليفة، في Green Ford، كما كنا نلتقي في المرات السابقة، وعلى غير العادة أيضاً، لم يطل لقائي به كثيراً، وكأنه كان على عجلة من أمره، ولم يتخللها ما كان يتخلل لقاءاتنا السابقة من مرح جميل وذكريات تومض وتنطفئ مثل نجمة بعيدة. وكأن لقاءنا سيكون انقطاعاً لأجمل ما في حياتنا من أحاديث كانت تزدهر بيننا طوال خمسين عاماً..

أما أمجد ناصر، فكان يتكشف لي عن صديق بالغ العذوبة والعمق، في كل مرة التقيه. انتابني أحساس هائل بالفقدان، وأنا أتتبع أخبار صحته المتدهورة. كان يواجه الداء اللعين بجسارة البدوي وحلم الشاعر بخلاص مشكوك فيه. كانت آخر أخباره بعد ذلك تزيدني حزناً كل يوم. كنا في عمان، صلاح بوسريف وزهير أبو شايب وأنا. نحتفي بأمجد غائباً عن القاعة لكنه ملء قلوبنا جميعاً. كان ذلك في ملتقى عمان للشعر العربي عام 2018، بينما كان يرقد، بكامل بهائه، على بعد خطوات منا،

قبل أن يرحل بعد عام تقريباً.

فوجئتُ بداية عام 2018 بصورة طراد الكبيسي على الفيس بوك. سارعت إلى الاتصال به فوصلني رد من ابنته. كان والدها يعاني من فقدانٍ حادٍ للذاكرة، أشعرني ذلك بالألم والعجز، فقد كنت قريباً منه بحكم المكان وبعيداً عنه بمنطق الذاكرة التي تعوم في عماء مطلق. كان جسداً يتهيأ للابتعاد عنا ذات يوم لا يطول بنا انتظاره. وقبل ذلك عايشت موته قبل أن يموت حقاً. كان يبدو، كلما التقيته في عمان، أكثر حزناً وأقل تماسكاً. مثلَ قمرٍ يتآكل تدريجياً، وتفترسه التجاعيد. ثم كان رحيله، في 2020، صدمة ذهبت بي إلى أعمق ما في الصداقات من عذاب وحميمية.

وكما التقيت فوزي كريم، لقاء يتيماً، كان الأمر كذلك مع صديقي د. نجم عبد الله كاظم في مقهى أنيق في أجور رود. كنا زميلين بجامعة أكستر، أيام دراستنا العليا في بريطانيا بداية الثمانينات. حفل لقاؤنا، بالكثير من الحنين إلى أيام لا نملك إلا تذكرها، زمن الدراسة والصداقة وسنوات الشتات. كان في ذلك اللقاء، كما عرفته دائماً، مشرق الروح، ومحباً للحياة وشديد الوفاء لأصدقائه. كان إنساناً في منتهى النبل، وأكاديمياً نقي الضمير، لم يعرف النفاق أو التملق الذي صار بضاعة رائجة تمرغ فيها الكثيرون ممن كانوا محسوبين على النقد والتدريس الجامعي والعمل الثقافي.

(5)

كان المبنى قديماً نسبياً، من طوابق أربعة ولا مصعد هناك. كنت أسكن في الطابق الأخير منها، وكان يسكن في الشقة أو الغرفة المجاورة، لا أتذكر على وجه الدقة، رجل يشبهني تماماً. كان يهبط من غرفته، في الطابق الرابع، في ساعات الفجر الأولى من كل يوم، يتخبط في حوض السلم الضيق الذي لا يزال مليئاً بالظلام والهواجس، وربما بالرسائل التي لا تعنيه. كان يبحث عن مغلف بني اللون، يضع حداً لذلك الانتظار الذي يأكل، في كل لحظة، جزءاً مما بقي من قدرته على الاحتمال. وكنت أحياناً أسمع صوته، في الليل، يخترق الجدار الفاصل بيننا، وكنت أحسه يرتمي على أرضية الغرفة منهكاً تفوح منه رائحة ندم ثقيل.

سمعت ذات ليلة أنين قدمين واهنتين على السلم الضيق وغليان دم لا يكف عن الارتفاع. كان شبيهي يعود من المستشفى عند منتصف الليل وحيداً. أخبرني في اليوم التالي، وأنا أطمئن على حالته، أن زوجته ترقد في المستشفى، بعيداً عنه، وفي حالة حرجة. كان يعيش مراجعة لأوضاعه الشائكة، حتى بدا كأنه ضحية تبسيط مقصود للمهمة التي جاء من أجلها.

حين ذهبت إلى فراشي متأخراً ذات ليلة، سرعان ما غرقت في نوم عميق على غير العادة. كان ثمة ظلام إضافي يتدفق، إلى نومي، من بئر السلم. نهض من بين طياته رجل يبدو في مقتبل كهولة هي أقرب إلى الشباب منها إلى الكهولة الحقيقية. ويرافقه مثل ظله رجل يكبره عمراً وقد يفوقه دهاء. قدّما إلى الرجل الذي يشبهني، مغلفاً بنّي اللون، أسود

القلب. فانـدلعت مـن بـين سـطوره، بعـد أن فتحـاه، غيمـة مـن الـدخان المسموم، غمرتهم جميعـاً. أبلغاه بقرار الرفض ثم قاما باقتياده إلى المطار بعيداً عن أوهامه. وكلما توغلت بهم السيارة في ضوء المدينة المشـوب بالظلمة الفاقعة. أخذته الظنـون والتوجسات بعيداً عن ذاتـه، تـذكر آخر كلماته مع ابنته خيال صباح اليوم. حين أخبرها برفض طلبه لم تتمالك نفسـها مـن الفـرح. سـمعها، مبتهجة، تـزف الخـبر المفجع إلى زوجها وبناتها. يا لها من مفارقة..

وضـعاه في فـم الحـوت، حيث إجـراءات العـودة إلى الإمـارات، ثـم استدارا إلى عمق لندن الصاخب المضيء. استغرقته عملية إتمام الحجز، وشحن الحقائب، أكثر من ساعتين، لا لصعوبة، أو ازدحام، أو نقصـان في الوثائق المطلوبة. بل كان هناك شيءٌ ما، يجره إلى الوراء: عجينةٌ من طينٍ فائرٍ يمازج فيها النقيضُ نقيضَـه: مـا الباعـث على هـذا الاضـطراب الـذي يعصـف بـين جوانحـه؟ قـرار المجـيء أم قـرار العـودة؟ نصـف الخطـأ أم المضيّ فيه حتى قطرته الأخيرة؟ تقدم أكثر مـن مـرة إلى الكـاونتر، وأكثر من مرة كـان يعـود أدراجـه إلى أول الصـف، في انتظـار دوره أمـام موظـف شحن الحقائب.

في الطريـق إلى بوابـة الخـروج، تقـف موظفـة شـقراء. كانـت غارقـة في شبابَها الناريّ، وكأنّ عينيها الواسعتين تستدرجان المغادرين إلى مواصلة رحلتهم القادمة إلى مآلات اختاروها أو اضطروا اليهـا. ظـل يـدور طـويلاً قبل أن يقـدم للختـم جـواز سفره وبطاقـة الصعود إلى الطـائرة. كلمـا مـرّ

أمامها، أسرع في الهرب من ذلك الخط المتوهم، الذي يفصل بين لندن وبيته، الملقى خارج هذا الضباب الشتوي الحافل بالانفعالات المتناقضة، وبقايا حلم يبتعد تدريجياً. استدار راجعاً إلى أول الصف، كما فعل عند كاونتر الحجز. فترة خاطفة من التأجيل قد تنفع. فسحة من الشرود، أو حلم يقظة فاتر، أو تخيل يعبر منه إلى حالة من التراضي المؤقت مع الذات.

جاءه ثانية دوره الذي عافه قبل قليل. لا بد من إكمال إجراءات الرحلة. كانت عيناه فارغتين بينما يد الموظفة تدفع بطاقة الصعود إلى داخل الجهاز. هل تعلم هذه الشابة الطافحة بالحياة واللذة ماذا فعلت به الآن؟ ثمة مفرمة كونية تمر، في تلك اللحظة، على عظامه وتخيلاته.

أخذت الطائرة تشق طريقها تدريجياً بين طبقات الغيم الكثيفة، صاعدة، مبتعدة، شيئاً فشيئاً، عن كل شيء كان مأمولاً أو متوهماً. حدق في متاهة لا يدرك لها دلالة أو حدوداً. ثمة امرأة تنتظره مهمومة فرحة. تجرّد عودته من كل ما يحيط بها من وصف جارح أو ثقيل الوطأة. ولا ترى فيها إلا قلباً مطعوناً يعاود الالتئام ثانية. نافذة الطائرة تضيق شيئاً فشيئاً، ولندن تبتعد أكثر من أي وقت مضى عن لندن، لتسقط في هاوية لا قرار لها..

الشاعر والزوجة الصديقة

(1)

كان صديقي الشاعر الراحل فوزي كريم يدعونا، أنا وزوجتي، إلى شقته الجميلة في ضاحية جرين فورد كلما وصلنا، لندن. وكان يجد بهجة خاصة في عمل الشواء في حديقتها الخلفية. وفي إحدى جلساتنا معه سألناه، ذات يوم، عن سبب انفصاله عن زوجته، وكان يعمل لحظتها على تأجيج جمر الموقد. كانت عيناه المتأملتان مشوبتين بالندم ونبرة الاعتراف الصادق حين قال: «لم نفلح في الارتقاء بعلاقتنا إلى مستوى الصداقة». تبادلنا النظرات، أنا وزوجتي، في تلك اللحظة، ربما لأننا أحسسنا أن حياتنا كانت تقترب، أو تكاد، من ذلك المستوى الذي كان يتمناه فوزي كريم لحياته الزوجية.

وأذكر أنني، في مناسبة أخرى، قلت للشاعر والناقد المغربي عبد اللطيف الوراري حين سألني عن أم وصال، إنني أحس إزاءها بالامتنان حين أراها بهذه الخصائص، مقارنة ببعض النساء الأخريات، اللائي لم يعشن مع أزواجهنّ الشعراء إلاّ على مضض ربما، أو لم يجدن في قصائدهم، أحياناً، إلاّ العدوّ أو الضرة. وهناك، بينهنّ، من لم تقرأ كتاباً، ربما، منذ أيام الدراسة.

وحين أستعرض حياة البعض ممن أعرف من الشعراء، أدرك أنني من

بين المحظوظين منهم حقـاً. لقـد كانـت في الكثير مـن منعطفـات حياتنـا الحرجة صديقة أكثر منها زوجة. تضع تفاعل الصديقة لا انفعال الزوجة، وفضـاء الصـداقة لا قفـص الزوجيـة الضـيق في معظـم مـا مـرت بـه حياتنـا العائلية من مواقف ومفترقات. صحيح أنها لم تكن كاتبة أوشاعرة بالفعل، لكنها كانت كذلك، ربما، بالقوة.

كان في إمكانها أن تحرز مكانة ما في الكتابة، وهي التي عشـقت العربيـة تخصصـاً وتدريسـاً، وحظيت بفطـرة سـليمة في تـذوق القـول الجميـل قـد يفتقر اليه الكثيرون. لكنها اختارت منزلة الصديقة دائمـاً: ترافقني بمحبة، وتؤازرني بكرم. وحين تنفعل فلا يكون ذلك منهـا إلا بحـدود لا تتخطاهـا إلا نادراً. هي المبادرة دائمـاً إلى توفير ما يجعـل القـراءة ممكنـة، والكتابـة في متناول اليدين. وظـل شـغفها بالشـعر جزءاً مـن شخصـيتها الطيبـة دون ضعف، وظلت دموعها تسبق كفيها دائمـاً في التصفيق لكل قصيدة مؤثرة، ولكـل قـول لافـت. وكانـت شـريكتي في معظـم علاقـاتي الطيبـة بمجتمـع القصيدة ومن أعرف من الأدباء والشعراء.

(2)

اِتصـل بـي ذات يـوم أحـد أصـدقائي، وكـان شـاعراً ذائـع الصـيت. أحسست أن سماعة الهاتف كانت تطفح بفرح طفولي، فقـد تـم اختيـاره، مع جبرا إبراهيم جبرا، لموسوعة كيمبرج لـلأدب. في طبعتهـا الجديـدة.

حين زرناه، في بيته، كانت انفعالاته تندّ عن السيطرة. يهرع إلى رفوف مكتبته أكثر من مرة، ليتصفح المعجم، ويريني، مرة أخرى، اسمه وأسماء المشاهير من الكتاب العرب. غير أن حرجاً كبيراً تملكني. إذ كان صديقي وحيداً في ذلك الفرح الكبير.. لم تبدُ من زوجته أية مشاركة، حتى في حدودها الدنيا. والأدهى من ذلك كله أنها كانت تقابل فوضاه الطفولية وفرحه الزائد بصمت شديد اللؤم. بل كانت تقلب شفتيها سخرية منه على مرأى ومسمع منا..

الى أية فصيلة من النساء كانت تنتمي تلك الزوجة، وأية روح متصحرة تحمل؟ أحسست لحظتها أنني أتأمل تاريخ قطيع هائج من نساء لا يحملن من لطف المرأة شيئًا. قاسيات، شحيحات، ناشفات، وكأنهن جبلن من صخور صماء. سقراط يتلقى شتائم زوجته الجميلة على مسمع من طلابه، تولستوي يموت في البرد وحيداً، زوجة الجاحظ التي ترى في كل كتاب له حشداً من الضرائر الشرسات.

ويظل، مع ذلك، لجبل الجليد هذا جزؤه الغاطس: ألم تكن سيلفيا بلاث، الشاعرة الأمريكية التي انتحرت في أوج شبابها الشعري والجسدي، ضحية تيد هيوز المؤكدة؟ هل عاشت سنية صالح مع محمد الماغوط حياة مثالية؟ أكان كازانتزاكي يقرّ لزوجته بما قدمت له من تضحيات؟ وهل كان تولستوي يقدر لصوفيا عمق محبتها له، وهي التي كانت تشكو من أن كتفيها الواهنتين أضعف من أن تتحملا مشقة الزواج

برجل عبقري مثله؟ وليس جميع الشعراء والفنانين يعيشون، حياة مشرقة، كما عاش فنانٌ استثنائيٌّ مثل رافع الناصري وزوجته الشاعرة مي مظفر، حارسة الغياب الكبير.

ولا يكفي، كي يعيش الشاعر حياته في وئام مع المرأة والقصيدة معاً، أن تكون زوجته شاعرة أو فنانة أو كاتبة. فلا حياة حقيقية دون متاعب أو خلافات، فهي المنشط والمجدد والمنعش ربما لأجمل ما ينضح به جسد المرأة وروحها من انفعالات مدهشة وطاقات من الحنو والغفران. وليس هناك أكثر من حب المرأة وصبرها عماداً لحياة عائلية آمنة. ولا يمكن لمركب العائلة أن يمضي في غمرة عمر عاصف إلا إذا شاركت الرجل في التجذيف امرأة من نمط خاص، نبلها أكبر من حماقاته، وصبرها أوسع مما يفعل أو يتوهم أو يقول.

وقد لا نجد حياةً أكثر التباساً من حياة الشعراء مع زوجاتهم حيث تتجاور القسوة، والمحبة، والصبر، والملل، والتضحيات. إن الشاعر قد لا يمكنه الجمع، في الغالب، بين المرأة والقصيدة. ولا يمكنه الإخلاص ربما لكلتيهما بالقدر نفسه. وقد يحسم بعض الشعراء الأمر بطريقة بالغة الصلف: الخلوة للقصيدة، أما الزوجة فلها المطبخ، أو العزلة، أو صراخ الأطفال.

(3)

اعتدت، بين فترة وأخرى، على اصطحاب زوجتي لحضور بعض الملتقيات الشعرية. ويبدو لي، وللكثيرين ربما، أنني من شعراءٍ قلةٍ يفعلون ذلك. كما أن شاعراً يتحدث بإيجابية عن زوجته، قد يبدو، في نظر البعض، طائراً يتنكر لشمائل سربه من الذكور. كنت أجد في رفقتها ما أجده مع صديق مؤتمن على الكثير من توترات روحي. لقد شاركتني المرور في منعطفات شائكة، دون مللٍ أو مِنّة. وكانت نبيلةً في صبرها وذكائها. تقدم الكثير دون مقابل، كما قلت في مكان آخر.

حين أتأهّب للسفر في مهمة أدبية، كثيراً ما أجدها في مهبّ عاطفتين متضادتين: فداحة الغياب أم ضياع الفرصة؟ ورغم ما تتمتع به من شخصية ودودة وضمير شديد الورع، إلا أنها، في الوقت ذاته، كانت شفيفة الروح، وسريعة التأثر بما تسمع أو ترى من محفزات الانفعال الكريم. كانت تحمل دائمًا روح طفلةٍ، منفتحة على الحياة، وعلى كل تعبير جميل عنها، كأنها لم تحمل صدعًا في الروح ولا حسرة على طفولة ضاعت.

كانت تشاركني ولعي بالسفر، والاطلاع على ما يتكشف عنه من جديد المدن أو أمزجة الناس أو غرائز الطبيعة. وكان من دواعي غبطتي، حقًا، أنها تنتمي بمحبة، للقصيدة التي أكتبها. وكثيراً ما كانت تلك المحبة ملاذها الرصين، حين تمرّ بي لحظة من لحظات الانفعال غير المعتادة.

كانت تهرع إلى معتكف من عتبها أو شكواها، فتصوم عن الكلام، حتى يصعب اختراق هذا الجدار الأخرس والأصم، أحياناً..

في مهرجان أثير للشعر العربي 2015، في مسقط، كان هناك عدد كبير من الشعراء والنقاد العرب. بينهم: سعيد السريحي، شوقي بزيع، راشد عيسى، عدنان الصائغ، عبد الرزاق الربيعي، عارف الساعدي، حسن شهاب الدين، هادي الجزيري وغيرهم، وكنت معها ضمن هذا الجمع. ولم تك تنقطع عن حضور الندوات والقراءات الشعرية طوال المهرجان.

كنت أتفهم ما ألحظه عليها أحياناً من انفعالٍ وهي تردد معي بصمتٍ، أكاد أسمعه، بعضَاً مما أقرأ في بعض الأماسي الشعرية. كانت تغلبها في بعض الحالات ردود أفعالها إزاء سلوكياتٍ لا تليق بالقصيدة: من يتأمل هاتفه أو يستمع إلى همسة صديق يجاوره، فلا يشاركها ما في إصغائها للشعر عامة، ولشعري خاصة بطبيعة الحال، من استغراقٍ نبيل.

ومازلت أستعيد تلك الأجواء الدالة كلما شاهدت، عن طريق اليوتيوب، أمسيتي التي قرأت فيها بعض قصائدي في ذلك المهرجان. يركز المصور الكاميرا على زوجتي فتظهر وكأنها تصغي لقصيدتي وتلحظ، من طرفٍ خفيّ، إصغاء الآخرين في الوقت ذاته. وقد لا يتجلى هذا المعدن الحقيقي لروحها كما يتجلى محسوساً على مساحة واسعة من عَمرها المليء بالعطاء والمشقة.

في حفل توزيع جائزة العويس للشعر، عام 2019، لم أجدها يوماً بذلك الفرح كله. صعدت إلى المنصة لأقرأ بعضاً من قصائدي، وهو ما

لم يحدث، إلا نادراً، في حفلات توزيع هذه الجائزة، حدقت في القاعة المكتظة بالحاضرين، كانت هناك عينان مغتبطتان، حد البكاء، بما تسمعان. وحين عدت إلى مكاني وجدت تلك الغبطة مشوبة بالتعب وشيء من الدمع النادر.

كانت تشاركني انفرادي بالكتابة أو القراءة بفرح محسوب، فلا هجران يشعرني بالوحدة ولا إلحاح تثقل به عليّ في تلك اللحظات. ولم تكن تخالف هذه القاعدة إلا في أحيانٍ نادرة. هكذا كانت، وهكذا هي، تنتمي، في أغلب الأحيان، إلى الجزء الشاق من رحلتي الطويلة:

كيف احتملتِ صبايَ وباركتِ لي ذهبي وخطايايَ؟
إن الصعاليكَ، أعني المَلولينَ مثلِيْ، صِلالُ الفلاةِ
التي تتموّجُ، في فضةِ الليلِ ما بين مكرٍ ولِيْنِ..

أكثر من خمسين عاماً. قلقة، أو صافية، أو متوترة، عشنا ألمها ومسراتها معاً بصدق لا ادعاء فيه. حياة بدأت بيننا مبكرة ربما، مذ بدأنا البحث، ونحن ما نزال في المرحلة الجامعية، عن قصائدي في صحف ومجلات عراقية وعربية لجمعها وتقديمها للنشر، أوفي نسْخِ مختاراتِ أثيرةٍ من كتب أدبية كنت أستعير أكثرها من مكتبة الكلية أو من أساتذتي.. ولم تكن حياتنا تلك محض حياة مثالية متخيلة. فقد كان لي، رغم هدوئي الذي يعرفه الكثيرون، لحظاتٌ من الانفعال المرّ، أو الجفاء الذي لا تعقبه مواسم المطر إلا بعد انتظار يجفّفُ العروق:

أصغيا، مثلما عشبتانِ على طللٍ..

للحصى وهو يُطبخُ حتى تجرّحتِ النارُ منهُ..
وسارا إلى آخرِ البوحِ مبتهلَينْ
جمرةً جمرةً، ويدينِ يدينْ:
- هل نسِينا براهيننا مرّةً؟
- قد همَمْنا..
وكِذْنا..
وعُدْنا..
لكي نهتدي مرّتينْ..

(4)

يمكنني القول إن لي عائلة صغيرة متميزة. لم تستهوني كثرة العيال ولا تعدد النساء. اكتفيت بوصال وخيال، بنتين نابهتين جميلتين، وبأمهما صديقة أكثر منها زوجة، كما قلت. هنّ اللائي يصنعن الجزء الأساسي من الجوّ النوعي الذي أعيشه في البيت. يحفزنني على الكتابة، ويستمعن إلى قصائدي بانتباه، ويعرف ذلك الكثير من أصدقائي.

لا أعدُّ نفسي من مدمني الجلوس في المقهى، أو لعبة الورق، أو الدوَمينو. لكنني أحببت لعبة الشطرنج وكنت أمارسها، في حدود بسيطة، مع أخوتي أحيانًا ومع وصال لاحقًا. في صباي، تستهويني كثيراً مغالبة

أصدقائي في الركض، وقد أورثني ذلك عادة المشي السريع، وهي طبيعة رافقتني حتى مرحلة متأخرة من عمري.

لوصال محبة طاغية للشعر، كتابة وتذوقاً، مذ سنوات صباها المبكر. ورافقها هذا الولع إلى سنوات النضج والتخصص الأكاديمي. وقد ساهمت أمهما بكفاءة في تدريسهما كلتيهما اللغة العربية، أيام دراستي في بريطانيا. هكذا كنا عائلة صغيرة لكنها كبيرة في طباع أخرى:

في نسيم البداياتِ :
ما كان من خامسٍ ..
لم يكن ثَـمّ من وطـن،
أربعـةٌ ..
لا ملاذَ لهـم غيرُ ما يهـبُ البحرُ
من عطشٍ مـالحٍ..
زورقٌ كم تيّبـسَ بلعومُـهُ ..
كم تهـاوتْ ذراعـاهُ في وطـأةِ الزوبعـةْ ..

وبتشجيع مني، اختارتـا اللغـة الإنجليزيـة، فنشـأتا، كلتاهمـا، مـولعتين بالعربيـة ومتميـزتين بـاللغتين معــاً. وصــال مثـال، قـد يتجـاوز الحـدود المألوفـة أحيانـاً، في سـجايا مميـزة: تـرف الذائقـة. والأسـلوب الرفيـع في

ترجمة الشعر. وفي تعلم اللغة والتقدم في طريقها الشائك. حصلت على الدكتوراه، من جامعة الإمارات، ونقلت إلى العربية مختارات للشاعر الأمريكي، أثيلبرت ميلر: في الليل كلنا شعراءٌ سود. كما ترجمت مختارات أخرى بعنوان: كما الريح، للشاعر الأمريكي عفا مايكل ويفر. وقد تسلل هذا الشغف بالشعر والفن إلى ابنها الأكبر تميم الذي يجيد العزف على الجيتار ويمتلك صوتاً جميلاً.

أما خيال فهي صفحة مشرقة أخرى، في سجل العائلة. ثراء وجداني كبير، خبرة تدريسية عميقة. تحمل شهادة الدكتوراه في تدريس الإنجليزية، من الجامعة البريطانية في دبي. صدرت لها مجموعتها الشعرية الأولى باللغة الإنجليزية، وتصدر لها قريباً مجموعتها الثانية، تقيم في مدينة العين. وقد أخذت عنها ابنتها ليان ولعها بالشعر، فلها مجموعة شعرية بالإنجليزية أيضاً. يمثل لي أحفادي من وصال وخيال، أبوة جديدة بالغة البهجة، فهم أجمل الأمطار حقاً، كما جاء في إهداء ديواني: هكذا قلت للريح..

(5)

أمران اثنان، تمنيت أن يتحققا في شبابي: أداء الخدمة العسكرية والعيش للدراسة أو العمل، بعيداً عن عائلتي. إن عدم تحقق ذلك حرمني

من تجريب ما يتوجب عليّ تجريبه: حياة ذات مذاق خشن أو مهاراتٍ بيتيةً لا بد منها. ثم كان لزوجتي، لاحقاً، الدور الأساس في بقائي على ما كنت عليه. كثيرة هي التفاصيل الصغيرة، التي وفّرت عليّ أن أجرب مباشرتها بنفسي: الانتظار في طابور طويل منتظراً دوري لدخول السوبرماركت مثلاً. وطالما زاحمتني بشدة، على دفع عربة التسوق. وكأنها كانت محرجة من قصيدة تلوح في المخيلة، أو طالبة تحتفظ ذاكرتها بأجمل المشاهد لشاعر كان أستاذها ذات يوم.

يشكل النوم، بالنسبة لي، مفارقة بيتية. من عادتي دائماً أن أذهب إلى النوم متأخراً وأستيقظ في وقت مبكر جداً، بينما زوجتي تختلف عني في هذين الجانبين. حتى أنني كنت أفضل أن تكون محاضراتي، أيام تدريسي في الجامعة، صباحية دائماً. أما الآن فلم يعد النوم، متأخراً، من عاداتي الأثيرة. وحلّ محله نوم القيلولة، فهو كما يبدو سلاح العراقيين في مواجهة ساعات الظهيرة أيام الصيف. وما أزال أرى أن ساعةً من نوم القيلولة الصافي قد تعادل ساعاتٍ من نوم الليل.

ومن الطبيعي جداً أن يكون للناس تفاوتهم في طقوس النوم. فهو أكثر خصوصياتنا سرية. إنه موتنا الصغير، أو ملاذنا المؤقت إن شئتم. ومن شعائر النوم التي لم أشهدها من قبل، ما لمسته عند الدكتور محمد عبد

الحيى شعبان، الأستاذ المرموق في التاريخ الإسلامي، ورئيس قسم اللغة العربية ومركز دراسات الخليج، بجامعة أكستر أيام دراستي فيها.

دعاني للعشاء في أول التحاقي بالقسم مع صديق له من السعودية. استغربت حين قدم لنا العشاء في وقت مبكر جداً. شرح لي الضيف السعودي، هامساً، السبب بحكم معرفته السابقة بالدكتور شعبان. انتهينا من تناول عشائنا، فاستأذن منا صاحب البيت، فقد حان موعد نومه. وبقينا نواصل أحاديثنا مع ابنه وزوجته الاسكتلندية. كان عليه أن يستيقظ عند ساعات الفجر الأولى، إذ يحل وقته المخصص للقراءة أو الكتابة أو إنجاز بعض أعمال القسم. وقد لمست هذه المشكلة عن قرب حين كان يعاني من اضطراب ساعته البيولوجية في بغداد. كان في زيارة هناك منتصف الثمانينات. دعوته للعشاء في بيتي، وذهبنا بناء على رغبته لمقابلة وزير الثقافة آنذاك، ثم رافقته لزيار النجف، وقصر الإمارة في الكوفة، وقصر الإخيضر، بحكم تخصصه الأكاديمي واهتماماته.

كانت تحرجني كثيراً عادة الاستيقاظ المبكر، خصوصاً حينما أحلّ ضيفاً على أحد الأصدقاء. وغالباً ما يتملكني إحساس يقارب تعنيف الذات: يالك من ضيف غريب الأطوار، يقظان في هذه الساعة، وأهل البيت مازالوا في عز النوم؟ وأخيراً كففت تقريباً عن المبيت في غير داري، إلا في فندقٍ، أو بدعوة من صديقٍ لا كلفة بيني وبينه.

(6)

لم أكن يوماً ما آكلاً شرهاً، غير أن لي شغفاً خاصاً بما يعد في مطبخ البيت. ولي عاداتٌ في الأكل أو تفضيل أكلة دون سواها، تضرب بجذورها حتى سنوات الطفولة. لم يكن عندي غير السمك، مثلاً، حصة من صيد الماء. تأسرني تقلبات السمكة، وانتقالاتها المراوغة بين كثافة المجرى وصفائه. فهي تحرك مخيلتي كما تحرك ماء النهر بقوامها الرشيق، وحراشفها المتراصة، وزعانفها المرفرفة كالأهداب. وربما تظل خصلة الافتتان بالسمك بعضاً مما حملته من طفولتي البعيدة. ولهذا الانحياز الجمالي المحض، لا أجدني ميالاً إلى الروبيان مثلاً، فهو يفتقر إلى جماليات السمكة ونزقها الناعم. وهو عندي، لا يعدو كونه دودة ملساء وشديدة الرخاوة، أما سرطان البحر فلا شيء يشعرني بالنفور مثله. ومع أن عائلتي لا تتردد في تناول الروبيان أو السرطان، إلا أن مرآهما على المائدة، يسبب لي إعراضاً واضحاً عن الطعام في أحيان كثيرة. كانت زوجتي تحسّ، بفطرتها وتلقائيتها، أن الطعام لغةٍ، تصقلها النار تحت القِدْر وينضجها الحنوّ الذي يملأ القلب.

كان نفوري من الروبيان عادة بالغة السوء، خاصة حين أكون مدعوّاً. ولن أنسى تلك الأمسية التي كنا فيها، الفنان منير بشير وأنا، في تونس العاصمة. كان العشاء على البحر، وبدعوة من الفنان التونسي نجا المهداوي وزوجته الفرنسية. الأحاديث تتنوع وتندى: الشعر والخط

والموسيقى، والسمك، وأصداف البحر، والرز الفاخر. وما إن أبصرت الروبيان منثوراً على صحون الرز حتى أحسست بتقلصات مؤلمة في المعدة. أدرك الفنان المهداوي، ذلك، ببداهة سريعة، فأمر لي بصحنٍ من الرز الأبيض الصافي. وهكذا هدأ البحر ثانية، وعاد الليل والأحاديث إلى ما فيهما من تناغم جميل.

تحياتي أيتها الجـارة الشجرة

(1)

بعد أن انتهى عقدي مع جامعة الإمارات، عام 2015، قادتني الصدفة أو الزيارة الخاطفة إلى هذا المكان: مدينة صغيرة، يحف بها الهدوء والغابات والمرتفعات وعدد من البحيرات الجميلة. مدينة مثالية لشاعر، أو فنان، أو متقاعد، أو عاشق ربما. كان قد سبقنا إليها بعض معارفنا وأصدقائنا، فكانوا القطرات الأولى في هذا الغدير الجاذب لمزيد الأصدقاء. وهكذا اشتريت شقة صغيرة فيها. ورغم ما يعتري الشاعر أو الفنان عموماً من قلق لا يهدأ، ورغم غايته التي لا تدرك، حاولت، وبمساعدة زوجتي، أن أصادق هذا المكان قدر ما أستطيع.

بدأتُ، مع الوقت وتبدلات الطقس، أشعر بامتنانٍ لمدينة بولو، ولهذه الشجرة الكبيرة، التي تقف قبالة شقتي، وفي مواجهة شرفتها في الطابق الثاني تماماً. لم تكن تلك الشجرةُ، في البداية، شجرةً بالمعنى الأخضر للكلمة. حين كان الشتاء القارس يسري في عروق الكائنات، ويخفي مركبات الناس، بدثاره الأبيض عن أصحابها، كانت شجرةً من عظام. لا ظلٌّ ولا ورقٌ ولا حياة.

ومع تحوّلات الجو تدبّ في مفاصلها الخضرةُ والورقُ والحفيف، فتصير ضخمةً، وشديدة الكثافة وكأنها تختصر بستاناً بكامله. تجود عليَّ بالكثير مما يصنع البهجة المتوهمة. فهي اليوم لا تسمح، مثلاً، بمشهدٍ واضحٍ لما يقع وراءها من حياةٍ مقفرة بسبب الحظر. ومع أنها غطت على منظر السلاسل الجبلية البعيدة، إلا أنها حجبت غياباً أكثر قسوة: أعني إقفار الشوارع القريبة، وعري الحياة من البشر، وخلوها من ظلال التواصل ودفء البشاشة. وعوضتني بحفيفها البهيج وكثافتها العالية، عما أحسه من صمت يملأ الطرقات بسبب كورونا.

(2)

متعةٌ قصوى، وفضاءٌ شعريٌّ تجتمع عناصر الجمال فيه من كل صوب. يقظة الصباح الأولى، وهو يهبط من سريره الكونيِّ، لينساب طرياً في هواء المدينة الصغيرة. يتساقط النوم من أعالي الشجر، ولا تظل الطيور على حالها، بل تلتحق بجوقة الفرح الصباحيّ. تنسلّ من كسل الليل داخلة إلى بدايات النهار الأولى نشيطة فرحة. مشاهد يوميّةٌ صرت حريصاً على التماهي معها كل يوم. غير أن أجمل هذه المشاهد، فيما أرى، ما نعيشه في فصل الخريف. مناخٌ شعريٌّ بامتياز، يرتجله هذا الفصل المليء بالتداعيات. الغيوم الهابّة، في هذا الفصل، من سلسلة الجبال المجاورة، تقدّم لفضاء المدينة وعشب الأرصفة صباحاً بالغ الخفّة.

اعتدنا، أنا وزوجتي، أن نرى حدائق المدينة تستقبل حشودا متتالية من الغيوم التي تقبل، مسرعة أو متثاقلة، من سلسلة المرتفعات المطلة. يهبط الغيم ويرتفع الشجر للقائه، فيزيدان هواء المدينة طراوة ولطفاً. واعتدنا، في ساعات الصباح الأولى، أن نذهب إلى الحديقة العامة، على مقربة من العمارة التي نقيم فيها. وكثيرا ما تفاجئنا الطبيعة، كل يوم، بما يكسر رتابة الأيام التي مضت.

يتوالى على هذه الحديقة أناس كثيرون للتمشي أو استخدام الأجهزة الرياضية. وأنت تسير في الممشى، وعلى مقربة أو على مبعدة منك، لا فرق، أعمار مختلفة، وأجيال تنتشر في مضمار الحديقة المخصّص لهذا الغرض. يتركون أسرتهم الدافئة مسكونة ببقايا النوم، ويذهبون إلى الحديقة المكتظة بالشجر الطافح بخضرة رشيقة، وتتوسطها شجرة أدركها الشيب فأخذ لحاؤها المتغضن يتذمر مما فعلته به الريح وتقلبات الفصول.

(3)

في الممشى الدائري، ثمة ماراثون يوميٌّ بإيقاع متفاوت. ينساب بخفة تستدعيها نشوة الشباب، أو بهدوء تفرضه حكمة الحياة ومنطقها القاسي. في هذا الماراثون الصباحيّ، الخافت أو الحافل بالجاذبية، يتجسد جدل الحياة بما فيها من بهجة أو ألم. حالتان تدعوان إلى التأمل: شابة في مقتبل

نضجها المثير، تمضي إلى مستقبلها الذي تتلهف للقائه منذ سنوات. دوامة من عطر ذائب كالفرح، وكلام ينبثق مثل هالة من المسرة. وعلى مرمى هدبين ينطبقان على حلم ضائع، ثمة شيخ يدبّ على عكازين من الضجر، محاولاً، بما بقي لديه من قوة، أن يستلم من فرح النهار ما يقوى على حمله.

زوجان كهلان لا يمشيان على أرض تغرق في فراء أخضر، بل في كلام حميم وبقية من بشاشة لم تطفئها الأيام. يقيسان المسافة بينهما بالمحبة تارة، وبالعتب القديم تارة أخرى، وكأنهما يحوّلان هذا التجوال الصباحي المفعم بالمودة والرحمة إلى فصل من التذكر المشترك والبشاشة المستعادة. غير أن عينيك لا تخطئان نموذجا آخر، حيث تنقطع فترة البث الوجداني الحي بين اثنين من أفراد هذا التجمع، فيغدو الصمت، بينهما، وكأن له ملمسَ الحجر المثلّم أو رائحة كلام مكرور فقد جدواه.

ثمة مشاهد ومواقف يتمُّ فيها الإفصاح عن ألفة جديدة تتوطد تدريجيا، بين أفراد هذا التجمع. حتى أن غياب البعض عن ذلك التمشي اليومي، لا يمرّ بسهولة، ومع أنه غياب صغير لكنه يهز نسيم المنتزه البارد، إلى درجة التساؤل الحنون، أو القلق المقارب للإشفاق، وكأن هذا الغياب الطارئ، عن هذا المشهد، إنذار بغياب قد يكون ذا دلالة قاسية. وبعد أن ترتفع في سماء المنتزه شمسٌ غائمةٌ صغيرة، يتوزع الجمع بين عائد إلى بيته، أو جالس على واحدة من تلك المصاطب أو المظلات

الخشبية التي هيّأتها، كما هيّأت المكان كله، بلدية المدينة. ويضم الجميع، والمتقدمين في العمر منهم خاصة، أمل في لقاء آخر، وتحت شمس أكثر دفئا.

(4)

كنت أتكئ، في هذه المدينة الصغيرة الحافلة بالرياح الممطرة، على شبّاك غرفتي الوحيد. أرقب من وراء زجاجها الذي يرتجف من البرد، غيوماً ثقيلة يزحم بعضها بعضاً، وأسراباً من الطيور تهم بالتحليق. تشرئب قصيدة الشاعر من جهة القلب، مثل برعم يتهيأ للظهور، مستجيبةً للحظةٍ من لحظاته، لحظةٍ عاشها بتعبٍ شفاف، منقوعٍ بمطر لا يكف عن التذكير بنفسه، رغم أن الشجر، خارج غرفتي، يغرق بالثلج منذ الليلة الماضية.

وفي كل يوم تقريباً، أشهد كيف تتحول هذه اللحظة إلى جزء من سخاء رباني قادم إلى المدينة. طبيعة تخرج عن نظامها بين عشية وضحاها، وتغير الكثير من عاداتها التي ألفناها مراراً في اليوم الواحد. الشجر الأبيض الطريّ يخفي عن الطيور خضرته المألوفة، والريح تغرف ألوانها من الأرصفة المثقلة بالقطن، والعشب النافر من بين أحجار الطريق.

أية لحظة هذه، شيء من الدفء يدب إلى بياض بارد، تتشكل خارج البيوت. لتكون بداية لدفء من نوع خاص، يتدفق بين عظام الناس

ويتنقل بين لغاتهم في وقت قريب. وبين دفء الداخل وثلجية الخارج ثمة مسافة يتسرب منها خيط من المودة، أو الذكرى، من الارتباط الذي لا ينقطع بين فصلين يمران معاً في لحظة من البياض الرمادي، يمتزجان فيه وينفصلان عنه في الآن نفسه.

(5)

ها هي الفصول تتبادل شيئاً من صفاتها. لحظة يترك فيها الخارج أثره على الداخل النفسي للناس. عطاء يجمع بين شغف البشر بالتواصل وحنينهم إلى العزلة، لحظة تتداخل فيها الفصول، شتاء نشهد بقاياه الأخيرة، ونتلمس بعضاً من آخر رغباته، وربيع يدخل تدريجياً إلى مفاصل المدينة، ويحيط عريها بالخضرة.

ها هو الشتاء يعود عودة سريعة ليحمل بعض حقائبه المنسية ثم يمضي إلى نهاياته الأخيرة. النهار يأخذ للمرة الأولى أهبته لإطلالة مختلفة، أو دائمة ربما. تاركاً المكان لريح خضراء، خفيفة، شفافة تعبر شوارع المدينة برشاقة أنثى. الطيور تكمن في مكان ما، في انتظار حفنة من الضوء، وشمس تجلس «عارية الكتفين على المصطبة»، في انتظار شجرة تنفض شعرها الأشيب الغزير وتتركه يذهب بعيداً مع الريح. والناس في الجَوار، ينتظرون صحوا نهائيا، حاسماً وصريحاً. لكنهم لا يظفرون بذلك دائماً. فهذا التداخل بين الفصول لا بد منه، إنه طلائع زمن جديد يطل من التوافد على مدينة بولو الصغيرة.

(6)

غير أن هناك دائماً ما يعكر الحلم، ويربك تدفقه الناعم. وكأن هادم اللذات ومفرق الجماعات يكمن للبشر دائماً، في مكان ما. يترصدهم في أجمل لحظاتهم. ليفتك بتناغمها. هناك زمن آخر. يشوه استمتاعنا بكل تلك الطبيعة الباهرة. كان الوباء على الأبواب. وجدناه دفعة واحدة ذات يوم، لم يترك لنا فرصة للاختباء، أو الهرب، أو المخاتلة. فجأة وجدنا أنفسنا عاجزين أمام هذا الوباء. شراسة تفوق طاقة البشر، وتفيض على ذكائهم التقني وما في تخصصاتهم من كشوفات ترقى إلى مستوى المفاجأة. وقفنا أمامه، أفراداً ومؤسسات وحكومات على حد سواء، ونحن في حالة من العجز المطلق. وكأننا نتفرج على قدراته العجيبة وهو يفاجئنا من الجهات جميعاً.

كان يوم وصلنا إلى استنبول، في آذار، 2020، وكأننا، ونحن نغادر على الطائرة الإماراتية، فارون أمام طوفانٍ، لا يبقي لا يذر. كانت رحلتنا هي الأخيرة قبل تعليق الرحلات بين دبي وتركيا. لم يتغير من جمال الطبيعة شيء، لكننا، كبشر، أصبنا في مقتل. وتعطلت فينا مباهج كثيرة. لم نعد نتذوق العالم كما كنا نفعل، بل صرنا نتشممه منقوصاً ونتحسسه منقوصاً، ونراه ونسمعه منقوصاً أيضاً، فهو اليوم يقع خارج حواسنا تماماً. نرى بعضنا من وراء حجب، ونصافح أصدقاءنا بقفازات، فلا يرون ملامحنا ولا نرى انفعالاتهم أو نسمع منهم بهجة أو عتاباً. لحظة

فارقة، تجعل كل شيء مختلفاً:

كنا نمضي إلى حديقة نرتادها، للتمشّي، كل يومٍ تقريباً..

قالت زوجتي، وقد توقّف المطرُ الخفيف فجأةً:

يا لها من بهجةٍ لا تصدق.

قلتُ، بعد أن ارتفعت الشمسُ من وراء الجبال المبللة:

لنجلس قريبين من ذلك النسيم الذي يتجول بين المصطبات.

قال الشرطيُّ، وهو يقفُ فجأةً بدراجته الضخمة وكمامته البيضاء:

عليكما أن تعودا إلى البيت حالاً.

إلى أين تأخذني القصيدة..؟

عبد اللطيف الوراري

يأتي إلينا الشاعر علي جعفر العلاق من إحدى قرى واسط، وفي أثره غناء المروج الفوّاحة وطيور الحصاد، ونواح الرّيح في سفرها الأبدي وهي تتصادى مع أغنيات الغجر الفارّين من حنين التاريخ. وقبل هذا وذاك، يأتي من أساطير دجلة. تشعر كأنّ ولادته نشيد لانهائي، وأنّه أومض للتوّ من قيعان هذا النهر السحيق ومعه أحلام الأطفال الغرقى، وأنّ صوته الخافت عريشة زعتر وهي تحلم وسط طوفان الصور والوقائع والحرائق، وذبذباته تصّاعدُ للتوّ من بخار الأيام ومن «لا وعي» الأعشاش بما توحي به من دفء وارتعاش وسخاء، على نحو يعطي الانطباع بأن كل فنّ أصيل على وشك الاندثار، وما يبقى منه هو فنٌّ في حد ذاته؛ لأنه لا يريد أن ينطفئ على أرض مُعذّبة دون أن يترجمها في أثر، وأن يمسح عن حجارتها ذاكرة الدم.

ولكن، ما معنى أن يكتب الشاعر سيرته الذاتية؟ أليس بإمكان الشّعر نفسه بوصفه كتابةً ذاتيّةً وفضاءً مُميّزًا لكتابة الذات والقصيدة في آن، أن يضطلع بهذه المهمّة على وجه أفضل؟

كان الشاعر العراقي علي جعفر العلاق منشغلًا على الدوام بكتابة سيرته على نحو من الأنحاء، في شعره العريض، وحواراته، ومقالاته، وتأملاته النظرية،

لغرض التعلم والإصغاء للفردي بقدر الجمعي، وليس ادّعاءً أو عن غرور؛ ولهـذا، عندما أراد أن يجمع أطراف هذه السيـرة الثـريّة والمتشابكة بأسـرارها ووقائعهـا ومشاهداتها، فإنّما يعيد تنظيمها واستكشافها من جديد، بما تنطـوي عليـه هـذه السيرة من تواريخ، وأسئلة، وهواجس، والتزام أخلاقي وثقافي متوتّر حيال الـذات والقصيدة، ومن العصر ككُلّ. ومـن ثمـة، يريـد أن يجعـل شـعره نابضًـا في قلـب السيرة، بل يمنحه حياة جديدة وتلقّيًا جديدًا.

تستدعي الذات ماضيها بصورة حميميـة، وتسـتدعي معـه حـالات انبثاقهـا المتعددة: ذكريات الطفولة، النزوح مـن القريـة إلى بغـداد في الخمسـينيات مـن القرن العشرين، تجربة اليتم والشعور بالعزلة بعد مـوت الأب (أحسسـتُ، بعـد موته، كأنّني قد هرمت فجأة)، اكتشاف الشـعر مبكّـرًا، الارتبـاط الوجـداني بـالأم والتفجّع برحيلهـا، الاتصـال بالصـحف والمجـلات الثقافيـة وكتـب الأدب والنقـد، وبالجماعات الأدبية، بما في ذلك جيل الستينيات الذي عايشـه دون أن يتـورّط في دعاواه ومواقفه الأيديولوجية، والسفر للدراسة وتوسـيع الخيـار الجـمالي للشـعر بين دمشق وبيروت والقاهرة، وصنعاء، والعين، وإكستر، ولندن، إلخ.

ويتقاطع مع سيرة الذات نسيجٌ متنوّعٌ وساحرٌ ومفجـع مـن وقـائع التـاريخ الجمَعي الذي انطفأ في لحظة، وتريد الذات تأمُّله من الداخل، بمـا ينغلـق عليـه من بقايا صور، وهوامش، ومسارح قاسية، وفواجع (حياة الغجر، فاجعة كـربلاء،

تبدّل القيم، اندحار الحاضر، جشع السلطة، خيانة المثقفين..). وهذا ما جعل نصّ السيرة يحتوي أمشاجًا من التاريخ، والمذكرات، ومحكي السفر، ووثائق المعيش، والبورتريه، والتخييل الذاتي، وغير ذلك. بيد أن الهُويّة السردية للسيرة تمتدّ من خيال الطفل الذي كانه الشاعر، ومات أبوه، مفتونًا بما يحكيه ويتذكّره ويستلهمه، قبل أن تصطبغ حكايته بلغة الشعر والحلم والأسطورة، التي تقودها -بكفاءة نصية وتخييلية- ليس إلى استدعاء ما مضى وولّى فحسب، بل - وهذا هو الأهمّ من سيرة الشاعر والقصد من كتابتها تحديدًا- إلى استئناف ما انقطع في لحظة ما وتحت تأثير قاهر، وإعادة دمجه في سيرورة حياة جديدة، على نحو يبعث زمن الذات من ركامه ويعطي لهُويّتها المتحولة معنى آخر، ولعصره بعض بصيص الأمل والتفاؤل.

وبناءً على هذا التنويع الذي طبع نصّ السيرة، فهو لم يلتزم بالترتيب الكرونولوجي- الخطّي لوقائعها، بل يعمد إلى تكسير نظامه من خلال استدعاءات آنية، وذكريات، ومحكيّات، وشذرات شعرية، ومشهديّات بصرية، ودروس من تلقاء ذاتها، لا تملأ الفجوات هنا وهناك أكثر من كونها تعيد تنظيم السيرة الذاتية بما هي نوع أدبي له مواضعاته الخاصة، أو بما هي خطاب جمالي يعيد تأويل ملفوظاتها في سياق ما تقترحه كتابيًا؛ حيث لا حدود بين السردي

والشعري، وحيث اللغة تمارس شعريّتها بشـرط إثـراء فضـاء الذاتيـة، لا التعميـة على ما ينقله أو يصفه.

إلى أين أيتها القصيدة؟

لقد تماهت سيرة الذات وسيرة القصيدة بشكل غير قابل للفصل، وهذا الأمر لا يحدث كثيراً في تاريخ الشعر. إن الطفل الذي ولد على ضـفاف دجلـة، وتَخيّـل الشعر «كهواء القرية وحقولها الممرعـة»، مـن أيـن للقحـط المـادي والرمـزي أن يتسرب إلى مُخيّلته المائية؟!

كان علي جعفر العلاق «من ذوي الأقلام» بالفعـل، فعـاش يكتـب بدهشـةٍ، ويقظةٍ، وأفقٍ بالغ الثـراء، وظـلّ يراقـب قصـيدته وهـي تتطـوّرُ عـلى الـدوام إلى أقصى ممكناتها، وتقوده إلى العالم غير عابئٍ بإغواء السلطة وزعيـق الأيـديولوجيا في ذروة صعودها، وغير هيّابٍ إلا من الفـنّ والجـمال. ومثـل ذلـك، عـاش ناقـدًا مسكونًا بجدوى الشعر وضرورته، ومُثقفًا أصيلًا لم يتنازل أنملة عن حرية الإنسان اليوم، وواجب التطلُّع إلى عصـر أقلّ وحشيّةً وأكثر أمانًا.

إصدارات علي جعفر العلاق

في الشعر:

1. طائرٌ يتعثر بالضوء، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، 2022.
2. تفاحة الضوء: مختارات شعرية، الآن ناشرون وموزعون، عمان، 2021.
3. فراشات لتبديد الوحشة، دار خطوط، عمان، 2021.
4. المجموعات الشعرية الأخيرة، مؤسسة العويس الثقافية، دبي، 2021.
5. طائرٌ يتعثّرُ بالضوء، دار فضاءات، عمان، 2018.
6. وطن يتهجّى المطر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2015.
7. الأعمال الشعرية، مجلدان، دار فضاءات، عمّان، 2014.
8. عشبة الوهم، قصائد مختارة، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، 2010، 2014.
9. حتى يفيض الحصى بالكلام، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2013.
10. نداء البدايات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013.
11. الأعمال الشعرية الكاملة، مجلدان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2013.
12. ذاهبٌ لاصطياد الندى، دار فضاءات، عمّان، 2011، 2010.

13. هكذا قلت للريح، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2008.
14. سيد الوحشتين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2006.
15. مختارات شعرية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.
16. ممالك ضائعة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999.
17. الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1998.
18. أيام آدم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1993.
19. قصائد (بالإنجليزية)، دار المأمون، بغداد، 1988.
20. فاكهة الماضي، بغداد، 1985.
21. شجر العائلة، بغداد، 1979.
22. وطنٌ لطيور الماء، بغداد، 1975.
23. لا شيء يحدث.. لا أحد يجيء، دار العودة، بيروت، 1973.

في النثر:

1. الحلم والوعي والقصيدة: في الشعر وما يجاوره، دار كنعان، دمشق، 2022.
2. المعنى المراوغ: قراءات في شعرية النصّ، دار فضاءات، عمّان، 2020.
3. في مديح النصوص: قراءات نقدية حميمة، فضاءات، عمان، 2019.
4. من نصّ الأسطورة إلى أسطورة النصّ، فضاءات، عمّان، 2010.
5. قبيلة من الأنهار: الذات، الآخر، النص، دار الشروق، عمّان، 2008.

6. ها هي الغابة فأين الأشجار؟، دار أزمنة، عمّان، 2007.
7. الدلالة المرئية، قراءات في شعرية القصيدة الحديثة، عمان 2002، 2013.
8. الشعر والتلقي، عمّان، 2002، 2013.
9. في حداثة النصّ الشعري، بغداد، 1990، عمان، 2003، 2013.
10. دماء القصيدة الحديثة، بغداد، 1988.
11. مملكة الغجر، بغداد، 1981.

فهرس المحتويات

1

2

3

4

5



علي جعفر العلّاق

إلى أين أيتها القصيدة؟

يأتي إلينا الشاعر علي جعفر العلّاق من إحدى قرى واسط، وفي أثره طيور الحصاد، ونواح الرّيح في سفرها الأبديّ وهي تتصادى مع أغنيات الغجر الفارّين من حنين التاريخ. يأتي من أساطير دجلة وكأنّ ولادته نشيدٌ لانهائيّ، وأنّه أومض للتوّ من قيعان هذا النهر السحيق ومعه أحلام الأطفال الغرقى.

تستدعي الذات ماضيها بصورةٍ حميمية، وتستدعي معه حالات انبثاقها المتعددة: ذكريات الطفولة، النزوح من القرية، تجربة اليتم بعد موت الأب، اكتشاف الشعر مبكّرًا، الارتباط الوجدانيّ بالأم، الاتصال بالمجلات الثقافية، وكتب الأدب والنقد، وجيل الستينيات، الذي عايشه دون أن يتورّط في دعاواه ومواقفه الأيديولوجية، والسفر للدراسة وتوسيع الخيار الجماليّ للشعر بين دمشق، وبيروت، والقاهرة، وصنعاء، والعين، وإكستر، ولندن.

ويتقاطع مع هذه السيرة الثريّة المتشابكة، نسيجٌ متنوّعٌ، وساحرٌ، ومفجع، من وقائع التاريخ الجمعيّ الذي انطفأ في لحظة، وتريد الذات تأمُّله، بما ينغلق عليه من بقايا صورٍ، وهوامش، ومسارح قاسيةٍ، وفواجع: حياة الغجر، فاجعة كربلاء، تبدّل القيم، اندحار الحاضر، جشع السلطة، خيانة المثقفين.

كان علي جعفر العلّاق يكتب بدهشةٍ، ويقظةٍ، وأفقٍ بالغ الثراء، وظلّ يراقب قصيدته وهي تتطوّرُ على الدوام إلى أقصى ممكناتها، وتقوده إلى العالم غير عابئٍ بإغواء السلطة وزعيق الأيديولوجيا في ذروة صعودها، وغير هيّابٍ إلا من الفنّ والجمال. ومثل ذلك، عاش ناقدًا مسكونًا بجدوى الشعر وضرورته، ومُثقفًا أصيلًا لم يتنازل أنملةً عن حرية الإنسان اليوم، وواجب التطلّع إلى عصرٍ أقلّ وحشيةً وأكثر أمانًا.

عبد اللطيف الوراري








